وقفات مع سيرة النبي المصطفى

عبد المنعم مصطفى حليمة
أبو بصير الطرطوسي
غفر الله له

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مُضلَّ له، ومن يُضلِل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾آل عمران:102.

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَّ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللهَّ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾النساء:1.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَّ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللهَّ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾الأحزاب:70-71.

أما بعد:

فإن أصدَقَ الحديثِ كتابُ الله، وخيرَ الهدي هديُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم، وشرَّ الأمورِ محدثاتها، وكلَّ محدثَةٍ بدعة، وكُلَّ بدعةٍ ضلالة، وكلَّ ضلالةٍ في النار.

وبعد، هذه جملة من الخواطر والوقفات مع سيرة النبيّ المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .. نسلّط فيها الضوء على بعض جوانب حياة وسيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم .. كتبتها على غير مراعاة لتسلسل أحداث السيرة النبويّة العطرة؛ ابتداءً من الميلاد حتى الوفاة ــ كما دَرَجت على ذلك كتب السيرة ــ عسى أن يكون في ذلك تشويقاً للقارئ، وأروح للنفس، وأنفع .. سائلاً الله تعالى أن ينفعني، والمسلمين ــ وسائر الناس ــ بها .. إنه تعالى سميع قريب مجيب .. وصلى الله على محمد النبي الأمي، وعلى آله وصحبه وسلم.

1/ 3/ 1436 هـ. 23/ 12/ 2014 م

الوقفة الأولى

"النبى صلى اللّه عليه وسلم كنز لا ينضب خيره، ونبع دفّاق لا يتوقف عطاؤه"

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كنز لا ينضب خيره .. والناس وما يغترفون من خيره وعلمه .. فمنهم المقل، ومنهم المكثر .. ومهما أكثرتَ .. فأنت لم تغترف إلا القليل.

وعلى قدر العلم بالنبي صلى الله عليه وسلم، والإقبال عليه وعلى سنته وسيرته .. يكون الاغتراف .. وتكون المنفعة والفائدة.

ثم أنت مهما أقبلت على شخص وسيرة وسنة الحبيب صلى الله عليه وسلم .. دراسة وتأملاً وتدبراً .. تشعر أنك لم توف هذه الشخصية العظيمة المباركة حقها من البحث والدراسة .. كما تشعر أنك تحتاج إلى مزيد من التعرف عليه وعلى سيرته، وسنته.

ولا يغرنك أنك قد قرأت عن سيرة النبي صلى الله عليه وسلم كتاباً أو كتابين .. ثم بعد ذلك تقول لنفسك: هذا يكفي .. فقد أحطت بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم علماً، وبما فيه الكفاية .. لم أحتج معه إلى مزيد من الطلب .. فإن حصل شيء من ذلك، فاعلم أن الشيطان قد ضحك عليك، وفوّت عليك خيراً كثيراً.

عن يزيد بن بابَنُوس قال: دخلنا على عائشةَ فقلنا: يا أمَّ المؤمنين، ما كان خُلُقُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم؟ قالت: "كان خُلُقُه القرآنُ" [صحيح الأدب المفرد:234].

كان صلى الله عليه وسلم خُلُقُه القرآنُ كاملاً، بكل ما في القرآن الكريم من علوم وخير، وفوائد .. كما كانت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم قد فسرت القرآن الكريم تفسيراً عملياً، وشاملاً وافياً لجميع ما في القرآن الكريم من علوم وفوائد وخير .. فكان قرآناً يمشي على الأرض .. وأينا يستطيع أن يزعم أنه قد ألم وأحاط بجميع ما في القرآن الكريم من من علوم وكنوز، وفوائد، بحيث لم يعد ينقصه منها شيئاً؟!

ولكي تدرك صحة ما قررناه أعلاه .. يكفي أن تعلم أن آلاف العلماء الربانيين العاملين منذ مبعث النبي صلى الله عليه وسلم وإلى يومنا هذا .. ومن سيأتي بعدنا إلى يوم القيامة .. ومئات الآلاف من الكتب الإسلامية النافعة التي خطها هؤلاء العلماء .. والتي سيخطونها .. ما هي إلا أثراً من آثار النبي صلى الله عليه وسلم .. إذ الجميع ــ في جميع ما يخطون ويكتبون، وما يقولون وما يفعلون ــ عالة عليه، وعلى سيرته، وسنته .. صلوات ربي وسلامه عليه.

وحجة الواحد من هؤلاء العلماء ــ سواء كانوا من السابقين أم اللاحقين ــ على الخلق، تكون على قدر قربه وموافقته لسنّة النبي

المصطفى صلى الله عليه وسلم .. أما المخالف له فلا حجة له .. ولا يجوز الالتفات إليه، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾النور: 63.

حديث واحد من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم .. ترى عالماً يستنبط منه فائدة .. وآخر يستنبط منه بضع فوائد .. وآخر يستنبط منه عشرات الفوائد .. وآخر قد يستنبط منه مئات الفوائد .. بحسب ما يفتح الله عليه .. وفوق كل ذي علم عليم.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوقفة الثانية

"النبى صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لجميع المؤمنين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية"

اعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم مَثَل أعلى، وأسوة حسنة لجميع المؤمنين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية، واختلاف تنوعهم العرقي والقومي .. فمن نشَد المثَل الأعلى الذي لا يوازى في السمو والمرتبة .. الذي يتأسى به في جميع شؤون حياته، فليس له إلا النبي صلى الله عليه وسلم .. وما سواه يخطئ ويُصيب .. يُقال له أصبت وأخطأت .. يُؤخذ منه، ويُرد عليه .. بحسب موافقته أو مخالفته لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، ولسيرته.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾الأحزاب:21. وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾الأنفال:1.

فكما أن الله تعالى يجب توحيده وإفراده في العبادة؛ فلا يُعبد أحد سواه .. كذلك يجب توحيد محمدٍ صلى الله عليه وسلم في المتابعة، والتأسّي، والاقتداء .. فهو حظنا من النبيين، ونحن حظه من الأمم.

ولما جاء عمر رضي الله عنه بجوامع من التوراة، وعرضها على النبي صلى الله عليه وسلم، غضب النبي صلى الله عليه وسلم، وتغير

وجهه، فما كان من عمر إلا أن قال: رضينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ دينًا، وبمحمدٍ نبيًّا، وبالقرآنِ إمامًا، فَسُرِّيَ عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ثم قال: "والذي نفسُ محمدٍ بيدِه لو كان موسَى بينَ أظهرِكم ثم اتبعتموهُ وتركتموني لضللتمْ ضلالًا بعيدًا، أنتم حَظِّي من الأممِ وأنا حَظُّكُمْ من النبيينَ". وفي رواية: "لو نزل موسى فاتبعتُموهُ وتركتُموني لضلَلْتُمْ، أنا حظُّكم منَ النبيينَ، وأنتم حظي منَ الأمَمِ"[صحيح الجامع: 5308].

فالنبي صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر الذي تُعرَض عليه الأشياء؛ فما وافق ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم فهو الحق، وما خالفه فهو الباطل.

قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾الحشر:7.

والأمر بالاقتداء والتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، من لوازمه أمران:

أولهما: أن تتوفر في النبي صلى الله عليه وسلم جميع صفات وخصال الكمال التي ينشدها البشر في البشَر .. وبصورة لا يماثله ولا يفوقه بها أحد من الناس، حتى لا يقول إنسان: شخص النبي صلى الله عليه وسلم ناقص في صفة من الصفات، وبالتالي لا بد من أن أكمل

هذا النقص وأنشده في شخص آخر .. والشخص الآخر هو قدوتي فيما لم أجده في محمدٍ صلى الله عليه وسلم .. فيقع حينئذٍ في شرك المتابعة والاقتداء .. وهذا لا يجوز!

فالنبي صلى الله عليه وسلم سيد ولد آدم .. وخير خلق الله .. وأحب خلق الله إلى الله سبحانه وتعالى .. قد اكتملت فيه جميع صفات الكمال التي ينشدها الإنسان، ويحتاجها في حياته .. ومهما نشد الإنسانُ مثلاً أعلى يقتدي ويتأسى به .. لن يجد مثل النبي محمد صلى الله عليه وسلم.

ثانيهما: أن تجد جميع طبقات وشرائح المجتمع في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة تناسبها، وتناسب اختصاصها .. طبقة الأغنياء، والفقراء .. الحكام والقضاة .. العلماء، والعبّاد، والزهّاد .. المجاهدون في سبيل الله .. الأزواج في بيوتهم .. التجار والعمّال .. الآباء والمربون .. كلهم يجدون في النبي صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى، والأسوة الحسنة فيما هم فيه من اختصاص .. إذ لا توجد شريحة أو طبقة من الناس تقول: لا أجد في النبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فيما أنا مختص به .. وبالتالي لا بد لي من أن أبحث عن شخص آخر أتأسّى وأقتدي به!

حاشى لله عز وجل أن يقول للناس: لكم في رسول الله أسوة حسنة .. اقتدوا به واتبعوه وأطيعوه .. ثم من الناس من لا يجد في النبي صلى الله عليه وسلم الخصال التي تخصه وتعنيه، وتناسب اختصاصه وواقعه .. والتي يحتاج فيها للاقتداء والتأسي!

* * * * *

الوقفة الثالثة

"لا فرق بين السنة والسيرة"

اعلم أن المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم لا تتحقق ولا تكتمل إلا بمتابعة سنته القولية والتعبدية، وسيرته الذاتية والجهادية .. إذ هناك من يفرق بين السنة والسيرة .. فيُقبِل على السنة وفقه السنة، ويُدبر عن السيرة، وفقه السيرة .. أو لا يعيرهما نفس القدر من الاهتمام!

قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾النجم:4. فكل ما يصدر عنه صلى الله عليه وسلم من قول أو عمل أو إقرار .. من سنة أو سيَر .. من أمر أو نهي .. ما هو إلا وحي يُوحى.

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾الحشر:7.

فكل ما آتانا به الرسول صلى الله عليه وسلم من سنة وسيَر يجب أخذه والعمل به وبمقتضاه .. لا نفرق بين سنة وسنة، ولا بين سنة وسيرة .. وكل ما نهانا عنه من اعتقاد، وقول، وعمل .. يجب الانتهاء عنه .. ومن لم يفعل .. وفرق بين السنة والسيرة .. بين الشعائر التعبدية والجهاد والسيَر .. فأقبل على هذا، وترك ذاك .. يُخشى أن يُحمل عليه وعلى أمثاله قوله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾البقرة:85.

الوقفة الرابعة

"شرط الولاية المتابعة"

اعلم أن الولاية لا تتحقق للمرء إلا بمتابعة النبي محمد صلى الله عليه وسلم عن حبٍّ ورضى .. والاقتداء بسنته وسيرته .. فعلى قدر تحقيق المتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم عن حب ورضى .. والاقتداء بسنته وسيرته .. على قدر ما تكون محبة العبد لربه، ومحبة الرب سبحانه وتعالى للعبد .. فأسعد الناس بالولاية، وأوفرهم حظاً بها، هم أهل الاتباع للنبي صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾آل عمران:31.

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾النور:51. فهم المؤمنون .. وهم المفلحون حقاً .. لأنهم يقولون ــ ظاهراً وباطناً، وفي القول والعمل ــ إذا ما دُعوا إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .. ﴿سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا﴾.

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُّ بِأَمْرِهِ وَاللهُّ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾التوبة:24.

وعن أنس، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولده، والناسِ أجمعين"متفق عليه.

وفي رواية مسلم: "لا يؤمنُ عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهلِه ومالِه والناسِ أجمعين".

وحتَّى يتحقق ذلك لا بد من بذل الجهد المستطاع في التعرف على شخص النبيّ صلى الله عليه وسلم، وعلى سيرته وسنته، إذ يستحيل تحقيق المتابعة من غير علم .. فالعلم يتقدم العمل، وعلى قدر العلم، تكون المتابعة .. ويكون العمل .. ومن ثم تكون الولاية .. وإلا فإن جاهل الشيء لا يعطيه.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوقفة الخامسة

"النبى صلى اللّه عليه وسلم حجةٌ على الخلق"

اعلم أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد حلَّاه ربه عز وجل بخصال، وأخلاق حميدة عظيمة .. هي بذاتها حجة على الخلق .. فمن سمع بها ولم يُؤمن بصاحبها، إلا وكان من أهل النار.

قال تعالى: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى هُدًى مُّسْتَقِيمٍ﴾الحج:67.

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾القلم:4.

وفي الحديث، عن أنس، قال: "كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقاً"متفق عليه.

قال صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسُ محمدٍ بيده لا يسمعُ بي أحدٌ من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموتُ ولم يؤمن بالذي أُرسلت به إلا كان من أصحاب النار"مسلم.

وهذا حقه صلى الله عليه وسلم .. ومن خصوصياته التي انفرد بها من دون الناس .. فكيف يسمع المرء به .. وبصفاته .. وأخلاقه العظيمة .. وسيرته .. ودعوته .. ثم لا يؤمن .. إنه لشيء عُجاب!

كان أحدهم من قبل يُضمر للنبي صلى الله عليه وسلم العداوة والبغضاء .. والرغبة في القتل .. فما إن يرى النبيّ صلى الله عليه وسلم .. ويسمع منه بضع كلمات .. إلا وتنقلب عداوته إلى محبة وإيمان

وانقياد .. ويعود إلى قومه داعيا، وبشيراً ونذيراً .. قائلاً لهم: قد جئتكم من عند أكرم وأصدق الناس، وأوفاهم، وأبرهم، وأوصلهم للرحم ..!

طواغيت مشركي قريش .. حاروا في أمرهم كيف يصدون الناس

عن متابعة النبي صلى الله عليه وسلم .. إذ الناس ما أن يروه .. ويسمعوا منه بعض ما أنزل عليه من ربه .. إلا ويؤمنون به، ويتبعونه!

فلم يستطيعوا ــ على حقدهم وكفرهم المغلظ ــ أن ينسبوا له شيئاً يقدح في صدقه، وأمانته، وعفته، وعظمة أخلاقه .. ينفّر عنه الناس .. وبعد التفكير، والتقدير، والتدبير .. خرجوا بقولهم الكاذب عنه: أنه ساحر .. وأن أفضل إطلاق يُطلقون عليه ــ يساعدهم في تنفير الناس عنه ــ أنه ساحر .. وأن ما يتزل عليه من ربه، هو السحر ... وما هو بساحر .. ولكن لما يرون من أثر أخلاقه العظيمة التي تحمل الآخرين على أن يؤمنوا به .. ويسلّموا له تسليماً .. لمجرد رؤيتهم أو سماعهم له .. قالوا عنه: ساحر .. ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِباً﴾الكهف:5.

قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً * وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَّمْدُوداً * وَبَنِينَ شُهُوداً * وَمَهَّدتُّ لَهُ تَمْهِيداً * ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ * كَلَّا إِنَّهُ كَانَ

لِآيَاتِنَا عَنِيداً * سَأُرْهِقُهُ صَعُوداً * إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ * فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ * ثُمَّ نَظَرَ * ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ * ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ * فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ * إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ * سَأُصْلِيهِ سَقَرَ﴾المدّثر:11-26.

وهذا يشدنا لأن نشير إلى أهمية حسن الخلق في الدعوة إلى الله .. وأن الداعية إلى الله تعالى كلما حسنت أخلاقه وسيرته .. كلما كان أكثر جاذبية .. وأكثر ترغيباً للناس فيما يدعوهم إليه .. وكلما ساءت أخلاقه، كلما كان أكثر تنفيراً للناس لما يدعوهم إليه .. حتى لو كان الذي يدعوهم إليه حقّاً منزّلاً!

قال تعالى: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾آل عمران:159.

وحتى يُعطي الحقُّ عطاءه المرجو .. ويعمل عمله في الناس .. لا بد من أن يُسيّج بسياج من الأخلاق الحسنة الحميدة.

* * * * *

الوقفة السادسة

"خُلق العفو عند النبى صلى اللّه عليه وسلم"

من يتأمل سيرته صلى الله عليه وسلم في العفو عن مخالفيه يجد عجَبا .. فقد عفا عفواً لا يقدر عليه إلا نبي مرسل .. ولا يُقدم عليه إلا من كان يملك قلب نبي مرسل .. وأخلاق نبي مرسل .. فقد عفا عن رجال قد بالغوا وأفرطوا في محاربته، ومحاربة دينه ودعوته .. فقد عفا عن أبي سفيان زعيم المشركين وسيدهم في الحرب على الإسلام ورسول الإسلام .. وعفا عن هند زوجة أبي سفيان .. وهي التي كانت تحرض على قتاله ومن معه من المسلمين يوم أحد وما بعد أحد .. وقد مثّلت بحمزة عم رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ولاكت كبده .. وعفا عن وحشي قاتل حمزة .. وعفا عن عِكرمة بن أبي جهل .. ابن فرعون هذه الأمة .. وقد استمر في قتال النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما بعد فتح مكة .. ومثله صفوان بن أمية بن خلف .. وسُهيل بن عمرو .. وغيرهم الكثير .. حتى أنه جمع مشركي قريش على صعيد واحد .. وكانوا من قبل قد آذوه، وحاربوه، وأخرجوه ومن معه من المسلمين من مكة المكرمة .. فخاطبهم قائلاً بعد أن قدر عليهم: "ما ترون أني فاعلٌ بكم"، قالوا: خيراً، أخ كريم، وابن أخٍ كريم .. فقال صلى الله عليه وسلم: "اذهبوا؛ فأنتم الطلقاء"!

ومن آيات عفوه صلى الله عليه وسلم وعظمته .. أنه ما من رجل عفا عنه .. إلا وكان لهذا المعفي عنه فيما بعد .. وقفات إيمانية عظيمة .. وجهاد .. ونصرة لدين الله تعالى .. يقول كل مطلع على حال المعفي عنه قبل العفو، وبعده .. الحمد لله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عفا عنه، ولم يأخذه بذنوبه!

نعم؛ إنه خُلق العفو أعظم وأنعم به من خلق عظيم .. ونحن وإن كنا لا نستطيع أن نرقى إلى مستوى عفو النبي صلى الله عليه وسلم عمن خالفنا، وآذانا .. إلا أننا يجب أن نجتهد في التأسي بالحبيب صلى الله عليه وسلم .. وأن نتخلق بخلق العفو ما أمكننا لذلك سبيلاً .. فالله تعالى أمر بالعفو، ويحب العفو، ويجزي عليه خيراً، كما قال تعالى: ﴿فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ ﴾البقرة:109. وقال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾الأعراف:199.

وقال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوَاْ إِنَّ اللّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾البقرة:195. وقال تعالى: ﴿وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ﴾البقرة:58. وقال تعالى: ﴿ إِنَّ رَحْمَتَ اللّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾الأعراف:56. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾التوبة:120. ألا تحب أن يحبك الله ــ يا عبد الله! ــ وأن تكون قريباً منه سبحانه وتعالى ومن رحمته، وأن يجزيك خيراً، ويزيدك .. فأحسن إلى من ظلمك بالعفو عنه.

قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثٌ أُقسِمُ عليهِنَّ ــ منها ــ: ولا عَفَا رجلٌ عن مَظلمةٍ ظُلِمَها إلا زادَهُ اللهُ تعالَى بِها عِزًّا، فاعفُوا يزِدْكمُ اللهُ عِزًّا"[صحيح الجامع:3025].

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوقفة السابعة

"خُلُق الوفاء بالعهد"

جميع مكارم الأخلاق في أعلى وأجل صورها تجسدت في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .. وفي جهاده .. من أبرز هذه الأخلاق العفو عند المقدرة .. وقد تقدم الحديث عنه .. وخُلق الوفاء بالعهد.

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾المائدة:1 .

وقال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْؤُولاً﴾الإسراء:34.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أمّن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل، وإن كان المقتول كافراً"[السلسلة الصحيحة:440]. وفي رواية: "مَن أمَّن رجلاً على دمه فقتله فإنه يحمل لواء غدرٍ يوم القيامة".

وقال صلى الله عليه وسلم: "من قتل معاهداً لم يُرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاماً"البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا من ظلمَ معاهداً، أو انتقصه حقه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسٍ منه، فأنا حجيجه يوم القيامة"[صحيح الجامع الصغير: 2655].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا اطمأنَّ الرجلُ إلى الرجلِ ثم قتله بعدما اطمأنَّ إليه، نُصِب له يومَ القيامةِ لواءُ غَدرٍ"[صحيح الجامع:357].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له"[أخرجه أحمد].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إني لا أخيسُ بالعهد، ولا أحبس البُرُدَ"[صحيح سنن أبي داود:2396]. أي لا أنقض العهد ولا أسيء له .. كذلك ليس من هدي أن أحبس الرسل، وسفراء قومهم إلي ـــ أيّاً كان دينهم ـــ وأمنعهم من العودة إلى أماكنهم ومساكنهم آمنين.

وقد سأل قيصر ملك الروم أبا سفيان ـ وذلك قبل إسلامه ـ عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان مما سأله عنه: "فهل يغدر؟"، قال أبو سفيان: لا، قال الملِك: "كذلك الرسل لا يغدرون"البخاري.

وقد بلغ من شدة حرص النبي صلى الله عليه وسلم على الوفاء بالعهد، وعدم الغدر .. أن أعاد من جاءه مسلماً إلى مشركي قريش، كما تنص على ذلك بنود صلح الحديبية، كما في صحيح البخاري فقد أخرج تحت باب "ما يجوز من الشروط في الإسلام"، عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لما كاتب سُهيل بن عمرو يومئذٍ كان فيما اشترط سُهيل بن عمرو على النبي صلى الله عليه وسلم أن لا يأتيك منا

أحد ــ وإن كان على دينك ــ إلا رددتَه إلينا وخليت بيننا وبينه. فكره المؤمنون ذلك وامتعضوا منه، وأبى سُهيل إلا ذلك، فكاتبه النبي صلى الله عليه وسلم على ذلك، فردَّ يومئذٍ أبا جندل إلى أبيه سهيل بن عمرو، ولم يأته أحد من الرجال إلا ردَّه في تلك المدة وإن كان مسلماً"!

وفي رواية في الصحيح كذلك، فقال سهيل: "وعلى أنه لا يأتيك منا رجل ـــ وإن كان على دينك ــ إلا رددته إلينا، قال المسلمون: سبحان الله، كيف يُردُ إلى المشركين وقد جاء مسلماً؟!

فبينما هم كذلك إذ دخل أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ في قيوده، وقد خرج من أسفل مكة حتى رمى بنفسه بين أظهر المسلمين، فقال سُهيل: هذا يا محمد أول من أُقاضيك عليه أن ترده إلي . قال أبو جندل: أي معشر المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جئت مسلماً ؟! ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عُذب عذاباً شديداً في الله".

قال ابن حجر في الفتح 5/ 407 : زاد ابن إسحاق فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يا أبا جندل، اصبر واحتسب فإنا لا نغدر، وإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً".

ونحوه كما في الصحيح، عندما أمر النبي صلى الله عليه وسلم أبا بصيرٍ بأن يلحق بقومه المشركين، وسلمه للرجلين الكافرين اللذين جاءا في طلبه، وفاء بالعهد الذي تم التعاقد عليه في الحديبية.

قال ابن حجر في الفتح 5/ 411: وفي رواية ابن إسحاق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يا أبا بصير إن هؤلاء القوم صالحونا على ما علمت، وإنا لا نغدر، فالحق بقومك" فقال: أتردني إلى المشركين يفتنوني عن ديني ويعذبونني؟! قال: "اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك فرجاً ومخرجاً".

نعم؛ إلى هذا الحد تُراعى حرمة العهود والعقود في ديننا .. ومن هذه النصوص الواردة أعلاه وغيرها، نص أهل العلم على أن شبهة العهد والأمان في ديننا عهد وأمان .. وشبهة الغدر، غدر!

وقد حذّر النبي صلى الله عليه وسلم من عواقب الغدر على صاحبه في الدنيا قبل الآخرة، فقال: "ما نقَضَ قومٌ العهد إلا سلّط عليهم عدوَّهم"[صحيح الترغيب:765]. وقال صلى الله عليه وسلم: "ما نقضَ قومٌ
العهدَ إلا كان القتلُ بينهم"[صحيح الترغيب:3005].

هذا معْلَمٌ أخلاقي عظيم .. لا يخفى على أدنى مطلع على سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .. وعند أول اطلاع على سيرته صلوات ربي وسلامه عليه .. ما أحوجنا لأن نتخلق به نحن في هذا الزمان الذي مرجت فيه عقود وعهود الناس وخفَّت .. ورقَّت .. حتى بات يُقال في بني فلانٍ رجل أمين .. والله المستعان.

الوقفة الثامنة

"النقلة النوعية والعظيمة التى حصلت للبشرية بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم"

كان العربُ ــ وقريش منهم ــ في جاهلية عمياء .. يعبدون ما يصنعون بأيديهم من الأصنام والحجارة .. وأحياناً كانوا يصنعون أصناماً من تمرٍ فإذا جاعوا، أكلوها .. وكان أحدهم يقول: "كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو خير منه، ألقيناه وأخذنا الآخر، فإن لم نجد حجراً، جمعنا حثوة من ترابٍ، ثم جئنا بالشاة، فحلبنا عليه، ثم طفنا به"البخاري. فجعلوا من تلك الأصنام والحجارة ديناً يوالون عليه ويُعادون .. ويُحاربون، ويُسالمون .. لا يرون ديناً خيراً من دينهم!

كانوا متفرقين متناحرين .. أذلاء .. يتشاجرون فيما بينهم من أجل ناقة وما هو أقل من الناقة .. القوي منهم يسطو على الضعيف .. قد تقاسمتهم .. وتقاسمت بلادهم، وخيراتهم .. الفرس، والروم .. القوتان العظميان في ذلك الوقت .. فاستعبدوهم، وساموهم ذلاً وهواناً!

لا يعرفون من شؤون الحياة .. سوى اللهو، واللعب .. والمتاع ..

والتفاخر، والتماجد بالأموال والأولاد .. أما البنات، فكن مصدر عار وشؤم، وكثيرات منهن كنّ يتعرضن للوأد المبكر، وهن في سن الرضاعة!

كانوا ــ بأعمالهم لا بأعمارهم ــ صغاراً .. بكل ما يعني الصَّغار من معنى!

فجاء محمد .....!!!

أرسلَ اللهُ محمدا ..... للعالمين بشيراً ونذيراً!

فماذا صنع .. وماذا حصل؟!

صنع ما تُحار له العقول .. وحصل العجَب العُجاب!

جعل ممن تقدم ذكرهم ــ بإذن ربه ــ هداةً مهديين .. وقادة مصلحين .. وعلماء ربانيين .. وأبطال فاتحين!

أخرجهم من عبادة الأصنام والأوثان .. والطواغيت .. إلى عبادة الله الواحد الديان .. ومن جور الأديان، إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة!

وحّد بهم العرب على كلمة التوحيد "لا إله إلا الله".. وجعلهم جميعاً على قلب رجلٍ واحد .. ثم غزا بهم العجم .. إلى أن فتح بهم بلاد فارس والروم .. ودخل الناس في دين الله أفواجاً!

أخرج الناسَ من ظلمات الجهل، والشرك، والظلم .. إلى نور العلم، والتوحيد، والعدل!

تمَّ ذلك كله في بضعٍ وعشرين عاماً ..!

ما أعظمَ محمدا ...!

ما أحلَم .. وأحكَمَ .. وأصبرَ .. وأرفقَ محمدا ...!

كم صَبرَ .. وضحّى .. وجاهد من أجل أمته .. بل من أجل الناس

جميعاً .. صدق خالقُه ومُرسِله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾الأنبياء:107.

كيف كان العرب .. بل كيف كان الناس كل الناس .. من دون محمدٍ .. وقبل بعثته .. ثم كيف أصبحوا .. وصاروا .. بعد بعثة النبي صلى الله عليه وسلم؟!

وكما كانوا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم .. نعود فنكون .. إن تخلينا عن محمدٍ .. وعن دينه، ودعوته .. صلى الله عليه وسلم .. فالسُّنَن لا تُحابي أحَدا!

فنحن قوم أعزنا اللهُ بالإسلام وبمحمدٍ .. فإذا ما تخلينا عمَّا أعزنا الله به، أذلَّنا الله!

* * * * *

الوقفة التاسعة

"أوسمة شرف وعز منحها النبى صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه"

من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أنه كان يُضفي عليهم ألقاباً وأوسمة شرف، كل بحسبه .. كل وسام .. يفوق شهادات الأرض كلها .. شَرفاً وعِزّاً.

أبو بكر رضي الله عنه: الصِّدّيق .."أرحمُ أُمَّتي بِأُمَّتي : أبو بكرٍ"!

ومن الأوسمة التي أُعطاها " العتيق ": "أنتَ عَتِيقُ اللهِ من النَّارِ " فيومئذٍ سُمّي عَتيقاً.

عمر رضي الله عنه: الفاروق .. يفرق الله به بين الحق والباطل .."أَشَدُّهُمْ فِي أَمْرِ اللهِ: عمرُ"!

أبو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ رضي الله عنه: أمين هذه الأمة ..!

عثمان بن عفان رضي الله عنه: أصدق أمتي حياءً، عثمان بن عفان ..!

علي رضي الله عنه: أقضَى أمتي، علي بن أبي طالب ..!

خالد بن الوليد رضي الله عنه: سيفُ الله المسلول ..!

أبو ذَرٍّ الغفاري رضي الله عنه: "ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّتِ الغَبراءُ، من ذي لهجَةٍ أصدَقُ ولا أوْفَى من أبي ذرٍّ، شِبْهُ عيسى بنِ مريمَ"[صحيح الجامع:5538].

أُبَيُّ بْنُ كعبٍ رضي الله عنه: أَقْرَؤُهُمْ لِكتابِ اللهِ، أُبَيُّ بْنُ كعبٍ ..!

زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ رضي الله عنه: أَفْرَضُهُمْ، وأعلمهم بالفرائض، وعِلم الميراث ..!

مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: أعلمُهُمْ بِالحَلالِ والحَرَامِ ..!

الزُّبَيْرُ بنُ العوامِ رضي الله عنه: حواريّ رسول الله صلى الله عليه وسلم .."إنَّ لِكُلِّ نَبِيٍّ حَوَارِيًّا، وَإِنَّ حَوَارِيَّ الزُّبَيْرُ بنُ العوامِ"البخاري.

عمرو بن العاص رضي الله عنه: "أسلمَ الناسُ، وآمن عمرو بن العاص"[صحيح الجامع:971].

وغيرهم من الصحابة، كان النبي صلى الله عليه وسلم يُضفي عليهم من الألقاب، وأوسمة الشَّرف .. كل بحسبه، وحسب ما فيه.

ولا شكَّ أن لهذه الألقاب والأوسمة دلالات، وأغراض عظيمة:

منها: إنصاف الرجال بما فيهم، وما لهم، وما هم عليه من واقع وعمَل .. وما أحوجنا نحن في هذا الزمن إلى هذا الانصاف .. إذ بات الكل يطعن بالكل .. والكل يُسيء الظنّ بالكل .. حتى بات إنصاف الرجال عزيزاً بين الناس!

ومنها: الأثر العظيم والإيجابي لهذه الألقاب والأوسمة على أصحابها .. فهي بالنسبة لهم حافز عظيم تبعث فيهم روح العمل، والتضحية، والإقدام .. والتنافس على فعل الخيرات .. وبخاصة أن الذي يمنحهم هذه الألقاب والشهادات .. هو رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ومنها: أنها تُعرّف على مكانتهم ومنزلتهم في الأمة، وبين الناس .. المنزلة التي ينبغي أن يُنزَلوها .. وأن لا يُزاحمهم عليها أحد.

هذه الألقاب أنزَلت كل صحابي في مكانه المناسب من الأمة .. حتى يكاد أن يقول القائل: هذا المكان خُلِق لفلان .. وهو لا يليق إلا بفلان .. ولو انزاح عنه لحصل خلل، وتعقّد المشهد!

تأمل لو لم يكن أبو بكر الصديق رضي الله عنه موجوداً ــ ولم يكن الخليفة ــ بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أو لم يكن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الخليفة بعد أبي بكر الصديق .. كيف

سيكون المشهد، وكيف ستكون الصورة ناقصة ومعقدة .. والثلم فيها واضح!

ومنها: أن ما من صحابي أُطلق عليه لقب .. إلا واستحقه بجدارة عالية .. وثبت عليه .. إلى أن لقي ربه، إذ لا يُعرَف عن واحدٍ منهم .. عاش حياة أو خُتِم له بخاتمة تتنافى مع اللقب أو الوسام الذي منحه إياه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. حتى بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وهذا من أعظم دلالات نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى.

فمثلاً خالد بن الوليد رضي الله عنه: لما منحه النبي صلى الله عليه وسلم لقب ووسام "سيف الله" المسلول، هذا من لوازمه أن يعيش خالد حياته كلها مجاهداً مقاتلاً .. وأن لا يُغمَد له سيف في الله .. وأن لا يُقتَل في معركة .. وبخاصة في المعارك الأولى من حياته بعد إسلامه .. وهكذا كان .. ولو قُتل في المعارك الأولى التي خاضها بعد إسلامه .. لظهر نوع تعارض .. وصعب التوفيق بين وفاته المبكرة وبين كونه سيف من سيوف الله، سلّه رسول الله صلى الله عليه وسلم على الشرك والمشركين، والطغاة المجرمين .. حاشا نبينا صلى الله عليه وسلم أن يظهر في أقواله وأفعاله أي نوع من التضارب أو التعارض!

هذا المعنى لعل خالداً قد أدركه؛ فكان رضي الله عنه يتقحم الصفوف الأمامية في المعارك .. ويطلب الشهادة من كل مظانها .. إلا أن الله تعالى أبى ــ تصديقاً لنبيه ــ أن ينكسر سيف من سيوفه، سله رسول الله على الشرك والمشركين .. فمات خالد على فراشه، بعد حياة مديدة بالجهاد والعطاء .. وما في جسده موضع شبر إلا وفيه، طعنة سيف، أو ضربة سهم أو رمح!

وهكذا بقيّة الأصحاب رضي الله عنهم لو تأملت حياتهم واللقب الذي منحهم إياه النبي صلى الله عليه وسلم .. لوجدت انسجاماً وتناغماً كبيرين بين اللقب وصاحبه .. كل منهما يُعرَف بالآخر.

* * * * *

الوقفة العاشرة

"أوصاف وأوسمة أضفاها النبى صلى اللّه عليه وسلم على البلدان والشعوب"

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أضفى على الأشخاص أوسمة وألقاباً كان لها بالغ الأثر على أشخاصهم وحياتهم .. كذلك قد أضفى ألقاباً وأوصافاً وأحكاماً على الأمصار والشعوب، كان لها بالغ الأثر والدلالة.

منها قوله صلى الله عليه وسلم، في اليمن وأهل اليمن:

"أتاكم أهلُ اليمنِ، هم أرقُّ أفئدةً وألينُ قلوباً، الإيمانُ يَمانٌ والحكمةُ يمانيةٌ، والفخرُ والخُيَلاءُ في أصحابِ الإبلِ، والسَّكينةُ والوقارُ في أهلِ الغنَمِ"البخاري.

وفي رواية عند مسلم:"جاء أهل اليمن، هم أرقُّ أفئدة، الإيمانُ يمانٌ، والفقه يمان، والحكمة يمانية".

وقال صلى الله عليه وسلم:"اللهمَّ بارِكْ لنا في يَمَنِنا" البخاري.

وقال في الشَّام، وأهل الشام:

"اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنَا"البخاري.

وعن عبد الله بن حوالة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"سيصيرُ الأمرُ إلى أن تَكونوا جُنوداً مجنَّدةً؛ جُندٌ بالشَّامِ، وجندٌ

باليمنِ، وجُندٌ بالعراقِ". قالَ ابنُ حوالةَ: خِر لي يا رسولَ اللهَّ إن أدرَكْتُ ذلِكَ، فقالَ:"عليكَ بالشَّامِ، فإنَّها خيرةُ اللهَّ من أرضِهِ، يَجتبي إليها خيرتَهُ من عبادِهِ، فأمَّا إن أبيتُمْ، فعليكُم بيمنِكُم، واسقُوا من غُدُرِكُم ــ أي ينابيع اليمن ــ فإنَّ اللهَّ توَكَّلَ لي بالشَّامِ وأَهْلِهِ"[صحيح أبي داود:2483].

وفي روايةٍ: قال ابنُ حَوالةَ فقلتُ يا رسولَ الله اختَرْ لي إن أدرَكني ذلك؟ قال صلى الله عليه وسلم:"إني أختار لك الشامَ؛ فإنه صفوةُ اللهِ عزَّ وجلَّ من بلادِه، وإليه يُحشَرُ صفوتُه من عبادِه، يا أهلَ اليمنِ عليكم بالشامِ فإنه صفوةُ الله عزَّ وجلَّ من أرض الشامِ، ألا فمن أبى فلْيُسْقَ من غُدَرِ اليمنِ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد تكفَّل بالشامِ وأهلِه"[1].

وفي قوله صلى الله عليه وسلم:"فإن الله تكفَّل لي بالشامِ وأهلِه". أي تكفّل الله لنبيه، وأمته، ودينه بالشام وأهله. قال السّلَف: ومن تكفّل الله به، فلا ضَيعَةَ عليه.

وعنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"رأَيْتُ ليلةَ أُسرِي بي عمودًا أبيضَ كأنَّه لؤلؤةٌ تحمِلُه الملائكةُ قُلْتُ ما تحمِلونَ فقالوا عمودَ الكتابِ أُمِرْنا أن نضَعَه بالشَّامِ، وبَيْنَا أنا نائمٌ ثُمَّ رأَيْتُ عمودَ الكتابِ اختُلِس من تحتِ وسادتي فظنَنْتُ أنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ تخلَّى عن أهلِ

[1] قال الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة 7/1259: إسناده صحيح.

الأرضِ فأتبَعْتُه بصري فإذا هو نورٌ ساطعٌ بينَ يدي حتَّى وُضِع بالشَّامِ".
فقال ابنُ حَوالةَ: يا رسولَ اللهِ خِرْ لي؟ قال:"عليك بالشَّامِ"[2].

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال لنا النبي صلى الله عليه وسلم يوماً: "إني رأيت الملائكة في المنام أخذوا عمود الكتاب فعمدوا به إلى الشام، فإذا وقعت الفتن، فإن الإيمان بالشام"[3].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يزالُ من أُمَّتِي أُمَّةٌ قائمةٌ بأمرِ اللهِ، ما يضرُّهم من كذَّبَهم ولا من خالفَهم ، حتى يأتيَ أمرُ اللهِ وهم على ذلك، وهم بالشامِ" البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يزال أهل الغرب ظاهرين لا يضرهم من خذلهم حتى تقوم الساعة"مسلم.

قال الإمام أحمد بن حنبل: أهل المغرب هم أهل الشام.

وقال صلى الله عليه وسلم:"لا تَزَالُ طَائِفَةٌ من أُمَّتي ظَاهِرِينَ على الناسِ، يرفعُ اللهُ قُلوبَ أقوامٍ يُقَاتِلونَهُمْ، ويَرْزُقُهُمْ اللهُ مِنْهُمْ، حتى يأتيَ أَمْرُ اللهِ عزَّ وجلَّ وهُمْ على ذلكَ، ألا إِنَّ عُقْرَ دَارِ المؤمنينَ بالشَّامُ،

---

[2] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 61/10، وقال: رجاله رجال الصحيح، غير صالح بن رستم وهو ثقة. وقال ابن حجر في الفتح:420/12: إسناده حسن.

[3] قال الشيخ ناصر في فضائل الشام، 10: صحيح.

والخَيْلُ مَعْقُودٌ في نَوَاصِيها الخَيْرُ إلى يومِ القيامةِ"[السلسلة الصحيحة:1961].

وفي رواية: "عُقرُ دار الإسلام بالشّام" [صحيح الجامع:4014]. أي مركز، وأصل، وقلب، وخير ديار الإسلام يكون بالشام.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا فسَدَ أهلُ الشامِ فلا خيرَ فيكم، لا تزالُ طائفةٌ من أُمَّتي منصورينَ لا يَضُرُّهم مَن خذَلهم حتى تقومَ السَّاعةُ" [السلسلة الصحيحة:403].

وقوله:"إذا فسَدَ أهلُ الشامِ فلا خيرَ فيكم"؛ مفهوم المخالفة يقضي؛ إذا صلح أهل الشام، فالخير، كل الخير فيكم، وفي أمة الإسلام .. وهذا ما يخيف العدو من ثورة وجهاد أهل الشام في هذه الأيام!

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ فسطاطَ المسلمِين ــ أي وسط وقلب دولتهم ومركزهم ــ يومَ المَلحمةِ بالغُوطةِ، إلى جانبِ مدينةٍ يُقالُ لها دِمشقُ، من خيرِ مدائنِ الشَّامِ" [صحيح الجامع:2116].

وفي رواية: "فُسطاطُ المسلِمينَ يومُ المَلْحمَةِ الكُبرَى بأرضٍ يُقالُ لها: الغُوطَةُ، فيها مَدينةٌ يُقالُ لها دِمشقُ؛ خيرُ منازلِ المسلِمينَ يَومَئِذٍ" [صحيح الجامع:4205]. وهذا من جملة الأدلة الدالة على أن دمشق

سيكون لها دور ريادي وقيادي على مستوى الأمة كلها .. وهي على موعد مع هذا الدور الريادي لا محالة بإذن الله.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إذا وقعت الملاحم بعث الله من دمشق بعثاً من المَوَالي أكرم العرب فرساً، وأجودهم سلاحاً يؤيد اللهُ بهم الدين"[4].

وقوله "بعثاً من المَوَالي"؛ أي بعثاً من المسلمين الموالين والمناصرين، من أصول غير عربية، والله تعالى أعلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا تزالُ عصابةٌ من أمَّتي يُقاتِلونَ على أبوابِ دِمَشْقَ وما حولَه، وعلى أبوابِ بيتِ المقدسِ وما حولَه، لا يضرُّهم خِذلانُ مَن خذَلهم ظاهِرينَ على الحقِّ إلى أن تقومَ السَّاعةُ"[5].

وقال صلى الله عليه وسلم:"فبينما هو كذلك ــ أي المسيح الدجال ــ إذ بعث اللهُ المسيحَ ابنَ مريمَ، فينزل عند المنارةِ البيضاءِ شَرقَي دمشقَ، بين مَهرودَتَينِ ــ أي بين ثوبين أو حلتين مصبوغتين بلون الصفرة ــ واضعًا كفَّيه على أجنحةِ ملَكَينِ، إذا طأطأَ رأسَه قطر، وإذا رفعه تحدَّر منه جُمانٌ كاللؤلؤ، فلا يحلُّ لكافرٍ يجد ريحَ نَفسه إلا مات،

---

[4] قال الشيخ ناصر في فضائل الشام، 28: صحيح جداً.

[5] قال الهيثمي في مجمع الزوائد 10/63: رجاله ثقات.

ونفَسُه ينتهي حيث ينتهي طرفُه، فيطلبه حتى يدركَه ببابِ لُدٍّ، فيقتله". مسلم. والجُمان؛ حب الفضة.

وفي رواية: "فإذا رآهُ الدَّجَّالُ انماعَ كما ينماعُ المِلحُ في الماءِ، فيدركهُ فيقتلهُ بالحَربةِ عندَ بابِ لُدٍّ الشَّرقيِّ على بضع عشرةَ خطواتٍ منه".

قلت: والشام اليوم تمهد لاستقبال هذا الضيف العظيم عيسى عليه السلام .. تطهر الساحات والميادين بالدم والعرَق .. وبأعز ما تملك .. إذ لا يليق بمكانة هذا الضيف العظيم المبارك أن يشرّف أرض الشام، وتكون الكلمة والسيادة فيها لطواغيت آل الأسد المجرمين، ومن دخل في حلفهم ونصرتهم من الزنادقة والباطنيين!

وقال صلى الله عليه وسلم، في العراق، وأهل العراق: ... وهو ما سنتناوله ــ إن شاء الله ــ في الوقفة التالية.

* * * * *

الوقفة الحادية عشر

"ما قاله النبى صلى اللّه عليه وسلم فى العراق وأهل العراق"

قال صلى الله عليه وسلم في العراق، وأهل العراق:"اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في يَمَنِنا". قالوا: يا رسولَ الله، وفي نَجدِنا؟ قال:"اللهمَّ بارِكْ لنا في شامِنا، اللهمَّ بارِكْ لنا في يَمَنِنا". قالوا: يا رسولَ الله، وفي نَجدِنا؟ فأظنُّه قال في الثالثةِ:"هناك الزلازِلُ والفِتَنُ، وبها يَطلُعُ قرنُ الشيطانِ"البخاري.

والمراد من نجد في الحديث العراق، بدلالة الحديث الآخر، كما في قوله صلى الله عليه وسلم:"اللهمَّ بارِكْ لَنا في مَكَّتِنا، اللهمَّ بارِكْ لَنا في مَدِينَتِنا، اللهمَّ بارِكْ لَنا في شَامِنا، و بارِكْ لَنا في صاعِنا، وبارِكْ لَنا في مُدِّنا". فقال رجلٌ: يا رسولَ الله، وفي عراقنا؟ فأعرض عنهُ، فرددها ثَلاثًا، كل ذلكَ يقولُ الرجلُ: وفي عِرَاقِنا؟ فَيُعْرِضُ عنهُ! فقال صلى الله عليه وسلم:"بِها الزَّلازِلُ والفِتَنُ، وفيها يَطْلُعُ قَرْنُ الشيطانِ"السلسلة الصحيحة:2246]. والحديث الذي يدل على أن المراد من نجد هي العراق، قد جاء في روايات عدة، ومن طرق عدة.

وعن عبد الله بن عمر، قال: قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وأشار بيدِهِ نحوَ المشرقِ، قال:"إنَّ الفتنَ من هاهنا إنَّ الفتنَ من هاهنا إنَّ الفتنَ من هاهنا من حيث يطلُعُ قرنُ الشيطانِ"[6]. والمشرق، أو شرق المدينة العراق، وغربها الشَّام.

وعن ابن عباس، قال: دعا نبي الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "اللهم بارك لنا في صاعِنا ومُدِّنَا وبارك لنا في مكتنا ومدينتنا وبارك لنا في شامنا ويمننا". فقال رجل من القوم يا نبي الله وعراقنا؟ فقال: "إن بها قرن الشيطان، وتهيجُ الفتن، وإن الجفاء بالمشرق "[7].

وقال صلى الله عليه وسلم:"الكُفْرُ من قِبَلِ المَشْرِقِ ــ أي من قبل العراق ــ ويأتي المَسِيحُ ــ أي الدجال ــ من قِبَلِ المَشْرِقِ، وهِمَّتُهُ المَدِينَةُ ــ أي بغيته ووجهته المدينة المنورة ــ حتى إذا جاء دُبُرَ أُحُدٍ تَلَقَّتْهُ الملائكةُ فَضربَتْ وجْهَهُ قِبَلَ الشَّامِ، هُنالِكَ يُهْلَكُ، هُنالِكَ يُهْلَكُ"[السلسلة الصحيحة:1770]. حيث يقتله المسيح عيسى عليه السلام بحربته.

---

[6] أخرجه أحمد في المسند، وقال شاكر: إسناده صحيح.

[7] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد 3/308 وقال: رجاله ثقات. وانظر صحيح الترغيب: 1204.

وفي رواية عند مسلم:"رأس الكفر قبل المشرق، يأتي المسيحُ ــ أي الدجال ــ من قِبل المشرق، همّته المدينة، حتى ينزلَ دُبُرَ أُحُد، ثم تصرفُ الملائكةُ وجهَه قِبل الشامِ، وهنالك يُهلَكُ".

وقال صلى الله عليه وسلم:"يخرج ناسٌ من قِبَلِ المشرقِ ــ أي من قبل العراق! ــ ويقرؤون القرآنَ لا يجاوزُ تراقيهم، يمرُقون من الدِّينِ كما يمرقُ السَّهمُ من الرَّميَّةِ، ثم لا يعودُون فيه حتى يعودَ السهمُ إلى فوقِه". قيل: ما سِيماهم؟ قال:"سِيماهم التَّحليقُ"البخاري. والحديث فيه إشارة إلى الخوارج، وإلى بعض صفاتهم، وإلى أن منبتهم من العراق!

وفي رواية عند مسلم:"يَتِيهُ قومٌ قِبَلَ المشرِقِ محلَّقَةٌ رؤسُهُمْ".

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ طائفةً تخرجُ مِن قِبلِ المشرقِ عندَ اختلافٍ منَ الناسِ، لا ترونَ جهادَكم مع جهادِهم شيئًا، ولا صلاتَكم مع صلاتِهم شيئًا، ولا صيامَكم مع صيامِهم شيئًا، يمرُقونَ منَ الدينِ كما يمرقُ السهمُ منَ الرميةِ .."[8].

وقد تقدم معنا أن الدجّال يأتي من قِبل المشرق، قاصداً المدينة .. فتصرفه الملائكة نحو الشام؛ حيث ينتظره حتفه ومصرعه ــ ومن

[8] قال ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية 52/5: إسناده صحيح.

معه ــ في الشام ــ وهذه من مكارم الشام، ومزايا عطاياه ــ ولما كان الخوارج كذلك منبتهم من قِبل العراق .. والعراق ــ على مر العصور ــ لا يكاد يخلو منهم، فإنهم يلتقون مع المسيح الدجال في العراق، ويصطفون معه ضد المسيح عيسى عليه السلام ومن معه من المؤمنين .. ويكونون ضمن حملته الشريرة على بلاد الإسلام، وهذا ليس منّا مجرد استنباط أو قياس، وإنما النص قد دل عليه، كما في الحديث عن عبد اللهَّ بنُ عمرٍو، قال: سَمِعْتُ رسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ يقولُ: "يَخرجُ قومٌ من قبَلِ المشرقِ، يقرَؤونَ القرآنَ لا يجاوِزُ تراقيَهُم، كلَّما قُطِعَ قرنٌ نشأَ قَرنٌ ــ أي كلما ذهب وانقرض منهم جيل، نشأ وظهر جيل آخر منهم ــ حتَّى يخرُجَ في بقيَّتِهِمُ الدَّجَّالُ "[9]. فيكون الخوارج أول من يكثّرون سواد الدّجال، ويناصرونه على باطله وشره!

* * * * *

[9] أخرجه أحمد في المسند، وقال شاكر: إسناده صحيح.

الوقفة الثانية عشر

"النبى صلى الله عليه وسلم الرفيق الرحيم، والشديد القوي"

كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا التفت إلى المؤمنين، والمستضعفين، ولمن يدخل في ذمته وعهده .. كان في قمة الرفق، والرحمة، والعطف والإحسان .. وإذا ما التفت إلى أعدائه من الكافرين المعاندين المحاربين .. كان في قمة الشدة، والحزم، والقوة.

وكان أصحابه رضي الله عنهم على إثره في هذا التوصيف العظيم، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللهَّ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾الفتح:29. ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾المائدة:54.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾التوبة:128.

ومن نظرَ إلى جانب من الجانبين ــ من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في تعامله مع الآخرين ــ من دون أن ينظر إلى الجانب الآخر .. ويضع كل جانب في موضعه المناسب .. أخطأ الحقيقة .. وأساء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وفاته حسن الاقتداء والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم.

إذْ كثير من الدارسين والباحثين تراهم يقفون على النصوص والآثار الدالة على رفق، ورحمة، وعطف النبي صلى الله عليه وسلم .. فيعممونها على جميع الصور والحالات .. على الأصدقاء والأعداء سواء .. وعلى أنها الحقيقة أو الصورة كاملة .. وفريق آخر يقف على النصوص والآثار الدالة على شدة، وقوة، وحزم النبي صلى عليه وسلم مع أعدائه .. دون النصوص الأخرى الدالة على الجانب الآخر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم .. فيعممها على جميع الصور والحالات .. على أنها الحقيقة أو الصورة كاملة .. فيَضل ويُضِل .. وكلا الفريقين يُسيئان للنبي صلى الله عليه وسلم، إساءة بالغة، إذ كل فريق يُظهر نصف الحقيقة فقط ويكتم النصف الآخر .. أو يُظهر ويُعرِّف على بعض النبي صلى الله عليه وسلم دون بعضه الآخر!

والأسوأ من الفريقين من يضع صفة الرفق، والرحمة، والإحسان في موضع الشدة والحزم، والقوة .. وهؤلاء مثلهم مثل المرجئة الجُّفاة؛ انطلقوا إلى آيات قيلت في المؤمنين والمسلمين، فحملوها على الكافرين، والطغاة الظالمين .. أو العكس؛ يضع صفة الشدة، والحزم، والقوة، في موضع الرفق والرحمة والإحسان .. وهؤلاء مثلهم مثل الخوارج الغلاة؛ انطلقوا إلى نصوص الشدة، التي قيلت ونزلت في الكفار المحاربين المعاندين .. فحملوها على المؤمنين

والمسلمين .. فأعملوا فيهم السيف والقتل، كما جاء وصفهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنهم: "يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان".

قال ابن عمر رضي الله عنه: "انطلقوا إلى آيات قيلت في المشركين، فحملوها على المؤمنين"!

* * * * *

الوقفة الثالثة عشر

"النبى صلى الله عليه وسلم مثل أعلى فى جميع جوانب الحياة"

المتأمِّل لسيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم .. في أي جانب من جوانب حياته العظيمة .. يتملكه الشعور، أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يُرسَل إلا لهذا الجانب .. لشدة ما يرى من كمال وجلال تناول وتعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا الجانب.

فلو التفتَّ إلى جانب الدعوة والتبليغ عن ربه .. وجدت الكمال والجمال، والتمام.

وإذا التفت إلى جانب الحكم والقضاء من حياته .. وجدت الكمال والجمال، والتمام.

وإذا التفت إلى جانب حياته الجهادية القتالية .. وجدت الكمال والجمال، والتمام.

وإذا التفت إلى عبادته وزهده .. وجدت الكمال والجمال، والتمام.

وإذا التفت إلى تعامله مع الناس .. وكيف كان يتعاطى ويتعامل معهم .. وجدت الكمال والجمال، والتمام.

وإذا التفت إلى حياته العائلية والزوجية .. وكيف كان يقضي وقته في بيته مع أهله .. وجدت الكمال والجمال، والتمام .. لا تستطيع أن تقول: لو كان هذا قبل ــ أو مكان ــ هذا لكان أحسن وأكمل .. معاذ الله!

وهكذا ما من جانب من جوانب حياته العظيمة .. إلا وتجد الكمال، والجمال .. فلم يكن صلى الله عليه وسلم ينصف حقاً على حساب حق، أو جانباً على حساب جانب .. كما أنه صلى الله عليه وسلم لم يكن ينشغل بحقٍّ على حساب حقٍّ .. بل كان يُعطي الحقوق كلها حقها الذي تستحقه .. من غير تفريط بحقٍّ على حساب حق، أو انشغالٍ بحقٍّ على حساب حقٍّ آخر .. صلوات ربي وسلامه عليه.

كما لم تكن أعماله العظيمة .. وأشغاله الكثيرة .. ومهام النبوة النبيلة .. تشغله أو تصرفه عن حقوق دقيقة متعلقة بفروع أو أمور جانبية صغيرة ينبغي الالتفات إليها أو القيام بها .. بل كان صلى الله عليه وسلم يُنصف صغائر الأمور، كما كان يُنصف الأمور العظيمة الجليلة .. فالكبير لا يشغله عن الصغير، كما أن الصغير لا يُشغله عن الكبير!

فكما كان النبي صلى الله عليه وسلم يُؤكد على أهمية التوحيد .. ويعد شهادة التوحيد "لا إله إلا الله"، أعظم وأجل شعبة من

شُعب الإيمان .. كان صلى الله عليه وسلم يوجه أمته لإماطة الأذى عن الطريق .. ويعد ذلك شعبة من شعب الإيمان.

وكما كان الحبيب صلى الله عليه وسلم يصرف اهتمامه إلى الإنسان، وحقوقه .. كان كذلك يهتم بحقوق الحيوانات، والنباتات، والعوالم من حوله .. فلا يُشغله شيء عن شيء!

وكان صلى الله عليه وسلم يوجه أمته، لهذا التوازن في التعامل مع الأشياء، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم، وغيره، عن حنظلة بن حذيم الحنفي، قال: لقِيني أبو بكرٍ، فقال: كيف أنت يا حنظلةُ؟ قال قلت: نافق حنظلةُ! قال: سبحان الله! ما تقول؟! قال قلتُ: نكون عند رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يُذكِّرنا بالنار والجنةِ، حتى كأنا رأيَ عَينٍ، فإذا خرجنا من عند رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، عافَسْنا ــ أي انشغلنا وخالطنا ــ الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، فنسِينا كثيراً! قال أبو بكرٍ: فوالله إنا لنلقى مثل هذا! فانطلقتُ أنا وأبو بكرٍ، حتى دخلْنا على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. قلتُ: نافق حنظلةُ يا رسولَ الله! فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "مَهْ، وما ذاك ؟" قلتُ: يا رسولَ الله نكون عندك، تُذكِّرُنا بالنارِ والجنةِ، حتى كأنا رأىُ عَينٍ، فإذا خرجْنا من عندِك، عافَسْنا الأزواجَ والأولادَ والضَّيعاتِ، نسينا كثيراً. فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "

والذي نفسي بيده، إن لو تدومون على ما تكونون عندي، وفي الذِّكر ــ أي في مجالس الذكر والعلم ــ لصافحتْكم الملائكةُ على فُرشِكم وفي طرقِكم، ولكن يا حنظلةُ! ساعةٌ وساعةٌ، ساعةٌ وساعةٌ، ساعةٌ وساعةٌ".

وقد آخى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم بين سلمانَ وأبي الدرداءِ، فزار سلمانُ أبا الدرداءِ، فرأى أمَّ الدرداءِ مُتبذِّلةً ــ أي هاملة لشأن نفسها ــ فقال لها: ما شأْنُكِ؟! قالت: أَخُوكَ أبو الدرداءِ ليس له حاجةٌ في الدنيا ــ وأرادت النساء، فكنَّت عن النساء بالدنيا ــ فجاء أبو الدرداءِ، فصنع له طعاماً، فقال: كُلْ، فإني صائمٌ، قال: ما أنا بآكِلٍ حتى تأكلَ، فأكل، فلما كان الليلُ ذهب أبو الدرداءِ يقومُ، فقال: نَمْ، فنام، ثم ذهب يقومُ، فقال: نَمْ، فلما كان آخِرُ الليلِ، قال سلمانُ: قُمِ الآنَ، قال: فصَلَّيَا، فقال سلمانُ يا أبا الدرداء: إن لربِّكَ عليك حقًّا، ولنفسِك عليك حقًّا، ولأهلِك عليك حقًّا ــ وفي رواية عند الترمذي: ولضيفك عليك حقًّاً ــ فأَعْطِ كلَّ ذِي حقٍّ حقَّه، فأتى النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فذكر ذلك له، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "صَدَق سَلمانُ" البخاري.

ولما كان من أمر عثمان بن مظعون الذي كان من ترك النساء، بعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "يا عثمان إني لم أومر

بالرهبانية، أرغبت عن سنتي؟! قال: لا يا رسول الله، قال: إن من سنتي أن أصلي وأنام، و أصوم وأطعَم، وأنكح وأطلق، فمن رغب عن سنتي فليس مني، يا عثمان إن لأهلك عليك حقاً، ولنفسك عليك حقاً"[السلسلة الصحيحة:394].

وفي ذلك عظة وعبرة لمن ينشغلون بحقٍّ ويميلون له كل الميل على حساب الحقوق الأخرى .. ولمن يعتذر بالانشغال بعظائم الأمور عن صغائر الأمور .. زعموا!

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾الحشر:7. فلا تتركوا منه شيئاً .. وأتوا منه ما استطعتم!

* * * * *

الوقفة الرابعة عشر

"الوسطية فى سيرة النبى صلى اللّه عليه وسلم"

من أبرز معالم سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم انتهاج الوسطية ــ من غير إفراط ولا تفريط ــ في جميع الأمور الدينية والدنيوية .. حتى أصبحت الوسطية من أبرز معالم أمته، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾، أي خياراً وعدولاً، وما كانوا ليكونوا كذلك إلا لأنهم لم يجنحوا في الدين إلى الغلو والإفراط، ولا إلى الجفاء والتفريط ﴿لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ﴾البقرة:143. ومن يجنح في الدين إلى الإفراط أو التفريط المنافي للعدل والوسطية لا يصلح أن يكون شهيداً وحكماً على الآخرين .. لأنه مطعون ومجروح العدالة.

وهم يرددون في كل ركعة من صلاتهم، قوله تعالى: ﴿اهدِنَـــا الصِّرَاطَ الْمُستَقِيمَ﴾؛ وهو الصراط الحق الوسط .. الذي لا يعرف الجنوح يُمنة ولا يُسرة، وهو ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾؛ من الأنبياء والصديقين والشهداء ﴿غَيرِ الْمَغضُوبِ عَلَيهِمْ﴾؛ وهم اليهود الذين جنحوا في دينهم إلى التشدد، والتنطع والغلو ﴿وَلاَ

الضَّالِّينَ﴾الفاتحة:6-7. وهم النصارى الذين جنحوا في دينهم إلى التفريط والجفاء.

كما قال تعالى: ﴿وَأَنَّ هَـذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً﴾ الصراط الحق الوسط ﴿فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ﴾ التي تنحرف يمنة أو يسرة عن الصراط الوسط؛ سبل الإفراط أو التفريط ﴿فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ الصراط الوسط الحق المستقيم ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾الأنعام:153.

وفي الحديث فقد صحّ عن النبيّ صلى الله عليه وسلم أنه قال: "إيَّاكُم والغُلُو في الدين، فإنما هلَكَ من كان قبلكُم بالغلوِّ في الدين"[السلسلة الصحيحة:1283]. والغلو في الدين، هو كل ما زاد عن حد الحق الوسط.

وقال صلى الله عليه وسلم: "عليكُم هَدياً قاصِداً ــ أي طريقاً معتدلاً وسطاً من غير جنوح إلى إفراط أو تفريط ــ فإنَّهُ من يُغالِب هذا الدينَ يغلُبُه"[رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: 95]. وقوله "يُغالب"؛ أي يجنح للتشدد .. ويعتزل الرفق والاعتدال .. فلا يأخذ بالرخص الشرعية حيث ينبغي الأخذ بها.

وفي رواية: "عليكم هدياً قاصداً، فإنه من يُشادّ هذا الدين يغلبُه"[صحيح الجامع:4086].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن الدينَ يُسرٌ، ولن يُشادَّ الدينَ أحدٌ إلا غلبَه"البخاري.

وعن أنس بن مالك، قال: جاء ثلاثُ رهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، يَسأَلونَ عن عبادةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها ــ أي اعتبروها قليلة ــ فقالوا: أين نحن منَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم؟ قد غفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا، فجاء رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فقال: "أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟ أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِب عن سُنَّتي فليس مني"البخاري.

قال ابن القيم في مدارج السالكين 2/ 102: قال بعض السلف: ما أمر الله بأمرٍ إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإما إلى مجاوزة؛ وهي الإفراط، ولا يبالي بأيهما ظفر، زيادة أو نقصان ا- هـ.

* * * * *

الوقفة الخامسة عشر

"تواضع النبى صلى الله عليه وسلم"

على سمو مكانة الحبيب العظيمة في السماء، وفي الأرض .. إلا أنه صلى الله عليه وسلم كان شديد التواضع؛ فلم يكن يُميَّز عن أصحابه بثوب، ولا مجلس، ولا مَركَب .. وكان بابه لا يُغلَق دون ذوي الحاجة والمسْكنَة .. كما لم يكن يقبل من أحدٍ أن يرفعه فوق المنزلة التي أنزله الله إياها .. حتى أن الآتي يأتي من خارج المدينة ــ وله عند النبي صلى الله عليه وسلم حاجة ــ فيقول: أيكم محمد .. وهو متكئ بين ظهراني أصحابه؟!

قال تعالى: ﴿وَمَا أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ق:45.

عن أبي مسعود البدري، قال أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فكلمه فجعلَ ترتعدُ فرائِضُه، فقال له: "هوِّن عليك؛ فإنِّي لستُ بملِكٍ، إنَّما أنا ابنُ امرأةٍ من قريش، كانت تأكلُ القديدَ"[صحيح الجامع:7052]. والقديد: هو اللحم المملح المجفف في الشمس.

وعن أنس بن مالك، قال: "كان صلى الله عليه وسلم إذا لقيَهُ أحدٌ مِنْ أصحابِهِ فقام معه، قام معه فلم ينصرِفْ حتى يكونَ الرجُلُ هو الذي ينصرِفُ عنه، وإذا لقِيَهُ أحدٌ من أصحابِهِ فتناول يَدَهُ ناوَلَهُ إيَّاها فَلَمْ ينزِعْ يَدَهُ منه حتى يكونَ الرَّجُلُ هوَ الذي ينزِعُ يدَهُ منه، وَإذا لقِيَ أحدًا مِنْ أصحابِهِ فتناول أُذُنَهُ، ناولَهُ إيَّاها، ثُمَّ لم ينزِعْها حتى يكونَ الرَّجُلُ هو الذي ينزِعُها عنه"[صحيح الجامع:4780].

وقوله "وَإذا لقِيَ أحدًا مِنْ أصحابِهِ فتناول أُذُنَهُ، ناولَهُ إيَّاها، ثُمَّ لم ينزِعْها حتى يكونَ الرَّجُلُ هو الذي ينزِعُها عنه"؛ أي إذا أراد أحد من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن يسر ـ النبي صلى الله عليه وسلم بحديث أو خبر، كان النبي صلى الله عليه وسلم يحني أذنه، ويصغي إليه .. ويقرب أذنه من فِيه تواضعاً وأدباً .. فلا يرفع أذنه عنه، حتى يكون الرجل هو الذي ينزع ويكتفي من حديثه!

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تَطروني ــ أي لا تغالوا في مدحي فترفعوني فوق مقام العبودية لله عز وجل ــ كما أطرت النصارى ابنَ مريم، فإنما أنا عبدُه؛ فقولوا عبد الله ورسوله"البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنّ اللهَ أوحى إلي أن تواضعوا، حتى لا يفخرَ أحدٌ على أحد"مسلم.

وعن أنسٍ، أن ناساً قالوا: يا رسول الله يا خيرَنا وابنَ خيرنا، وسيدنا وابنَ سيدنا، فقال: "يا أيها الناس قولوا بقولِكم ولا يستهوينَّكم الشيطانُ ـــ فيحملكم على التوسع وأن تقولوا فيَّ ما لا ينبغي ـــ أنا محمد عبد الله ورسولُه، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزَّ وجل"[رواه أحمد، وغيره].

وقالت جارية وهي تضرب بالدُّفِّ: وفينا نبيٌّ يعلمُ ما في غدٍ! فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا تقولي هكذا، وقولي ما كنتِ تقُولينَ"البخاري.

* * * * *

الوقفة السادسة عشر

"تقديم السابق على اللاحق"

كان صلى الله عليه وسلم يشكر لأصحابه سَبقَ إسلامهم، وجهادهم، وبلائهم في الله .. وينزلهم منزلتهم التي يستحقونها .. ويتأوّل لهم .. ويُقدّم السّابق منهم على اللاحق في معاني وحقوق الصّحبة .. فلا يسمح للاحق منهم أن يتجرّأ أو يتطاول على السابق .. فلا يستويان مثلاً .. وكان صلى الله عليه وسلم يغضب لو حصل شيء من ذلك.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلّاً وَعَدَ اللهُ الْحُسْنَى وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾الحديد:10.

عن أنس، قال: كان بين خالد بن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيامٍ سبَقْتُمونا بها؟! فبلغنا أن ذلك ذُكِرَ للنبي صلى الله عليه وسلم، فقال: "دَعُوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه لو أنفَقْتُم مِثْلَ أُحُدٍ أو مِثْلَ الجبالِ ذَهباً ما بلَغْتُم أعمالَهُم"[السلسلة الصحيحة: 1923].

خالد بن الوليد رضي الله عنه، الذي يقول فيه النبي صلى الله عليه وسلم: "خالدٌ سيف من سيوف الله عز وجل، نِعم فتى العشيرة"[السلسلة الصحيحة:1826]. ومع ذلك لما حصل خلاف بينه وبين عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه، يُنكر النبيُّ صلى الله عليه وسلم على خالد، ويقول له ولغيره ممن تأخر إسلامهم وتأخرت نصرتهم للإسلام عن عبد الرحمن بن عوف: "دَعُوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيدِه لو أنفَقْتُم مِثْلَ أُحدٍ أو مِثْلَ الجبالِ ذَهباً ما بلَغْتُم أعمالَهُم"!

وفي السابقين من أهل بدرٍ، يقول صلى الله عليه وسلم: "لَعلَّ اللهَ اطَّلَعَ إلى أهلِ بَدْرٍ فقال: اعملوا ما شِئتُم؛ فقد وجبَت لكم الجنَّةُ، أو فقد غَفَرتُ لكُم"متفق عليه. وهذه خاصية ليست لغير أهل بدر، أو لمن أسلم وآمن بعد بدر.

وعن جابر بن عبد الله: أنَّ عَبداً لحاطِبٍ جاءَ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَشكُو حاطِباً، فقال: يا رسولَ الله! ليدخُلَنَّ حاطِبٌ النَّارَ! فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "كذَبتَ؛ لا يدخُلُها، فإنَّه شَهِدَ بَدراً والحُدَيْبيَةَ"مسلم.

جاءَ جبريلُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: "ما تَعُدُّون أهلَ بَدرٍ فيكم؟ قال: من أفضَلِ المُسلمين. قال: وكذلك من شَهِدَ بَدْراً مِن الملائِكَةِ"البخاري.

قال صلى الله عليه وسلم: "لن يدخُلَ النارَ رجلٌ شَهِدَ بدراً والحُدَيْبيَةَ"[السلسلة الصحيحة: 2160].

وعن جابر بن عبد الله، قال: كنَّا يومَ الحديبية ألفاً وأربعمائة. قال لنا النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "أنتم اليومَ خيرُ أهلِ الأرضِ"متفق عليه.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أتعلم أوَّلَ زُمرةٍ تدخلُ الجنةَ من أمتي؟ قلت: الله ورسولُه أعلم. فقال: المهاجرون؛ يأتون يومَ القيامَةِ إلى بابِ الجنَّةِ ويَستَفْتِحُون، فيقول لهم الخزَنة: أوَقَد حُوسِبتُم؟ فيقولون: بأيِّ شيءٍ نُحَاسَب؟! وإنما كانت أسيافُنا على عَواتِقِنَا في سبيلِ الله حتى مِتنا على ذلك. قال: فيُفْتَحُ لهم، فيَقِيلُون فيه أربعينَ عاماً قبل أن يدخلَها الناسُ"[السلسلة الصحيحة: 853].

هذا الموقف من النبي صلى الله عليه وسلم في تقديم السابقين على اللاحقين، كان يظهر حتى في حال حصول نوع خلاف أو تلاسن بين أبي بكر الصديق، والفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

كما في الحديث، عن أبي الدرداء، قال: كنت جالساً عند النبي صلى الله عليه وسلم إذْ أقبلَ أبو بكرٍ آخذاً بطَرَفِ ثوبهِ حتى أبدَى عن رُكبَتِه، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "أمَّا صاحِبُكم فقد غامَرَ"، ــ أي قد خاصم ودخل في غمرة الخصومة ــ فسَلّم، وقال: إنِّي كان بيني وبينَ ابنَ الخطابِ شيءٌ، فأسرَعتُ إليه، ثم ندِمْتُ، فسألتُه أن يَغفِرَ لي، فأبى عليَّ! فأقبلتُ إليك. فقال: "يَغْفِرُ اللهُ لكَ يا أبَا بكر، يَغْفِرُ اللهُ لكَ يا أبَا بكر، يَغْفِرُ اللهُ لكَ يا أبَا بكر"، ثلاثا. ثمَّ إنَّ عمرَ نَدِمَ، فأتى منزِلَ أبي بكرٍ فسأل: أَثَمَّ أبُو بكرٍ؟ فقالوا: لا، فأتى إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فسَلَّمَ، فجعلَ وجهُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم يَتمعَّرُ حتى أشفَقَ أبُو بكرٍ، فجَثَا على رُكبَتَيهِ، فقال: يا رسولَ الله! والله أنا كنتُ أظلَمُ، والله أنا كنتُ أظلَمُ، مرتين. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "إنَّ الله بعثني إليكُم، فقلتم: كذَبْتَ، وقال أبو بكر: صَدَقَ، وواسَاني بنَفْسِه ومالِه، فهل أنتم تارِكُوا لي صاحبي، فهل أنتم تارِكُوا لي صاحبي؟! "مرتين، فما أُوذِيَ بَعدَها. البخاري.

وفي رواية: فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "هل أنتُم تارِكُونَ لي صاحِبِي، هل أنتُم تارِكُونَ لي صاحِبِي، إنِّي قلتُ: يا أيُّها النَّاسُ إنِّي رسولُ اللهِ إليكُم جميعاً، فقلتُم كَذَبْتَ، وقال أبو بكرٍ: صَدَقْتَ"البخاري.

فعمر الفاروق الذي هو، هو .. ومع ذلك يقول له النبي صلى الله عليه وسلم ولغيره من الأصحاب: "فهل أنتم تارِكُوا لي صاحبي؟!".. وذلك أن الصِّدّيق أبا بكرٍ رضي الله عنه كان الأسبق إلى التصديق، والصُّحبة، والنصرة، والجهاد!

وفي ذلك دلالة على أهمية إنزال الرجال منازلهم التي يستحقونها؛ بحسب سبق جهادهم، وبلائهم في الله، ونصرتهم لدين الله ..!

وأن من كان حديث السنّ .. حديث العهد بنصرة دين الله .. عليه أن يلتزم حدود الأدب مع من سبقوه سبقاً بعيداً، في النصرة، والجهاد، والبلاء في الله!

وبخاصّة أننا في زمانٍ بتنا نعيش فه ظاهرة الفوضى، والتوحّش الخلّاق .. التي يسود فيها تطاول الصغار؛ صغار السن والعلم، والعمل .. على أكابر الأمة من علمائها العاملين .. ممن كان لهم السَّبق في خدمة ونصرة الإسلام والمسلمين.

وفي الحديث، فقد صحّ عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ليس من أمتي من لم يُجل كبيرنا، ويرحم صغيرنا، ويعرِف لعالِمِنا"[صحيح الترغيب:96]. أي يعرف لعالِمِنا ما له من حق، وتوقير، وإجلالٍ، وتكريم.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول: "أمرني جبريل أن أقدّم الأكابِرَ"[السلسلة الصحيحة:1555]. وقد خاب وخسر من أخرهم وأهانهم!

* * * * *

الوقفة السابعة عشر

"مكانة الأنصار عند النبى صلى اللّه عليه وسلم"

ونحن نتدارس سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم لا يمكن أن نغفل الحديث عن الأنصار .. عن سيوف رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .. وعن دورهم العظيم والفعّال في نصرة النبي صلى الله عليه وسلم، ونصرة دعوته .. وعن مكانتهم العظيمة في قلب الحبيب صلوات الله وسلامه عليه.

فدوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم كأعظم ما يفدي قومٌ نبياً مرسلاً .. فقابلهم النبي صلى الله عليه وسلم بوفاء؛ كأعظم ما يفي نبيٌّ قوماً أحبوه وفدوه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾الحشر: 9.

وعن أَنَس، قال: مرَّ أبو بكرٍ والعبَّاسُ بمجلسٍ من مجالِسِ الأنصارِ وهم يَبكُون فقال: "ما يُبكِيكُم؟ قالوا: ذكَرنا مجلِسَ النبِّي صلى الله عليه وسلم مِنَّا"!

أرادوا موته صلى الله عليه وسلم وما يُخشى أن يفقدوه بعد موته مما كانوا يجدونه من رحمة وإحسان ورفق في مجالسهم مع النبي صلى الله عليه وسلم، وأن يأتي بعده من لا يعرف لهم فضلهم وحقهم كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعرفه لهم .. هذا المعنى توضحه رواية أخرى صحيحة: "أُتي النبي صلى الله عليه وسلم فقيل له: هذه الأنصار رجالها ونساؤها في المسجد يبكون! قال صلى الله عليه وسلم: وما يُبكيهم؟! قال: يخافون أن تموت ..."!!

قال: فخرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقد عَصَبَ على رأسهِ حاشيَةَ بُرْدٍ، فصَعِدَ المنبَرَ ولم يصعَدْهُ بعد ذلك اليومِ. فحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه. ثم قال: "أُوصِيكُم بالأنصارِ، فإنهم كَرِشِي وعَيْبَتي، وقد قَضَوا الذي عليهم، وبَقِي الذي لهم، فاقبَلُوا من مُحْسِنِهم، وتجاوَزُوا عن مُسِيئهم"البخاري. وقوله "فإنهم كَرِشِي وعَيْبَتي"؛ أي فإنهم بطانتي، وخاصّتي.

وقوله "وقد قَضَوا الذي عليهم، وبَقِي الذي لهم"؛ أي قاموا بما يجب عليهم من نصرة وجهاد وتضحية، وبقي الذي عليكم نحوهم؛ فتشكرونهم وتعرفون لهم فضلهم، ومن شكرِهم ومقابلة صنيعهم الجميل: أن تقبلوا من محسنهم إحسانه، وتتجاوزوا عن المسيء منهم إساءته.

ومن فوائد الحديث: أن من عُرف بسابقة بـلاء في الله، ونصرـة لدين الله، وجهاد في سبيل الله ينبغي أن يُتوسَّع لـه في التأويـل، وتُقـال عثراته عند موارد الكبوات ما أمكن لذلك سبيلاً.

وقال صلى الله عليه وسلم: "الأنصارُ كَرِشِي وعَيْبَتي، والنَّاسُ سيَكثُرُون ويَقِلُّونَ، فاقبَلُوا من مُحْسِنِهم، وتجاوزوا عن مُسِيئِهم"متفـق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ النّاسَ يَكثُرونَ، وتَقِلُّ الأنصارُ حتى يكونوا كالمِلْحِ في الطَّعامِ، فمَن وَلِيَ منكم أمراً يَضُرُّ فيه أحداً أو يَنفَعُهُ؛ فليَقبَلْ من مُحْسِنِهم، ويَتجاوَزْ عن مُسِيئِهم"البخاري.

وقوله عن الأنصار: "أنهم يقلّون حتى يكونوا كالملح في الطعام .."؛ هذا لأنهم كانوا مادة الجهاد، والاستشهاد .. بهم تُتَّقى المكاره، والمخاطر إذا ما أطلت برأسها، ومن كان كذلك لا شك أنه سيكون عرضة للموت والشهادة أكثر من غيره.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا إنَّ الناسَ دِثارِي، والأنصارَ شِعارِي، لو سلَكَ الناسُ وادياً، وسلكَتِ الأنصارُ شُعبةً؛ لاتبعتُ شُعبَةَ الأنصارِ، ولولا الهجرةُ لكنتُ رجلاً من الأنصارِ، فمن ولِيَ أمرَ الأنصارِ؛ فليُحسِنْ إلى مُحسِنِهِم، وليتجاوَز عن مُسِيئهم، ومن أفزَعهم

فقد أفزَع هذا الذي بين هاتين؛ وأشارَ إلى نفسهِ صلى الله عليه وسلم"[السلسلة الصحيحة:917].

وقوله: ""أنتم الشِّعار، والناس الدّثار"؛ والشِّعار؛ ما ولي الجسد من الثياب. والدثار، ما يُلبس من الثياب فوق الشعار. والمراد؛ أي أنتم الخاصة والبطانة، وغيركم هم العامة!

وقال صلى الله عليه وسلم: "الأنْصَارُ لا يُحِبُّهُم إلا مُؤمنٌ، ولا يُبْغِضُهُم إلا مُنَافِقٌ، فمَن أحبَّهُم أحبَّهُ اللهُ، ومَن أبغَضَهُم أبغَضَهُ اللهُ"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يُبْغِضُ الأنصَارَ رجلٌ يُؤمِنُ باللهِ واليَومِ الآخِرِ"مسلم.

وعن أنسِ بنِ مالكٍ، أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم رأى صِبياناً ونِساءً مُقبلِينَ من عُرْسٍ، فقامَ نبيُّ اللهِ مُمْثِلاً ــ أي قام منتصباً قائماً ــ فقال: "اللهُمَّ أنتُمْ مِن أحبِّ الناسِ إليَّ، اللهُمَّ أنتُمْ مِن أحبِّ الناسِ إليَّ" يعني الأنصار. متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "اللهُمَّ اغفِرْ للأنصارِ، ولأبناءِ الأنصارِ، ولأبنَاءِ أبناءِ الأنصار، ولِنساءِ الأنصار"[صحيح سنن الترمذي:3068].

وعن أبي هريرة، قال: جاءت الحُمَّى إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالت: "ابْعَثْنِي إلى آثَرِ أهلِكَ عندَكَ". أي ابعثني إلى خُلَّص وخاصة وأحب أهلك عندك .. لأن الحمى بلاء يطهر صاحبه من الذنوب والخطايا إن صبر واحتسب، كما يطهر ويُذهِبُ الكِيرُ خَبَثَ الحديدِ.

فبَعثَها إلى الأنصار، فبَقيَت عليهم سِتَّةَ أيَّامٍ ولياليهِنَّ، فاشتَدَّ ذلك عليهم، فأتاهم ــ أي النبي صلى الله عليه وسلم ــ في دِيارِهم، فشَكَوا ذلك إليه، فجعلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَدخلُ داراً داراً، وبيتاً بيتاً؛ يدعو

لهم بالعافِيَةِ.

فلما رَجعَ ــ وقد فاتته امرأة من الأنصار لم يدعُ لها ــ فتَبِعَتْهُ، تسعى خلفه، وهي تنادي: والذي بَعثَكَ بالحقِّ إنِّي لَمِنَ الأنصارِ .....!

وزيادة في التوكيد: وإنَّ أبي لَمِنَ الأنصار .....!

فهي قبل أن تذكر حاجتها .. نادته باسم عزيز على الحبيب صلى الله عليه وسلم .. يصعب رده، وعدم الالتفات إلى حاجة صاحبه ... إنها من الأنصار ... وليس هذا وحسب ... وإن أبي لمن الأنصار!!

وبعد أن عرّفت عن نفسها أنها من الأنصار، قالت: "فادْعُ اللهَ لي كما دَعَوْتَ للأنصار ....."!

والنبي صلى الله عليه وسلم ما إن سمع كلمة" الأنصار ... الأنصار ... الأنصار"! توقف، والتفت إليها، وقال: "ما شِئتِ"؛ أي كما تشائين .. كما تشائين .. لا عليك: "إنْ شِئتِ دَعوتُ اللهَ أن يُعافِيَكِ، وإنْ شِئتِ صَبَرتِ ولكِ الجَنَّة". قالت: بل أصْبِرُ، ولا أجعَلُ الجنَّةَ خَطَراً [صحيح الأدب المفرد:387]. أي أصبر وأحتسب، وأضمن الجنة، ولا أخاطر فأراهن عليها.

اللهم إنّا نُشهدك أننا نحب الأنصار .. فارضَ اللهمَّ عن الأنصار، واغفر للأنصار، وارحم الأنصار .. واجزِ الأنصارَ عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .. واحشرنا مع الأنصار .. اللهم آمين، آمين.

* * * * *

الوقفة الثامنة عشر

"شكر المعروف، ومقابلة المعروف بمعروف"

من هديه وسيرته صلى الله عليه وسلم أنه كان يشكرُ المعروفَ، ويُقابل المعروف بمعروف أجملَ منه .. حتى لو جاءه المعروف من كافر، فكان يشكره!

كان المطعم بن عدي مشركاً، ومات على الشرك، وكان قد أجار النبيَّ صلى الله عليه وسلم عند عودته من الطائف .. فأمر أربعة من أولاده فلبسوا السلاح، وقام كل واحدٍ منهم عند ركن من الكعبة، فبلغ ذلك قريشاً، فقالوا له: أنت الرجل الذي لا تخفر ذمتك .. فتذكَّر النبي صلى الله عليه وسلم حسن صنيعه هذا يوم بدر، يوم أن وقع سبعون رجلاً من مشركي قريش في الأسر، فقال صلى الله عليه وسلم: "لو كان المطعم بن عدي حياً ثم كلمني في هؤلاء النُّتْنَى ــ يعني أسرى بدر ــ لأطلقتهم له" البخاري. بغير فداء!

قال ابن حجر في الفتح 7/ 377: قد مات المطعم بن عدي قبل وقعة بدر وله بضع وتسعون سنة .. وأن حسان بن ثابت رثاه لما مات مجازاة له ا- هـ.

وقد سأل عبد الله بن عبد الله بن سلول النبيَّ صلى الله عليه وسلم أن يعطيه قميصه يكفّن فيه أباه، علماً أن عبد الله بن سلول كان رأساً في النفاق .. فأعطاه إياه.

قال ابن كثير في التفسير: قد ذكر بعض السلف أنه إنما ألبسه قميصه؛ لأن عبد الله بن أُبيّ لما قدِم العباس طُلِب له قميص، فلم يُوجَد على تفصيله إلا ثوب عبد الله بن أُبيّ؛ لأنه كان ضخماً طويلاً ففعل ذلك به رسول الله صلى الله عليه وسلم، مكافأة له ا- هـ. على صنيعه مع عمه العباس؛ فالعم صنو الأب.

قال صلى الله عليه وسلم: "من أُعطي عطاءً فوجد ــ أي ما يكافئ به هذا العطاء ــ فليجزِ به، فإن لم يجد فليُثنِ، فإن من أثنى فقد شكر، ومن كتم فقد كفر"[صحيح الترغيب والترهيب:958]. فأرشد أولاً إلى المكافأة والمقابلة بمعروف مقابل ومماثل .. فإن لم يجد ما يُكافئ به، يُثني على صاحب المعروف بما هو أهله بين الناس .. فإن فعل فقد شكره وكافأه، وإن لم يفعل، وكتم المعروف فقد كفر النعمة والمعروف، وكفَرَ حق صاحب المعروف.

وفي رواية: "من أُلِي معروفاً فلم يجد له جزاءً إلا الثناء، فقد شكرَه، ومن كتمَه فقد كفَرَه".

وقال صلى الله عليه وسلم:"من أُتي إليه معروف فليكافئ به، ومن لم يستطع فليذكره ــ أي بين الناس ــ فإن من ذكره فقد شكره"[صحيح الترغيب:962].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لا يشكر الله من لا يشكر الناس"[صحيح الترغيب:963].

قال ابن عباس رضي الله عنه: لو قال لي فرعون: بارك الله فيك، قلت: وفيك ــ أي وفيك بارك الله! ــ وفرعون قد مات.[صحيح الأدب المفرد:748].

لذا جاء التوجيه القرآني أن الكافر لو ألقى على المسلم السلام ــ تحية الإسلام أو غيرها من صيغ السلام والتحية ــ فعليه أن يرد عليه السلام والتحية بالمثل؛ من قبيل المكافأة والمقابلة، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا حُيِّيْتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا إِنَّ اللّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيباً﴾النساء:86. هذه التحية إن ألقيت عليه كتابة، يرد عليها بالمثل كتابة، وإن أُلقيت عليه مشافهة، يرد عليها بالمثل مشافهة.

* * * * *

الوقفة التاسعة عشر

"من هديه صلى الله عليه وسلم في قتال أعدائه"

لم يُعرَف عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قاتل عدوين معاً في معركة واحدة، أو أنه قاتل عدوين في معركتين منفصلتين في وقت واحد .. وإنما كان يفرّق بينهم زماناً ومكاناً .. ويواجه العدو الأقرب، فالأقرب .. فإذا انتهى منه، واجه الذي يليه، الأشد خطراً، والأكثر عداوة وإلحاحاً!

ولما اجتمعت الأحزاب على مدينة رسول الله في موقعة الخندق .. عمل النبيّ صلى الله عليه وسلم على التفريق فيما بينها، فاستشار أصحابه في أن يعطي مشركي غطفان نصف تمر المدينة، مقابل أن يفكوا ارتباطهم بمشركي قريش، وأن ينصرفوا عن حصار المدينة .. فقال صلى الله عليه وسلم: "إني قد علمتُ أن العربَ قد رمتكم عن قوسٍ واحدةٍ، وإن الحارثَ الغطفاني سألكم أن تشاطِروه تمرَ المدينةِ، فإن أردتم أن تدفعوه عامَكم هذا ..."؟![مجمع الزوائد:6/ 135]. وذلك حتى يُخفف من أثر حصار المشركين على المدينة وأهلها ..!

ولما جاء نُعيم بن مسعود ــ يوم الخندق ــ مسلماً، أوصاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكتم إسلامه، ورده على المشركين ليوقع بينهم، وقال له: "إنما أنت فينا رجل واحد فخذّل عنا إن

استطعت، فإن الحرب خدعة". فأوقع نُعيم بين يهود بني قريظة، وبين مشركي قريش وغطفان .. وزرع الشكّ وسوء الظن فيما بينهم .. وفرّق جمعهم، وكلمتهم، وحلفهم .. وكان لصنيعه هذا أثر كبير في انهزام المشركين، وانصرافهم عن المدينة، وانتصار المسلمين.

قال أبو هريرة رضي الله عنه: "سَمَّى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ الحَرْبَ خُدْعَةً" البخاري. ويدخل في الخدعة كل ما هو مؤداه إلى تضليل العدو، وتفريق كلمتهم وجمعهم.

وهذا فقه عظيم لو ينتبه إليه مجاهدوا هذا الزمان .. إذ فريق منهم .. لا يُبالي بأن يُزعّر جميع ملل ودول الكفر على الإسلام والمسلمين .. وعلى بلدانهم .. باطلاقات مُحدَثة بات ضررها يغلب نفعها .. ويُعلن الحرب عليهم مجتمعين .. وفي وقت واحد .. فيجمع بذلك كلمة الأعداء، ويوحد صفوفهم ــ على ما بينهم من خلاف وتنازع ــ على محاربة المسلمين .. وغزو ديارهم .. فيكون مثله مثل من يُخذّل على المسلمين، بدلاً من أن يُخذّل عنهم .. ثم هو يحسب أنه يُحسن صنعاً!

* * * * *

الوقفة العشرون

"قوانين الحرب"

بُعث الحبيب صلى الله عليه وسلم في زمانٍ لا تَعرف فيه الحروب القوانين ولا القيم الأخلاقيّة التي تلتزم بها، والتي على أساسها تفرق بين المستضعفين من الشيوخ، والنساء، والأطفال .. عن غيرهم من المحاربين المقاتلين .. فكانوا في حروبهم لا يراعون حرمة لشيخ، أو امرأة، أو طفل، أو عاجز ضعيف .. فيستهدفون في حروبهم المستضعفين كما يستهدفون الأقوياء المحاربين سواء .. وكان القانون السائد والمعمول به يومئذٍ هو قانون الغاب؛ حيث القوي المنتصر، وما تملي عليه أخلاقه ونزواته ورغباته، وأحقاده .. لا يوجد قانون آخر غير ذلك يلتزم به، أو يردعه عن المُشين من الأعمال .. كما لا يوجد ــ ما دام هو القوي المنتصر ــ من يُسائله عمَّا يفعل مهما فعل .. إلى أن سنَّ الحبيب صلى الله عليه وسلم القوانين النبيلة للحروب .. يلتزم بها الجند في ميادين وساحات القتال .. إلى السّاعة أرقى وأقوى الجيوش المعاصرة .. وأكثرها ادعاءً وتشبعاً بالتحضر .. هي دون هذه القوانين، ودون تلك الأخلاق تقنيناً والتزاماً!

فسنَّ الحبيب صلى الله عليه وسلم قانوناً يمنع ويحرم من قصد واستهداف الشيوخ، والنساء، والأطفال، وغيرهم من المستضعفين

ممن لا شأن لهم بشؤون الحرب والقتال، كما في الحديث عن عبد الله بن عمر، قال: وُجدَت امرأةٌ مقتولةً في بعضِ مغازي رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فنهى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن قتل النساء، والصبيان"متفق عليه. وفي رواية: "فأنكرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان".

وعن رباح بن الربيع الأسيدي، أنه قال: خرج مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في غزوةٍ غزاها وعلى مُقدِّمتِها خالد بنُ الوليدِ فمرَّ رَباحٌ وأصحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على امرأةٍ مقتولةٍ مما أصابت المُقدِّمةُ فوقفوا ينظرون إليها ويتعجَّبون من خُلُقِها، حتى لحقَهم رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على راحلتِه فانفرجوا عنها فوقف عليها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقال: "ما كانت هذه لِتقاتِلَ!"، فقال لأحدِهم: الْحُقْ خالدًا فقُلْ له: لا تقتلنَّ ذُريَّةً ولا عسيفًا"[السلسلة الصحيحة:2/ 314].

والعسيف هو الخادم الأجير.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "ما كانت هذه لِتقاتِلَ"؛ أي إذا لم تُقاتِل، لا ينبغي ولا يجوز أن تُقاتَل .. وإنما القتالُ يكون لمن يُقاتِل .. وعليها وعلى العسيف، يُقاس كل ضعيف لا ينهض للقتال.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما بالُ أقوامٍ جَاوَزَهُمْ القَتْلُ اليومَ حتى قَتَلوا الذُّرِّيَّةَ؟! فقال رجلٌ: يا رسولَ الله: إِنَّما هُمْ أَوْلادُ المُشْرِكِينَ، فقال: "ألا إِنَّ خِيارَكُمْ أبناءُ المُشْرِكِينَ، ثُمَّ قال: ألا لا تَقْتُلوا ذُرِّيَّةً، ألا لا تَقْتُلوا ذُرِّيَّةً؛ كلُّ نَسَمَةٍ تُولَدُ على الفِطْرَةِ حتى يُعْرِبَ عَنْها لسانُها فَأَبَوَاها يُهَوِّدَانِها أو يُنَصِّرَانِها"[السلسلة الصحيحة:402].

وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إذا بعث سريَّةً يقول: لا تقتُلوا شيخًا كبيرًا"[قال الطحاوي في شرح معاني الآثار3/ 224:صحيح].

وفي سنن أبي داود:[ولا تقتلوا شيخاً فانياً، ولا طفلاً، ولا صغيراً، والا امرأة].

وكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه إذا بعث جيشاً يقول لأميره: "إني موصيكَ بعشرِ خِلالٍ: لا تقتلوا امرأةً، ولا صبيًّا، ولا كبيراً هرمًا، ولا تقطعوا شجراً مثمراً، لا تخربن عامراً، ولا تعقرنَّ شاةً، ولا بعيراً إلا لمأكلةٍ، ولا تُغرِقنَّ نخلاً، ولا تحرِقنَّهُ، ولا تغلُلْ، ولا تجبنْ".

ومن القوانين الملزمة التي شرَعها صلى الله عليه وسلم للجند المقاتلين، النهي عن التمثيل بجثث قتلى العدو، إلا ما كان على وجه المقابلة والمعاملة بالمثل، فهي رخصة لصاحب الحق الذي اعتدي عليه، والصبر والعفو أحب إلى الله تعالى وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم،

كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُواْ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾النحل:126. وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْفُوا وَتَصْفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾التغابن:14.

وكان صلى الله عليه وسلم، إذا أَمَّرَ أميرًا على جيشٍ أو سريةٍ، أوصاه في خاصتِه بتقوى اللهِ ومن معه من المسلمين خيراً، ثم قال: اغزوا باسمِ اللهِ في سبيلِ اللهِ، قاتِلوا من كفر باللهِ، اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تغدِروا، ولا تُمَثِّلوا، ولا تقتلوا وليدًا"مسلم.

وفي رواية: "لا تغدِروا، ولا تغلُّوا، ولا تمثِّلوا، ولا تقتلوا الولدانَ، ولا أصحابَ الصوامعِ"[مجمع الزوائد:5/ 319]. وأصحاب الصوامع؛ هم المنقطعون للعبادة في صوامعهم ومعابدهم.

وقد بلغ من نهي النبيّ صلى الله عليه وسلم عن التمثيل، أن نهى عن التمثيل بالبهائم، فقد مرَّ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على ناسٍ يرمون كبشاً بالنَّبلِ فكره ذلك، وقال: "لا تُمَثِّلوا بالبهائمِ"[صحيح الجامع:7451].

بهذه القوانين العظيمة .. وهذه الأخلاق النبيلة .. خضعت البلاد ودانت لدولة الإسلام الأولى.

* * * * *

الوقفة الحادية والعشرون

"منهج النبى صلى اللّه عليه وسلم فى الدعوة والتعاطى مع الواقع"

بُعِث النبي صلى الله عليه وسلم في زمان كانت جميع مظاهر الفساد متفشّية .. ضاربة جذورها وكلاليبها في المجتمعات .. وفي أنفس الناس .. الفساد الديني .. والفساد الاجتماعي الأخلاقي .. والفساد الاقتصادي .. والفساد السياسي .. وكان علاج كل نوع من أنواع هذا الفساد يستهلك قروناً كاملةً .. كما يستهلك أجيالاً من المصلحين .. كما يستغرق مئات من المساجلات والمناظرات، والردود؛ الرد، والرد المقابل .. وبخاصة عندما تتعرض رغبات وأهواء ومصالح المفسدين المتنفذين إلى الضرر والخطر!

كيف تعامل النبي صلى الله عليه وسلم معها .. وكيف واجهها .. وعالجها وقوّمها .. وحوَّلها إلى مظاهر صلاح وخير بعد أن كانت مظاهر فساد وشر .. وفي أقل من عشرين عاماً؟!

لم يُعالِج النبيّ صلى الله عليه وسلم أي مظهر من مظاهر الفساد بصورة منفردة، بمنأى عن أصل الأصول، الذي بعث به وكل نبي من قبله .. ألا وهو "التوحيد"، لا إله إلا الله .. والتي تعني

بالضروة الانخلاع والبراء من جميع مظاهر الفساد، أعلاها الشرك .. ومن ثم الإيمان بالله تعالى .. والدخول في الطاعة .. والاستسلام لله تعالى، ولرسوله صلى الله عليه وسلم.

بل الإقلاع عن الفساد .. والقيام بأعمال صالحة .. لا تكفي .. ولا تنفع صاحبها .. من دون أن يحقق في نفسه الإيمان .. والدخول في الطاعة، والخضوع، والاستسلام لحكم الله تعالى، وحكم رسوله صلى الله عليه وسلم.

هذا أمر لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يتجاوزه .. ولم يكن يقبل من أحدٍ طاعة .. ولا إصلاح .. إلا بعد أن يجيبه أولاً لهذا الأصل .. أصل التوحيد .. لا إله إلا الله .. لعلمه أن الإصلاح لا يمكن أن يتحقق على الوجه الصحيح والأكمل .. إلا بعد أن يُجيبوه أولاً لهذا الأصل.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ النحل:36. اجتنبوا الطاغوت، وكل ما يصدر عن الطاغوت .. فالطاغوت رمز لكل شرٍّ، وفسادٍ، وظلم!

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ فإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾آل عمران:32.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنتُمْ تَسْمَعُونَ﴾ الأنفال:20.

وقال تعالى: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء:65.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾الحجرات:1-2.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾الزمر:65.

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُواْ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾الأنعام:88.

وفي الحديث عن معاوية القشيري، قال: يا نبيَّ اللهَّ! ما أتيتُكَ حتَّى حلَفتُ أَكثرَ من عددِهنَّ لأصابعِ يديْهِ، أن لا آتيَكَ، ولا آتيَ دينَكَ، وإنِّي كنتُ امرأً لا أعقلُ شيئًا، إلَّا ما علَّمنيَ اللهُ عزَّ وجلَّ ورسولُهُ، وإنِّي أسألُكَ بوحيِ اللهَّ، بما بعثَكَ ربُّكَ إلينا؟ قالَ: "الإسلامُ". قلتُ: وما آياتُ الإسلامِ؟ قالَ: أن تقولَ: أسلَمتُ

وجْهي إلى اللهَّ، وتخلَّيتُ، وتقيمَ الصَّلاةَ وتؤتيَ الزَّكاة .."[صحيح النسائي:2435]. وقوله "وتخليت"؛ أي وتخليت عن الشرك، وعن كل ماضٍ فاسد يتعارض مع استسلامك لله عز وجل.

ولما تحقق للنبي صلى الله عليه وسلم هذا المطلب الأصيل والهام .. سهل عليه بعد ذلك أن يُعالج أي مظهر من مظاهر الفساد الأخرى .. ومن دون أدنى معارضة أو مقاومة .. أو عناء .. فقال للناس ــ للذين آمنوا به وصدقوه ــ: الزنى حرام وممنوع .. مباشرة ومن دون نقاش أو جدال .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

فقال لهم: الخمر حرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

قال لهم: الربا حرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

قال لهم: قتل النفس بغير حق .. حرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

قال لهم: الكذب والغش، والنميمة، والغيبة .. والتجسس .. وقول الزور .. والغدر، والخيانة .. حرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

قال لهم: السرقة .. والميسر .. حرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

قال لهم: وأد البنات جريمة، وحرام وممنوع .. قالوا: سمعنا وأطعنا!

وهكذا كلما نهاهم عن فساد أو خطأ ــ كان كبيراً أم صغيراً، وأياً كان نوعه ــ كانوا يقولون مباشرة ومن غير نقاش ولا تردد: سمعنا وأطعنا .. لعلمهم أن خلاف ذلك يعني المعارضة ل "لا إله إلا الله"، التي أقروا بها ابتداءً .. كما يعني النفاق .. والكفر .. والمروق .. وهو ما فروا منه .. ويخشونه على أنفسهم ودينهم، وآخرتهم .. كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ النور: 51.

طغاة مشركي قريش، المتنفذون، الذين يتكسّبون بالفساد .. ويعتاشون على الفساد .. أدركوا هذا المعنى؛ أدركوا أن إجابة النبي صلى الله عليه وسلم إلى التوحيد .. إلى "لا إله إلا الله"، يعني بالضرورة ومباشرة .. الإقلاع عن جمع مظاهر الفساد .. وخسران جميع الامتيازات التي يتمتعون بها بالحرام كطغاة مفسدين!

عن ابن عبّاس قال: لَمَّا مَرِضَ أبو طالبٍ دخل عليه رَهْطٌ من قُريشٍ منهم أبو جهلٍ فقالوا : يا أبا طالبٍ ابنُ أخيكَ يَشْتُمُ آلهتَنَا يقولُ ويقولُ، ويفعلُ ويفعلُ، فأَرْسِلْ إليهِ فانْهَه! قال: فأَرْسَلَ إليهِ أبو طالبٍ وكان قُرْبَ أبي طالبٍ موضعُ رَجُلٍ فخَشِيَ ــ أي أبو جهل ــ إن دخلَ

النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على عَمِّهِ أن يكون أَرَقَّ له عليه، فَوَثَبَ فجلسَ في ذلك المجلسِ، فلمَّا دخل النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يجدْ مجلساً إلا عندَ البابِ فجلسَ، فقال أبو طالبٍ: يا ابنَ أَخِي إنَّ قومَك يشكُونَك يزعمونَ أنك تَشْتُمُ آلهتَهم وتقولُ وتقولُ، وتفعلُ وتفعلُ؟ فقال: "يا عَمِّ إني إنَّما أُريدُهم على كلمةٍ واحدةٍ تَدِينُ لهم بها العَرَبُ وتُؤَدِّي إليهم بها العَجَمُ الجِزْيَةَ"، قالوا: وما هي، نعم وأبيكَ عشرًا؟ قال: "لا إلهَ إلا اللهُ"، قال: فقاموا وهم ينفضون ثيابَهم وهم يقولونَ: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾.[أخرجه أحمد وغيره، وصححه شاكر في التخريج].

قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾الصافات:35.

ما تقدم أعلاه فيه عظة وعبرة للدعاة والمصلحين .. الذين ينهضون للإصلاح .. ومحاربة الفساد .. بعيداً عن منهج وطريقة النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة، ومعالجة مظاهر الفساد .. يظنون أنهم على شيء أو بمقدورهم أن يُصلحوا .. وأن يُحاربوا الفساد .. قبل أن يحققوا "لا إله إلا الله" في نفوس الناس!

ولهؤلاء نقول: وفروا عليكم الجهد والطاقات .. والأوقات .. فإن لم تحملوا الناس أولاً على التوحيد، والطاعة، والاستسلام لله عز

وجل، ولرسوله صلى الله عليه وسلم .. الاستسلام للشرع المنزّل .. لن تفلحوا .. ولن تتأتوا بنتيجة تُذكَر .. لو أنفقتم العمر كله .. وسيصعب عليكم حينئذٍ معالجة أي مظهر من مظاهر الفساد التي تعاني منه مجتمعاتنا .. وأسرُنا .. وشبابنا .. وستجدون كل امرئٍ يُدافع عن فساده بكلمات: لماذا .. وكيف .. ومتى .. وأين .. ولعلّ .. وربما .. وأنظر .. وأنا حر؛ أختار وأفعل ما أشاء .. إلى آخر قائمة الاعتراضات التي تستغرق جهد وعمر المصلحين، ومن غير طائل يُذكَر!

وكلما سددتم خلَلاً .. فُتِحَ خلل آخر .. وكلما أغلقتم باباً من الشرِّ والفساد، فُتحت مقابله أبواب من الشر والفساد .. وما تصلحونه في شهر .. المجتمع ــ المتمرد على الطاعة والاستسلام لله ولرسوله، ولِما يملك من آليات ووسائل ضخمة تخدم الفساد ــ يُفسده ويُبطله في سويعات .. والواقع خير برهان على ذلك.

* * * * *

الوقفة الثانية والعشرون

"المرحلة المكية؛ مرحلة الصبر والثبات"

عندما نطالع المرحلة المكيّة من سيرة النبي صلى الله عليه وسلم .. نجدها تمتاز بخاصيتين بارزتين: الصبر، والثبات ..!

ولو أردنا أن نضع عنواناً يناسب سيرة الحبيب صلى الله عليه وسلم في المرحلة المكيّة .. لما وجدنا أدق وأصوب من هذين العنوانين: الصبر، والثبات!

الصبر على البلاء: بلاء الشدة بكل ما تعني الشدة من معنى.. ومن ثم الثبات على المبدأ .. وعلى الطريق إلى نهايته .. من غير التفات أو حيدة عنه يُمنة أو يُسرة .. رغم العروض السخيّة التي عُرِضت على النبي صلى الله عليه وسلم مقابل أن يتراجع عن دعوته أو يتنازل عن بعض ما هو عليه من الحق!

فقد تعرّض النبي صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المؤمنين من قبل مشركي قريش، إلى صنوف من الأذى، والطعن، والاستهزاء، والتهكم .. فقالوا عن الحبيب صلى الله عليه وسلم: مجنون .. وقالوا عنه: ساحر، وكذاب .. وكانوا إذا مروا به وبمن معه من المؤمنين يسخرون ويضحكون ويتغامزون، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ يَا أَيُّهَا الَّذِي

نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ﴾الحجر:6. وقال تعالى:﴿وَقَالَ الْكَافِرُونَ هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾صـ:4. وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ أَجْرَمُوا كَانُواْ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا يَضْحَكُونَ ﴾المطففين:29. وقال تعالى: ﴿وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون﴾الأنبياء:41.

فكان ــ مقابل ذلك ــ يتنزل عليه الأمر الإلهي بالصبر على الأذى والشدائد، والثبات على الطريق، كما قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾هود:49. وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ﴾طه:130. وقال تعالى:﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾الروم:60. وقال تعالى:﴿ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾الأحقاف:35. أي لا تستعجل لهم العذاب ..!

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ صَبْراً جَمِيلاً﴾المعارج:5. والصبر الجميل هو الصبر الذي لا جزع، ولا شكوى، ولا تضجّر فيه .. احتساب الأجر والمثوبة عند الله .. وأجمل الصبر الجميل، ما كان عند الصدمة الأولى!

وفي الحديث، عن ربيعة بن عباد الديلي قال: رأيت رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بصر عيني بسوق ذي المجاز يقول: يا أيها الناس

قولوا لا إله إلا الله تفلحوا، ويدخل في فجاجها والناس متقصفون عليه ــ أي مزدحمون ــ إلا أن وراءه رجلاً ــ وهو أبو لهب ــ يتَّبعُهُ يرميهِ بالحجارةِ قَد أدمَى كَعبَيهِ وعُرقوبَيهِ .. وهو يقول: إنه صابئ كاذب .. يريد منكم أن تسلخوا اللات والعزّى .. فلا تسمعوا له ولا تتبعوه!

وعن أبي أيوب الأزدي، قال: رأيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وآلِه وسلَّمَ يقولُ للنَّاسِ: "يا أيُّها النَّاسُ قولوا لا إلهَ إلَّا اللهُ تفلِحوا"، فمِنهم مَن سبَّه، ومِنهم مَن تفلَ في وجهِهِ، ومِنهم مَن حثا عليهِ التُّرابَ حتَّى انتصفَ النَّهارُ، فجاءت جاريةٌ بعُسٍ من ماءٍ فغسلَ وجهَهُ ويدَيه، فقلتُ: مَن هذهِ؟

قالوا: هذهِ زَينبُ ابنتُهُ"البخاري.

ومن حديث أسماء بنت أبي بكر، قالت: كان المشركون رفعوا في المسجد عمداً ليروا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وما يقول في آلهتهم، فبينما هم كذلك، إذ أقبل رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقاموا إليه بأجمعهم، فأتى الصريخ إلى أبي بكر، فقالوا: أدرك صاحبك، فخرج من عندنا وإن له لغدائر أربع، وهو يقول: ويلكم أتقتلون رجلاً يقول ربي الله، وقد جاءكم بالبينات من ربكم ؟! فلَهَوا عن رسول الله وأقبلوا على أبي بكر رضي الله عنه، قالت: فرجع إلينا

أبو بكر، فجعل لا يمس من غدائره إلا جاء معه، وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام ..![مجمع الزوائد: 6/ 19].

ومن حديث أنس بن ما لك رضي الله عنه، قال: لقد ضربوا رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ مرة حتى غشي عليه، فقام أبو بكر رضي الله عنه فجعل ينادي ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟!

فقالوا: من هذا؟! فقالوا: أبو بكر المجنون .. فتركوه وأقبلوا على أبي بكر!![10].

ومن حديث عبد الله بن مسعود، قال: "بينما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يصلي عند البيتِ، وأبو جهلٍ وأصحابٌ له جلوسٌ، وقد نُحِرَتْ جزورٌ بالأمسِ. فقال أبو جهلٍ: أيكم يقوم إلى سَلا جزورِ بني فلانٍ ــ أي مشيمة ناقة ميتة ــ فيأخذه فيضعه في كَتِفَي محمدٍ إذا سجد؟ فانبعث أشقى القومِ فأخذه، فلما سجد النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وضعَه بين كتفَيه! قال: فاستضحكوا، وجعل بعضُهم يميلُ على بعضٍ، وأنا قائمٌ أنظر، لو كانت لي منَعَةٌ طرحتُه عن ظهرِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، والنبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ساجدٌ، ما يرفع

[10] قال ابن حجر في الفتح الباري 207/7: إسناده صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد 20/6: رجاله رجال الصحيح.

رأسَه، حتى انطلق إنسانٌ فأخبر فاطمةَ، فجاءت، وهي جُويريةٌ، فطرحتْه عنه ..."متفق عليه.

وعن أبي هريرة قال: قال أبو جهلٍ: هل يُعفِّرُ محمدٌ وجهَه بين أظهُرِكم؟ ــ يقصد الصلاة ــ قال فقيل: نعم. فقال: واللاتِ والعُزَّى! لئن رأيتُه يفعلُ ذلك لأطأنَّ على رقبتِه، أو لأُعفِّرنَّ وجهَه في التُّرابِ. قال فأتى رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبتِه، قال: فما فَجَئَهم منه إلا وهو ينكُصُ على عَقِبَيه ويتَّقي بيدَيه. فقيل له: مالَكَ؟ فقال: إنَّ بيني وبينه لَخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "لو دنا مني لاختطَفَتْه الملائكةُ عضوًا عضوًا"مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص، قال : بينما رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُصلِّي بفِناءِ الكعبةِ إذ أقبَل عُقبَةُ بنُ أبي مُعَيطٍ فأخَذ بمَنكِبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ولوى ثوبَه في عُنُقِه فخنَقه خَنقاً شديداً، فأقبَل أبو بكرٍ فأخَذ بمَنكِبِه ودفَع عن رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقال: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾. البخاري.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: يا رسولَ اللهِ! هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال: لقد لقيتُ من

قومِك، وكان أشدَّ ما لقِيتُ منهم يومَ العقبةِ، إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يا ليلِ بنِ عبدِ كلالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أَستَفِقْ إلا بقرنِ الثعالبِ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلٌ فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد سمع قولَ قومِك لك وما رَدُّوا عليكَ، وقد بعث إليك ملَكَ الجبالِ لتأمرَه بما شئتَ فيهم! قال: فناداني ملكُ الجبالِ وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمدُ! إنَّ اللهَ قد سمِع قولَ قومِك لكَ، وأنا ملَكُ الجبالِ، وقد بعثَني ربُّك إليك لتأمرَني بأمرِك، فما شئتَ؛ إن شئتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشبَينِ؟ فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: بل أرجو أن يخرجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبدُ اللهَ وحدَه ، لا يشركُ به شيئًا"مسلم.

وكانت قريش قد قالت عن أبي مُعيط بأنه قد صبَأ .. فغاظه ذلك منهم .. وأراد أن يثبت لهم براءته مما قالوا .. وأن يُذهب ما في صدورهم عليه .. فقام إلى النبي صلى الله عليه وسلم في مجلسه من الكعبة .. فبصقَ في وجهِهِ وشتمه بأخبَثِ ما يعلَمُهُ منَ الشَّتمِ ... فلم يزدِ النَّبِيُّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ أن مسحَ وجهَهُ من البُصاقِ ثُمَّ التفت إليهِ فقال: "إن وجدتُكَ خارجاً من جبالِ مكَّةَ أضِربُ عنُقَكَ صبراً"، فلمَّا كانَ يومَ بدرٍ وخرجَ أصحابُهُ أبى أن يخرُجَ. فقالَ له أصحابُهُ:

اخرُجْ معَنا. قال: قد وعدَني هذا الرَّجُلُ إن وجدَني خارجاً من جبالِ مكَّةَ أن يضرِبَ عُنقي صبراً. فقالوا: لكَ جَمَلٌ أحمَرُ لا يُدرَكُ فلو كانت الهزيمةُ طِرتَ عليهِ، فخرجَ معهُم فلمَّا هزمَ اللهُ المشركينَ، وحِلَ به جَمَلُهُ في جُدَدٍ من الأرضِ، فأخذَهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ أسيراً في سبعينَ من قُريشٍ وقدِمَ إليهِ أبو مُعيطٍ. فقال: تقتُلُني من بينِ هؤلاءِ؟ قال: "نعَم؛ بما بصَقتَ في وجهي"، فأنزَلَ اللهُ في أبي مُعيطٍ: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ﴾ إلى قولِهِ ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾.[قال السيوطي في الدر المنثور: إسناده صحيح].

وكذلك حصار المشركين للنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين في شِعب أبي طالب لثلاث سنوات .. ومقاطعتهم لبني هاشم؛ فلا يناكحوهم، ولا يبايعوهم، ولا يُجالسوهم .. وتعاهدوا فيما بينهم أن لا تأخذهم بهم رأفة ولا رحمة .. حتى يُسلموهم محمداً .. أو يهلكوا جوعاً!

فبلغ الجهد والجوع من النبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين أن أكلوا أوراق الشجر، والجلود .. فما صدهم ذلك عن الحق الذي هم عليه .. بل صبروا الصبر الجميل، وثبتوا على الحق ثبات الجبال الشامخات الرواسي.

فداك نفسي يا سيدي يا رسول الله .. كم ضحيت .. وكم عانيت، وتحمّلت، وصبرت .. من أجل أن تبلغ الدين الحق عن ربك .. من أجل أمتك .. من أجل أن تنقذ الناس ــ كل الناس ــ من ظلم وظلمات الشرك، إلى نور وعدل التوحيد .. ومن ضيق الدنيا، إلى سعة الدنيا والآخرة .. صلوات الله وسلامه عليك.

ولما وجد مشركو قريش أن الترهيب، والشدة، والاضطهاد لا يجدي مع الحبيب صلى الله عليه وسلم نفعاً .. ولا يتأتى لهم بثمر سوى الخيبة والخذلان .. أرادوا أن يجربوا معه أسلوباً آخر؛ أسلوب الترغيب .. والإغراء .. والعروض السخية .. عساه يرضى أن يُساوم على بعض ما أوحى الله إليه .. أو يركن إليهم شيئاً قليلاً .. وهذا بلاء من نوع آخر .. ما أكثر الرجال ــ من طلاب الجاه والدنيا ــ الذين يتساقطون عند أول اختبار لهم من هذا النوع!

فاجتمع عليه صناديد قريش، فقالوا: يا محمَّدُ واللهِ ما نعلمُ رجلاً من العربِ أدخل على قومِه ما أدخلتَ على قومِك لقد شتمتَ الآباءَ، وعبت الدِّينَ، وسفَّهتَ الأحلامَ وشتمتَ الآلهةَ، وفرَّقتَ الجماعةَ ... فإن كنتَ إنَّما جئتَ بهذا الحديثِ تطلبُ مالاً جمعنا لك من أموالِنا حتَّى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تطلبُ الشَّرفَ فينا سوَّدْناك علينا، وإن كنتَ تريدُ

ملكاً ملَّكناك علينا، وإن كان هذا الَّذي يأتيك بما يأتي رئياً تراه قد غلب، بذلْنا أموالَنا في طلبِ الطِّبِّ لك حتَّى نُبرئَك منه نُعذرُ فيك!

فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "ما بي ما تقولون، ولكنَّ اللهَ بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتاباً، وأمرني أن أكونَ لكم بشيراً ونذيراً ...".

وفي رواية: أَرْسَلَتْ قريشٌ، عُتْبَةَ بنَ ربيعةَ، فذهب إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يقولُ: يا ابنَ أَخِي، إنّك منا حيثُ قد علمتَ من المكانِ في النَّسبِ، وقد أَتَيْتَ قومَك بأمرٍ عظيمٍ فَرَّقْتَ به جماعتَهم، فاسمَعْ مِنِّي أَعْرِضْ عليك أموراً لعلك تقبلُ بعضَها: إن كنتَ إنما تريدُ بهذا الأمرِ مالًا جَمَعْنا لك من أموالِنا حتى تكونَ أكثرَنا مالاً، وإن كنتَ تريدُ شَرَفًا سَوَّدْناكَ علينا فلا نَقْطَعُ أمراً دونَك، وإن كنتَ تريدُ مُلْكاً مَلَّكْناكَ علينا، وإن كان هذا الذي يأتِيكَ رِئْياً تَرَاه لا تستطيعُ رَدَّه عن نفسِك، طَلَبْنا لك الطِّبَّ، وبَذَلْنا فيه أموالَنا حتى تَبْرَأَ. فلما فرَغَ، قال له رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: "أفرغت؟". قال: نعم. فتلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم صدر سورة فُصِّلَتْ: ﴿حم * تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ * كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * بَشِيرًا وَنَذِيراً فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ حتى بلغ ﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَاعِقَةً مِّثْلَ صَاعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾فصلت:1-13.

فقال عُتبة: حسبُك، حسبك ما عندك غير هذا؟!

قال صلى الله عليه وسلم: "لا ....."![11].

الله أكبر .. تُعرَض الدنيا بزخرفها كله على النبي صلى الله عليه وسلم مقابل أن يتنازل عن شيء من الحق الذي تنزَّل عليه .. فيأبى إلا أن يقف موقف الحق كاملاً غير منقوص .. ولا مُجتزَئٍ .. موقف العقيدة التي لا تقبل المساومة ولا التنازل عن شيء من مبادئها .. إما أن يُجيبوه إلى "لا إله إلا الله"، وإلا .. فلا! .. وفي ذلك عبرة لأولئك الذين يترامون على عتبات الطغاة الظالمين .. يرضون منهم بالفُتات الذي يُرمى إليهم .. مقابل أن يتخلوا عن العقيدة .. وعن البيان والصدع بالحق .. بزعم تحصيل المصالح .. زعموا .. ثم هم بعد ذلك يحسبون أنفسهم أنهم على شيء، وما هم على شيء!

عن سعد بن أبي وقاص، قال: قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يُبتلى العبد على حسب دينه؛ فإن كان في دينه صلباً اشتد بلاؤه وإن كان في دينه رقة ابتلي على حسب دينه .."[صحيح سنن ابن ماجه: 3249].

---

[11] قال الهيثمي في مجمع الزوائد 22/6: فيه الأجلح، وبقية رجاله ثقات. وقال الشيخ ناصر في فقه السيرة"107": إسناده حسن.

وعن أبي سعيد الخدري قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك فوضعت يدي عليه فوجدت حرَّهُ بين يدي فوق اللحاف. فقلت يا رسول الله ما أشدها عليك! قال: "إنَّا كذلك يُضَعَّفُ لنا البلاء ويُضعَّف لنا الأجر". قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: "الأنبياء"، قلت يا رسولَ الله ثم من؟ قال: "ثم الصالحون ..."[صحيح سنن ابن ماجه: 3250].

وفي رواية: أنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو موعوك عليه قطيفةٌ، فوضع يده فوق القطيفة، فقال: ما أشدَّ حُمَّاك يا رسول الله! قال صلى الله عليه وسلم: "إنا كذلك يُشدد علينا البلاء، ويُضاعف لنا الأجر"، ثم قال: يا رسولَ الله من أشد الناس بلاء؟ قال: "الأنبياء"قال: ثم مَن؟ قال: "العلماء"، قال: ثم مَن؟ قال: "الصالحون ..."[صحيح الترغيب والترهيب: 3403].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إنا معشرَ الأنبياء يُضاعَفُ علينا البلاء"[صحيح الجامع: 2288].

قالت عائشة رضي الله عنها: "لم يزل البلاء بالرسل، حتى خافوا أن يكون من معهم يكذبونهم، فكانت تقرأ قوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا﴾يوسف:110. البخاري.

قال صلى الله عليه وسلم: "ما أوذي أحدٌ ما أوذيتُ في الله عزّ وجل"[السلسلة الصحيحة: 2222].

وبالتالي من يدعي متابعة النبي صلى الله عليه وسلم والاقتداء به، وأنه ممن يحبون النبي صلى الله عليه وسلم .. عليه أن يروض نفسه لاستقبال البلاء .. وتحمل البلاء .. على قدر صدق دعواه في متابعته وحبه للنبي صلى الله عليه وسلم.

جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: والله يا رسول الله إني أحبُّك! فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ البلايا أسرعُ إلى من يُحبني من السيل إلى منتهاه"[السلسلة الصحيحة: 1586].

أي هذا الزعم له برهان؛ وبرهانه نزول البلايا في ساحتك .. وتحملك إياها .. وصبرك عليها .. فإن لم تكن أهلاً لذلك، فدعواك المحبة والولاء زعم لا حقيقة له ولا برهان .. الله المستعان!

قال صلى الله عليه وسلم، في الحديث القدسي: "قال تعالى: إنما بعثتُكَ لأبتلِيَكَ، وأبتَلِيَ بِك"مسلم.

هكذا كانت المرحلة المكية .. بلاء .. وصبر .. وثبات .. فكيف كانت المرحلة"المدنية" من سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم .. هذا ما سنتناول الحديث عنه ــ إن شاء الله ــ في الوقفة التالية.

الوقفة الثالثة والعشرون

"المرحلة المدنية؛ مرحلة الجهاد والبناء"

إذا كان عنوان المرحلة المكية؛ الصبر والثبات .. فإن عنوان المرحلة المدنية؛ الجهاد في سبيل الله، والبناء .. بناء الدولة الإسلامية، والتأسيس لها على امتداد ربوع الجزيرة العربية، وما وراء الجزيرة العربية .. فكانت المرحلة المدنية (الجهاد، والبناء)، ثمرة من ثمار المرحلة المكية (الصبر والثبات) .. كما كانت المرحلة المكية تدريباً قاسياً وقوياً لا بد منه لتحمل أعباء ومتطلبات المرحلة المدنية .. إذ لا جهاد، ولا بناء .. ولا تمكين في الأرض .. إلا بعد اجتياز اختبار الصبر والثبات بنجاح .. ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ﴾ العنكبوت:2. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ محمد:31.

وما إن تمت الهجرة من مكة إلى المدينة .. ووطئت قدم الحبيب صلى الله عليه وسلم أرض المدينة المنورة .. إلا وبدأ عهد جديد .. وأسلوب جديد .. فنزل الإذن بالقتال .. والدفاع عن النفس، والحقوق، والحرمات .. ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللهَّ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾الحج:39.

ومن ساعتئذٍ بدأت حركة الجهاد .. بدأت قوافل الجهاد بالانطلاق من غير توقف .. ولا كلل، ولا ملل .. يواصل النبي صلى الله عليه وسلم الليل بالنهار .. ففي شهر صَفَر على رأس اثني عشر شهراً من الهجرة يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة الأبواء ..!

وعلى رأس ثلاثة عشر شهراً من مهاجره صلى الله عليه وسلم يقود صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بواط ..!

ثم أتبع غزوة البواط بغزوة العشيرة .. قال البخاري: "قال ابن إسحاق أول ما غزا رسول الله صلى الله عليه وسلم الأبواء ثم بواط ثم العشيرة".

وقبل ذلك يُرسل سريتين: سرية بقيادة حمزة بن عبد المطلب إلى سيف البحر من جهينة .. وسرية بقيادة عبيدة بن الحارث ..!

وبعد غزوة العشيرة يخرج صلى الله عليه وسلم بنفسه لطلب كرز بن جابر الفهري، وكان قد أغار على سرح المدينة .. وهي غزوة بدر الأولى!

وفي رجب من السنة الثانية للهجرة يُرسل صلى الله عليه وسلم سرية عبد الله بن جحش .. التي كانت سبباً لغزوة بدر الكبرى!

وفي رمضان من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بدر الكبرى أنعم وأعظم بها من غزوة .. قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "لقد رأيتنا يوم بدر ونحن برسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أي نحتمي ــ وهو أقربنا من العدو، وكان من أشد الناس يومئذٍ بأساً".. الله أكبر!

ومن حديث أنس، قال: فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدرٍ، وجاء المشركون، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "لا يقومنّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه".

وفي شوال من نفس السنة .. وبعد غزوة بدر الكبرى بأيامٍ .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بني سليم ..!

وبعدها من نفس السنة .. يقود صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة السويق .. يُطارد فيها أبا سفيان ومن كان معه من المشركين .. كانوا قد تجرؤوا على الاقتراب من حدود المدينة ..!

وفي النصف الثاني من شوال من نفس السنة يغزو النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه يهود بني قينقاع .. وكانوا أول يهود قد نقضوا العهد وحاربوا ..!

وفي ذي الحجة من السنة الثالثة للهجرة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة نجد ويُقال لها غزوة ذي أَمَر .. يريد مشركي غطفان!

وفي ربيع الأول من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة الفُرُع من بُحران .. أراد بها قريشاً ..!

ثم يرسل صلى الله عليه وسلم سرية زيد بن حارثة .. في طلب عيرٍ لقريش كانت تحمل أموالهم وتجارتهم .. فلقيهم على ماء يُقال له القردة فأصاب تلك العير وما فيها .. وكانت تلك السرية بعد وقعة بدر بستة أشهر.

ثم ينتدب نفراً من أصحابه لقتل الطاغية كعب بن الأشرف اليهودي .. وكان قد آذى الله ورسوله والمؤمنين .. وقد فعلوا!

وفي شوال من نفس السنة .. يقود صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة أحد .. وفيها جُرح وجهه الشريف .. وكُسرت رباعيته .. وهُشمت البيضة على رأسه .. وشُجَّ رأسه .. فجعل يسلت الدم عنه، ويقول: "كيف يُفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله" فأنزل الله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾آل عمران:128.

وبعد موقعة أحد بيوم .. والجراح لم تندمل بعد .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة حمراء الأسد .. طالباً أبا سفيان ومن معه من المشركين .. وكان قد بلغه أن المشركين يريدون الكر لاستئصال المسلمين في مدينتهم ..!

وفي هذه الغزوة أنزل الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا للهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾آل عمران:172.

وبعد أحد من السنة الرابعة للهجرة .. يتوجه النبي القائد صلى الله عليه وسلم لغزو يهود بني النضير .. فيغزوهم في ديارهم وحصونهم .. بعد أن غدروا ونقضوا العهد .. وأرادوا السوء بالنبي صلى الله عليه وسلم ..!

وبعد النضير من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بني لحيان .. لما أصيب خبيب وأصحابه طالباً بدمهم ..!

وفي جمادى الأولى من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة ذات الرقاع .. أراد بها غزو مشركي بني محارب وبني ثعلبة من غطفان .. وسُميت غزوة ذات الرقاع لأن الصحابة كانوا يربطون على أرجلهم بالخرق والرقاع من شدة الحر ..!

وبعد غزوة ذات الرقاع في شعبان من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بدر الآخرة أو الثانية .. خرج فيها لملاقاة أبي سفيان .. وكان على موعد معه عند بدر .. فأقام عليه ثمانياً إلا أن الآخر لم يأتِ ..!

وفي ربيع الأول من السنة الخامسة للهجرة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة دَومة الجندل .. فخرج في ألف من المسلمين .. وأراد بذلك أن يخيف قيصر الروم .. وأن يؤدب مشركي ومجرمي دومة الجندل ..!

وفي شعبان من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة بني المصطلق أو غزوة المريسيع .. وقد غزاهم النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن بلغه أن بني المصطلق يجمعون له .. فبادأهم القتال في حماهم قبل أن يبادئونه .. فقتل مقاتلتهم، وسبى سبيهم ..!

وفي شوال من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة الخندق أو الأحزاب .. وفي هذه الغزوة يواجه النبي صلى الله عليه وسلم جميع طوائف وأحزاب الكفر والشرك من اليهود ومشركي العرب وأوباشهم .. الذين قصدوا استئصال المسلمين في مدينتهم .. إلا أن الله تعالى رد كيدهم في نحورهم وأبى إلا أن يعز دينه ورسوله!

وفي هذه الغزوة تم حفر الخندق حول المدينة لصد الأعداء .. وقد حصل فيها من الآيات والكرامات ما يطول بنا المقام لو أردنا ذكرها وإحصاءها ..!

وكان الصحابة من الأنصار والمهاجرين يرجزون وهم يحفرون الخندق، وقد بلغ بهم الجوع والنصب مبلغه:

نحن الذين بايعوا محمداً ... على الجهاد ما بقينا أبداً.

فيجيبهم النبي صلى الله عليه وسلم: "اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة، فبارك في الأنصار والمهاجرة".

وما إن انتهت موقعة الأحزاب على حال تسر المؤمنين وتسيء العدى .. رجع النبي صلى الله عليه وسلم من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل، أتاه جبريل عليه السلام، فقال: قد وضعت السلاح؟! والله ما وضعناه! فاخرج إليهم، قال صلى الله عليه وسلم: "فإلى أين ؟" قال: هاهنا وأشار إلى قريظة، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم إليهم .. وكانوا قد غدروا، وخانوا، ومالؤوا الأحزاب في الخندق على النبي صلى الله عليه وسلم، ومن معه من المسلمين.

ومن حديث كعب بن مالك، قال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من طلب الأحزاب رجع فوضع لأمته واستجمر ــ أي تطيب ــ فنزل جبريل عليه السلام فقال: عذيرك من محارب، ألا أراك

قد وضعت اللأمة، وما وضعناها بعد؟! فوثب رسول الله صلى الله عليه وسلم فزعاً، فعزم على الناس ألا يصلوا العصر إلا في بني قريظة، فلبسوا السلاح وخرجوا ..!

وفي شعبان من السنة السادسة للهجرة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة قرَد أو غزوة الغابة .. ليسترد اللقاح وإبل المسلمين من غطفان وكانوا قد سطوا عليها ..!

وفي ذي القعدة من نفس السنة .. يقود النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة الحديبية العظيمة .. وفيها بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بيعة الرضوان ــ تحت الشجرة ــ على الموت والجهاد والثبات وعدم الفرار .. فأنزل الله تعالى فيهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً﴾الفتح:18. وكانوا يومئذٍ أربع عشر مائة .. وقد انتهت الغزوة بصلح آمن مع قريش ومن دخل في حلفهم .. وكان هذا الصلح كما أخبر عنه النبي صلى الله عليه وسلم فتحاً مبيناً، وفيه أنزل الله تعالى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً﴾الفتح:1. قال رجل: يا رسول الله أوفتح هو؟ قال: "أي والذي نفسي بيده إنه لفتح".

وفي أواخر شهر محرم من السنة السابعة للهجرة .. يقود بنفسه صلى الله عليه وسلم غزوة خيبر .. فغزا اليهود في حصونهم .. فلما دخل القرية، قال: "الله أكبر! خربت خيبر، إنا إذا نزلنا بساحة قومٍ فساء صباح المنذرين ..!

وفي هذه الغزوة بارز علي بن أبي طالب رضي الله عنه مرحباً اليهودي وكان ملكاً على يهود خيبر فقتله .. وعلى يديه فتح الله ونصر المسلمين.

وفي هذه السنة يُرسل النبي صلى الله عليه وسلم عدة سرايا للجهاد .. فأرسل أبا بكر على رأس سرية إلى فزارة .. وأرسل عمر على رأس سرية إلى هوازن .. وأرسل عبد الله بن رواحة على رأس سرية إلى يسير بن رزام اليهودي .. وسرية أخرى بقيادة بشير بن سعد على بني مرة من أرض فدك .. وسرية عليها عبد الله بن حزافة السهمي .. وغيرها!

وفي جمادى الأولى من السنة الثامنة للهجرة .. يجهز صلى الله عليه وسلم جيش مؤتة وجعل زيد بن حارثة أميراً عليه، وقال: "إن قُتل زيد فجعفر، وإن قُتل جعفر فعبد الله بن رواحة .. فكانوا على رأس ثلاثة آلاف رجل .. رمى بهم الروم في مؤتة من أرض الشام!

وفي جمادى الثانية من نفس السنة .. يُرسل صلى الله عليه وسلم سرية إلى ذات السلاسل من مشارف الشام عليها عمرو بن العاص .. وفيها أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم أجمعين.

وفي العاشر من رمضان من نفس السنة .. يقود صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة فتح مكة بعد أن نقضت قريش وحلفاؤها العهد وغدروا .. ونقضوا ما كان بينهم وبين النبي صلى الله عليه وسلم من صلح .. فدخل مكة فاتحاً .. وحطم الأصنام التي كانت حول الكعبة .. وكان يطعنها بعود في يده، وهو يقول: "جاء الحق وزهق الباطل وما يُبدي الباطل وما يُعيد".. ودخل الناس في دين الله أفواجاً.

فبعد فتح مكة بتسعة عشر يوماً وكان ذلك لخمس خلت من شوال .. انطلق صلى الله عليه وسلم يقود بنفسه غزوة حنين .. ليواجه آخر محاولات مشركي العرب التي تجمعت للصد عن دعوة التوحيد .. فنصره الله تعالى عليهم .. وجعل أموالهم غنيمة للمسلمين.

وفي هذه الموقعة كان النبي صلى الله عليه وسلم ينادي مثبتاً المسلمين: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

قال البراء بن عازب رضي الله عنه: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به صلى الله عليه وسلم، وإن الشجاع منا للذي يُحاذي به؛ يعني النبي صلى الله عليه وسلم.

وما إن نصره الله تعالى في حنين .. إلا وينطلق بمن معه من المسلمين لمحاصرة وقتال المشركين في الطائف .. فحاصرهم أربعين يوماً!

وفي رجب من السنة التاسعة للهجرة .. يقود صلى الله عليه وسلم بنفسه غزوة تبوك .. في قيظ شديد .. قصد بها غزو الروم .. وسُميت هذه الغزوة كذلك غزوة العسرة .. لاجتماع العسر على المسلمين: عسرة الظهر، وعسرة الزاد، وعسرة الماء، حتى أن العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم، وكان زادهم التمر المتسوس، والشعير المتغير، والإهالة المنتنة ..!

وقد سُئل عمر رضي الله عنه عن ساعة العسرة، فقال: خرجنا في قيظ شديد، فنزلنا منزلاً أصابنا فيه عطش شديد حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع من العطش، وحتى أن الرجل لينحر بعيره، فيعصر فرثه فيشربه، ويجعل ما بقي على كبده!

فقال أبو بكر رضي الله عنه: يا رسول الله إن الله قد عودك في الدعاء خيراً، فادع لنا. قال صلى الله عليه وسلم: "أتحب ذلك ؟"، قال: نعم. فرفع يديه فلم يرجعهما حتى أظلت السماء ثم سكبت فملؤوا ما معهم، ثم ذهبنا ننظر فلم نجدها جاوزت العسكر.

صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفس محمد بيده لولا أن أشق على المسلمين ما قعدت خلاف سرية تغزو في سبيل الله أبداً، ولكني لا أجد سعة فيتبعوني، ولا تطيب أنفسهم فيتخلفون بعدي، والذي نفس محمد بيده لوددت أن أغزو في سبيل الله فأقتل، ثم أغزو فأقتل، ثم أغزو فأقتل" مسلم.

هذه بعض جوانب سيرة وحياة النبي صلى الله عليه وسلم في المرحلة المدنية .. إنها مليئة بالحركة .. والتضحية والجهاد.

ثم هو لم يكن جهاد لمجرد الجهاد .. أو قتال لمجرد القتال .. لا .. وإنما جهاد أعقبه التأسيس لقيام مجتمع راق متحضر آمن .. قيام مجتمع متآخٍ متكافل متراحم .. قيام دولة إسلامية راشدة عادلة قوية .. مكتملة التأسيس والمرافق والبنيان .. متماسكة الأطراف والمرافق .. مثَل أعلى لكل دولة تأتي بعدها .. لم، ولن يعرف التاريخ لها مثيلاً في التحضر، والتقدم، والرقي .. ظل المسلمون ــ فيما بعد ــ يعتاشون على خيرها ومجدها طيلة ألف وأربعمائة عام .. إلا أن جفّ الضَّرْعُ .. وتنكبوا طريق محمدٍ صلى الله عليه وسلم في العمل، والاجتهاد والجهاد .. فأذلَّهم الله .. وسلّط عليهم الأمم الكافرة .. وتحقق فيهم وعيد النبي صلى الله عليه وسلم: "يُوشِكُ الأممُ أن تداعَى عليكم كما تداعَى الأكَلةُ إلى قصعتِها. فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ؟ قال: بل أنتم

يومئذٍ كثيرٌ، ولكنَّكم غُثاءٌ كغُثاءُ السَّيلِ، ولينزِعنَّ اللهُ من صدورِ عدوِّكم المهابةَ منكم، وليقذِفَنَّ اللهُ في قلوبِكم الوهْنَ . فقال قائلٌ: يا رسولَ اللهِ ! وما الوهْنُ؟ قال: حُبُّ الدُّنيا وكراهيةُ الموتِ"[صحيح سنن أبي داود:4297].

وهم لا، ولن تقوم لهم قائمة عز وسؤدد ومجد .. إلا إذا عادوا من جديد إلى ما كان عليه الحبيب صلى الله عليه وسلم من العلم، والعمل، ومن الجهد، والاجتهاد، والجهاد .. فنحن قوم أعزنا الله بالإسلام، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، فإذا ما ابتغينا العزّة بغير ما أعزنا الله به، أذلَّنا الله.

* * * * *

الوقفة الرابعة والعشرون

"بعث الأمل فى أحلك الظروف وأشدها"

كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يسمح لليأس أن يتسلل إلى نفوس أصحابه .. لأن اليأس تعقبه الهزائم ولا بد .. وهو إن تمكن من صاحبه يُقعده عن العمل ويُشل حركته .. ويجعل لعدوه عليه سبيلاً وسلطاناً .. وهذا لا يليق ولا يناسب الدعوة الوليد .. ولا العاملين من أجلها .. فكان صلى الله عليه وسلم في أحلك الظروف وأشدها .. وعندما تبلغ القلوب الحناجر من شدة الخوف .. تراه يشحذ الهمم، ويبعث في نفوس أصحابه الأمل، ويبشرهم بالفتح، والنصر، والظفر .. والتمكين .. وأنهم سيفتحون بلاد فارس، والروم، واليمن .. وأنها ستخضع لنفوذهم وسلطانهم .. ويملكون مفاتيحها وكنوزها .. وليس بينهم وبين هذا الخير كله إلا الصبر، وعدم الاستعجال.

لَّما أمرَ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم بحَفرِ الخندقِ، لمواجهة خطر الأحزاب .. وردهم عن المدينة .. وفي هذه الموقعة قد بلغ الخوف مبلغه من النفوس .. وقد بلغت القلوب الحناجر .. عَرضَت لهُم صخرةٌ حالَت بينَهُم وبينَ الحفرِ، فَقامَ رسولُ اللهِّ وأخذَ المعولَ، ووضعَ رداءَهُ ناحيةَ الخندَقِ، وقالَ: تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، فَندرَ ثلثُ الحجرِ، وسَلمانُ الفارسيُّ قائمٌ

ينظرُ، فبرَقَ معَ ضربةِ رسولِ اللهَّ برقةٌ، ثمَّ ضربَ الثَّانيةَ، وقالَ: تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فندرَ الثُّلثُ الآخرُ، فبرقت برقةٌ فرآها سَلمانُ، ثمَّ ضربَ الثَّالثةَ، وقالَ: تَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا، لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، فنذر الثُّلثُ الباقي، وخرجَ رسولُ اللهَّ، فأخذَ رداءَهُ وجلَسَ، قالَ سلمانُ: يا رسولَ اللهَّ، رأيتُكَ حينَ ضربتَ، ما تضربُ ضربةً إلَّا كانت معَها بَرقةٌ، قالَ لَهُ رسولُ اللهَّ: يا سَلمانُ، رأيتَ ذلِكَ فقالَ: أي والَّذي بعثَكَ بالحقِّ يا رسولَ اللهَّ، قالَ: فإنِّي حينَ ضَربتُ الضَّربةَ الأولى رُفِعَت لي مدائنُ كِسرى وما حولَها ومدائنُ كثيرةٌ، حتَّى رأيتُها بعينيَّ. قالَ لَهُ مَن حضرة من أصحابِهِ: يا رسولَ اللهَّ، ادعُ اللهَّ أن يفتحَها علَينا ويغنِّمَنا ديارَهُم ، ويخرِّبَ بأيدينا بلادَهُم، فدعا رسولُ اللهَّ بذلك، ثمَّ ضَربتُ الضَّربةَ الثَّانيةَ، فرُفِعت لي مدائنُ قيصرَ وما حولَها، حتَّى رأيتُها بعينيَّ، قالوا: يا رسولَ اللهَّ، ادعُ اللهَّ أن يفتحَها علَينا ويغنِّمَنا ديارَهُم، ويخرِّبَ بأَيدينا بلادَهُم، فدعا رسولُ اللهَّ بذلِكَ، ثمَّ ضرَبتُ الثَّالثةَ، فرُفِعَت لي مدائنُ الحبشةِ وما حولَها منَ القُرى، حتَّى رأيتُها بعينيَّ، قالَ رسولُ اللهَّ : عندَ ذلِكَ دَعوا الحبشةَ ما ودَعوكُم ، واترُكوا التُّركَ ما ترَكوكُم"[صحيح سنن النسائي:3176].

وفي رواية: "لَّما أمرَنا رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ أن يُحفَر الخندقَ عرضَ لنا حجَرٌ لا تأخُذُ فيهِ المعاولُ، فاشتكينا ذلِكَ إلى رسولِ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ: فجاءَ رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ فألقى ثوبَهُ وأخذَ المعولَ، وقالَ بسمِ اللهَّ فضربَ ضربةً فَكسرَ ثلُثَ الصخرة، ثم قال اللهُّ أَكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ الشَّامِ، واللهَّ إنِّي لأبصِرُ إلى قصورِها الحمراءِ الآنَ من مكاني هذا، قال ثمَّ ضربَ أخرى وقال بسمِ اللهَّ وكسر ثُلثاً آخرَ وقالَ اللهُّ أَكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ فارسَ واللهَّ إنِّي لأبصرُ قصرَ المدائنِ الأبيضَ، ثمَّ ضربَ الثَّالثةَ وقالَ بسمِ اللهَّ فقطعَ الحجرِ وقالَ اللهُّ أَكبرُ أعطيتُ مفاتيحَ اليمنِ واللهَّ إنِّي لأبصر باب صنعاءَ". وفي رواية: "واللهِ إني لَأُبْصِرُ أبوابَ صنعاءَ من مكاني هذا الساعةَ"[12].

ومن حديث عائشة رضي الله عنها، قالت: ﴿إِذْ جَاؤُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتْ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللهَّ الظُّنُونَا﴾الأحزاب:10. كان ذلك يوم الخندق. البخاري.

وعن عدي بن حاتم الطائي، قال: بينا أنا عِندَ النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم إذ أتاه رجلٌ فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا قطع

[12] قال ابن حجر في الفتح 7/458: إسناده حسن.

السبيل، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا عدي، هل رأيت الحيرة ؟". قُلْت: لم أرها، وقد أنبئت عليها، قال: "فإن طالت بك الحياة، لترين الظعينة ــ وهي المرأة التي ترتحل على الهودج ــ ترتحل من الحيرة، حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله". قُلْت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعّار طيء الذين قد سعروا في البلاد؟! قال:"ولئن طالت بك حياة لتفتحن كنوز كسرى". قُلْت: كسرى بن هرمز؟! قال: "كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك حياة، لترين الرجلُ يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة، يطلب من يقبله فلا يجد أحدًا يقبله منه".

قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنتُ فيمن افتتح كنوز كسرى بن هرمز، ولئن طالت بكم الحياة، لترون ما قال أبو القاسم صلَّى اللهُ عليه وسلَّم. البخاري.

وعن خباب بن الأرت، قال: شكونا إلى رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وهو مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً لهُ في ظلِّ الكعبةِ، قلنا لهُ: ألا تستنصرُ لنا، ألا تدعو اللهَ لنا؟

قال صلى الله عليه وسلم: "كان الرجلُ فيمن قبلكم يُحْفَرُ لهُ في الأرضِ، فيُجْعَلُ فيهِا، فيُجاءُ بالمنشارِ فيُوضَعُ على رأسِهِ فيُشَقُّ باثنتيْنِ ــ وفي رواية: فيُجعل نصفين ــ وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ،

ويُمْشَطُ بأمشاطِ الحديدِ ما دونَ لحمِهِ من عظمٍ أو عصبٍ، وما يصدُّهُ ذلك عن دِينِهِ، واللهِ ليُتِمَّنَّ هذا الأمرُ، حتى يسيرَ الراكبُ من صنعاءَ إلى حضرموتٍ، لا يخافُ إلا اللهَ، أو الذئبَ على غنمِهِ، ولكنكم تستعجلونَ"الخاري.

ولما هاجرَ النبي صلى الله عليه وسلم، ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه .. لحق بهما سراقة بن مالك .. قال أبو بكر ــ وكان يكثر الالتفات، والنبي صلى الله عليه وسلم لا يلتفت إلى سراقة ــ: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أُتِينا، فقال: لا تحزن؛ إن الله معنا، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فارتطمت فرسه إلى بطنها ــ وفي رواية: فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فساخت يدا فرسه في الأرض، حتى بلغت الركبتين ــ فقال سراقة: فناديتهم بالأمان، فوقفوا، وقلت: إني قد علمتُ أنكما قد دعوتما عليَّ، فادعوا لي، فاللهَ لكما أن أردَّ عنكما الطلبَ، فدعا اللهَ، فنجى .. فركبت فرسي حتى جئتهم، ووقع في نفسي حين لقيت ما لقيت من الحبس عنهم أن الله سيظهر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الدية، وأخبرتهم أخباراً ما يريد الناس بهم ... فقال صلى

الله عليه وسلم:"يا سراقة كيف بك إذا لبست سواري كسرى ...؟!"[13].

في هذا الوقت العصيب، وهذه الظروف الصعبة؛ الأجواء أجواء طلب ومطاردة .. وأبو بكر الصديق رضي الله عنه يخشى أن يدركهم الطلب .. يبشر النبي صلى الله عليه وسلم سراقة بأنه سيلبس سواري كسرى .. وهذا من لوازمه أن كنوز كسرى ستقع غنيمة في أيدي المسلمين .. فكان كما وعد النبي صلى الله عليه وسلم، وأخبر!

بل إن من البشريات التي بثها النبي صلى الله عليه وسلم لأمته ــ وهم في مرحلة الاستضعاف ــ ما هو أوسع من بلاد فارس، والروم، وما هو أكثر من كنوز كسرى وقيصر .. فقال صلى الله عليه وسلم: "إنَّ اللهَ زوى لي الأرضَ ــ أي جمع وضمَّ ــ فرأيتُ مشارقَها ومغاربَها، وإنَّ أُمتي سيبلغُ ملكُها ما زُوِيَ لي مِنها، وأُعطيتُ الكنزينِ الأحمرَ والأبيضَ"مسلم. والكنزان هما الذهب، والفضة.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ليبلغنَّ هذا الأمر ــ أي هذا الدين ــ ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر ــ أي بيت حضر أو بادية ــ إلا أدخله الله هذا الدين، بعزّ عزيز، أو بذل

[13] القصة أصلها في الصحيحين، وقد رواها البيهقي وغيره.

ذليل، عِزّاً يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل به الكفر"[السلسلة الصحيحة:3]. وإنه لكائن بإذن الله.

ولقادة المسلمين في هذا الزمان أسوة حسنة في نبيهم وقائدهم الأكبر صلى الله عليه وسلم .. إذ عليهم ــ مهما اشتدت المخاطر، وخيم الخوف على النفوس ــ أن يحرصوا دائماً على رفع معنويات الجند .. فيبعثون في نفوسهم الأمل أبداً .. ويسدّون عليهم سبل ومنافذ اليأس أبداً .. ويحسنون الظن بوعد الله تعالى ونصره للمؤمنين، ويعلمون أن نصر الله آتٍ، آت، ولو بعد حينٍ بإذن الله .. كما قال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاء وَلاَ يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾يوسف:110.

* * * * *

الوقفة الخامسة والعشرون

"خيار الباطل مع الحق وأهله"

عبر التاريخ كله نجد أن الباطل يضيق ذرعاً بالحق وأهله، فيخيرهم ــ عندما تكون الشوكة والغلبة له ــ بين أن يدخلوا في ملته، ويكونون من جنده وأتباعه، وأعوانه .. وأن يتعايشوا معه على باطله، وما هو عليه من باطل .. وإما الطرد، والمطاردة، والإخراج من الديار .. إلى حيث لا تتراءى نارهما .. أو التعذيب والقتل، وأن يفتنوهم عن دينهم ولو بالإكراه .. كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ كل الذين كفروا على مر عصورهم .. ﴿لِرُسُلِهِمْ﴾؛ كل الرسل ــ وأتباع الرسل ــ من دون استثناء .. ﴿لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ﴾إبراهيم:13.

وقال تعالى: ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُواْ مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ﴾الأعراف:88.

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾النمل:56.

وقال تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا اللهَ فَأْوُوا إِلَى الْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحمته ويُهَيِّئْ لَكُم

مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقاً﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذاً أَبَداً﴾الكهف:20.

وهذا الذي حصل مع الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم، ومع أتباعه المؤمنين .. كان النبي صلى الله عليه وسلم يختلي في غار حراء يتعبّد .. ففجئه الحق بالوحي .. وأنزل عليه اقرأ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾العلق:1-5. فرجع بها رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يرجُف فؤادُه، فدخل على خديجةَ بنتِ خُويلِدٍ رضي الله عنها فقال: "زمِّلوني زمِّلوني". فزمَّلوه حتى ذهب عنه الروعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: "لقد خشيتُ على نفسي". فقالت خديجةُ: كلا، أَبْشِرْ، فواللهِ لا يُخْزيك اللهُ أبداً؛ إنك لتصلُ الرحِمَ، وتحملُ الكلَّ، وتكسبُ المعدومَ، وتُقري الضيفَ، وتعينُ على نوائب الحقِّ[14]. فانطلقت به

[14] فاستدلت أمّنا خديجة رضي الله عنها بحسن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، على صدق نبوته، وأنه حقاً وصدقاً رسول الله .. وأن الله تعالى لن يخذله، ولن يتخلى عنه .. وهذا من تمام فقهها وعلمها.

وقولها"وتحملُ الكلَّ"؛ أي وتعين الضعيف على حاجته. وقولها"وتكسبُ المعدومَ"؛ أي وتنفق وتتصدق على ذوي الحاجة والفاقة. وقولها"وتُقري الضيفَ"؛ أي وتكرم الضيف. وقولها"وتعينُ على نوائب الحقِّ"؛ وهو ما

خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بنِ نوفلِ، ابنِ عمِّ خديجةَ، وكان امرءاً تنصَّر في الجاهليةِ، وكان يكتب الكتابَ العبرانيَّ، فيكتب من الإنجيلِ بالعبرانيةِ ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجةُ: يا بنَ عمِ!، اسمعْ من ابنِ أخيك. فقال له ورقةُ: يا بن أخي ماذا ترى؟ فأخبرهُ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ خبرَ ما رأى، فقال له ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزل على موسى، يا ليتني فيها جذَعٌ ــ أي شابّ قوي ــ ليتني أكون حيًّا إذ يخرجك قومُك، فقال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ : "أوَمُخرِجِيَّ هم؟!". قال : نعم؛ لم يأتِ رجل قطُّ بمثل ما جئتَ به إلا عودي، وإن يدركني يومُك أنصرْك نصراً مؤَزَّراً. متفق عليه.

فكان كما أخبر ورقة بن نوفل رحمه الله .. فضاق مشركو قريش ذرعاً بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وبدعوته، وبمن معه من المؤمنين .. فهم ليسوا نشاذاً عمن سبقوهم من المشركين الظالمين .. فلم يدعوا مَكراً، إلا وسلكوه .. ولا أذى إلا وقد فعلوه .. إلى أن بلغ بهم المكر والكيد مبلغاً أن همّوا أن يحبسوه ويعتقلوه، أو يقتلوه، أو يخرجوه من مكة .. كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾الأنفال:30.

تقدم ذكره من شمائل وأخلاق، ومحامد، وما لم يُذكر، فهي كلمة جامعة لكل نجدة ومروءة وخلق حسن.

فاجتمعوا وتشاوروا فيما بينهم، فقال بعضهم: إذا أصبح اعتقلوه وأثبتوه بالوثاق .. وقال: البعض الآخر: بل اقتلوه. وقال البعض الآخر: بل أخرجوه.

قال طاغية الأمة أبو جهل: والله لأشيرن عليكم برأي ما أراكم تصرمونه بعد، ما أرى غيره! قالوا: وما هو؟ قال: نأخذ من كل قبيلة غلاماً شابّاً وسيطاً نهداً، ثم يُعطى كل غلام منهم سيفاً صارماً، ثم يضربونه ضربة رجل واحد، فإذا قتلوه تفرق دمه في القبائل كلها، فلا أظن هذا الحي من بني هاشم يقوون على حرب قريش كلها، فإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ــ أي الديّة ــ واسترحنا وقطعنا عنا أذاه.

قال ابن عباس: إنَّ الملأَ من قريشٍ اجتمَعوا في الحِجرِ، فتعاقَدوا باللَّاتِ والعُزَّى ومناةَ الثالثةَ الأُخرى ونائلةَ وإسافَ لو قد رأينا محمداً لقد قُمْنا إليه قيامَ رجلٍ واحدٍ فلم نُفارقْه حتى نقتلَه. فأقبلَتِ ابنتُه فاطمةُ رضِي اللهُ عنهَا تبكي حتى دخلتْ على رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالت هؤلاءِ الملأُ من قريشٍ قد تعاقدوا عليك؛ لو قد رأوك لقد قامُوا إليك فقتلوك، فليس منهم رجلٌ إلا قد عرَف نصيبَه من دمِكَ! فقال: "يا بُنيَّة أَريني وَضوءاً"، فتوضَّأَ ثم دخل عليهم المسجدَ فلما رأَوهُ قالوا ها هو ذا وخفَضوا أبصارَهم وسقطتْ أذقانُهم في صدورِهم، وعقَروا في مجالسِهم ــ أي ثبتوا في مجالسهم فلم يتحركوا ــ فلم يرفعُوا إليه بصراً،

ولم يقمْ إليه منهم رجلٌ، فأقبل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حتى قام على رؤوسهم فأخذ قبضةً من التُّرابِ، فقال: "شاهتِ الوُجوهُ ثم حصَبهم بها فما أصاب رجلًا منهم من ذلك الحصى حصاةٌ إلا قُتِلَ يومَ بدرٍ كافراً[15].

وللخروج من هذا المكر والكيد، فقد أمرَ اللهُ رسولَه بالهجرة إلى المدينة المنورة .. وكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يحب مكة كثيراً، وكيف لا، وهي موطنه، وهي أحب بلاد الله إلى الله .. لكن سلامة الدعوة، وسلامة العقيدة والدين .. وسلامة العبادة .. وسلامة المؤمنين .. كل ذلك كان يقتضي من النبي صلى الله عليه وسلم ومن آمن معه أن يُهاجروا .. وأن يُؤثروا سلامة العقيدة والدين .. سلامة العبادة .. على حب الديار والأوطان والأنس بها، كما قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾العنكبوت:56. فالله تعالى قد وسَّع الأرض ..

---

[15] قال ابن كثير في التفسير: لا أعرف له علة، قال الحاكم في المستدرك: صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه. قال الشيخ ناصر في السلسلة الصحيحة 781/6: إسناده جيد.

قلت: هذه الحادثة غير الحادثة التي طلب فيها النبي صلى الله عليه وسلم من علي رضي الله عنه أن ينام في فراشه، لكن توحي بأنها قريبة منها.

وقوله "يا بُنيَّة أَريني وَضوءاً"؛ فيه أن الوضوء سلاحٌ فعّال، قَلَّ من يستعمله، ويتنبه له في مواجهة الخطوب!

حتى إذا ضاقت في موضع .. اتّسعت في موضع آخر .. لماذا؟ لتحقيق الغاية من الوجود .. وحتى لا تتعطّل الغاية من الوجود، ألا وهي: ﴿فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾.

قال ابن عباس: قالَ رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ لمكَّةَ: "ما أطيبَكِ من بلَدٍ وأحبَّكِ إليَّ، ولولا أنَّ قومِي أخرجوني منكِ ما سكنتُ غيرَكِ"[صحيح الجامع:5536].

وعنه، قال: لما خرجَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من مكةَ قال: أمَا واللهِ إني لأَخرجُ منكِ وإني لأعلمُ أنك أحبّ بلادِ اللهِ إلى اللهِ، وأكرمهُ على اللهِ؛ ولولا أهلكِ أخرجُوني منك ما خَرجتُ"[16].

وعن عبد الله بن عدي بن الحمراء، قال: رأيتُ رَسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ، وَهوَ على ناقتِهِ، واقفٌ بالحَزوَرَةِ يقولُ: "واللهَّ إنَّكِ، لخيرُ أرضِ اللهَّ، وأحبُّ أرضِ اللهَّ إليَّ، واللهَّ لولا أنِّي أُخرِجتُ منكِ، ما خَرجتُ"[صحيح ابن ماجه:2540].

ومما تقدم يتبين كذلك أن حبَّ الأوطان لا يتعارض مع الإيمان .. وإنما الذي يتعارض أن تُقَدّم الأوطان ــ أو غيرها ــ على العقيدة .. وعلى سلامة العبادة والدين.

* * * * *

[16] قال ابن عبد البر في التمهيد 6/33: من أصح الآثار.

الوقفة السادسة والعشرون

"الهجرة، والتوكل، والأخذ بالأسباب"

أبرز ما اتسمت به هجرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة التوكل على الله، ثم الأخذ بالأسباب المكنة .. وأفضل وأقوى وأظهر درس يُستخرَج ويُستفاد من هجرة الحبيب صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة درس التوكل على الله، والأخذ بالأسباب المكنة .. ولو أردنا أن نضع عنواناً لهجرة الحبيب صلى الله عليه وسلم لما وجدنا أدق من عنوان: "التوكل على الله، والأخذ بالأسباب المكنة".

التوكل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب المكنة .. هو جمع بين الإيمان، والعقل .. إذ كل منهما يصدق الآخر .. ويقوم بالآخر .. ويُعين الآخر على مبتغاه .. ولا يُعارض بين التوكل والأخذ بالأسباب إلا كل أخرق سفيه!

التوكل على الله تعالى، والأخذ بالأسباب المكنة هما معاً سبب كل عمل ناجح .. كان هذا العمل على مستوى الفرد، أو مستوى الجماعة، أو مستوى الدولة والأمة .. وهو ما أراد الحبيب صلى الله عليه وسلم أن يوصله لأمته.

أما التوكل على الله تعالى، يظهر في قوله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر الصديق رضي الله عنه لما التجآ إلى الغار .. قال أبو بكرٍ الصديق رضي الله عنه: كنتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ في الغارِ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بأقدامِ القومِ ــ أي يرى أقدام القوم عند باب الغار ــ فقلتُ: يا نبي اللهِ، لو أنَّ بعضَهم طأطأَ بصرَه رآنا، قال صلى الله عليه وسلم: "اسكتْ يا أبا بكرٍ، اثنان اللهُ ثالثُهما"البخاري. وفي رواية: "ما ظنُّك باثنَينِ اللهُ ثالثُهما". الله أكبر .. إنه يقين الأنبياء!

قال تعالى: ﴿إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَّ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُواْ السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِّ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾التوبة:40.

وقد تقدمت قصة سراقة بن مالك، وقول أبي بكر الصديق رضي الله عنه: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم، أُتِينا، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا تحزن؛ إن الله معنا .."

﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهَّ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللهَّ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللهُّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْراً﴾الطلاق:3.

أما الأخذ بالأسباب، يظهر في طلب النبي صلى الله عليه وسلم من الفدائي البطل علي بن أبي طالب رضي الله عنه أن ينام مكانه على

فراشه، وقد ألبسه بردته .. ليتوهم المشركون أن النائم على الفراش هو رسول الله صلى الله عليه وسلم .. لا غير!

فظل علي رضي الله عنه في فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم .. وقد تعمد التأخير في النهوض عن الفراش .. ليؤخر المشركين عن طلب وملاحقة النبي صلى الله عليه وسلم .. فجعلوا يتطلعون فيرون علياً على الفراش متسجيّاً ببرد رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً، عليه بُردَه، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا، فقام علي رضي الله عنه عن الفراش .. وأيقنوا أن الذي على الفراش ليس رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فسألوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: لا أدري.

وكذلك لما قصد صلى الله عليه وسلم دار أبي بكر الصديق رضي الله عنه ليصطحبه معه في الهجرة .. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: فبينما نحن يوماً جلوسٌ في بيتِ أبي بكرٍ في نَحْرِ الظهيرةِ، قال قائلٌ لأبي بكرٍ: هذا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم مُتَقَنِّعاً، في ساعةٍ لم يكنْ يأتينا فيها، فقال أبو بكرٍ: فِداءٌ له أبي وأمي، واللهِ ما جاء به في هذه الساعةِ إلا أمرٌ . قالت: فجاء رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم فاستأذن، فأَذِنَ له فدخل، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم لأبي بكرٍ: "أَخْرِجْ مَن عندَك". فقال أبو بكرٍ: إنما هم أهلُك، بأبي أنت يا رسولَ

الله، قال: "فإني قد أُذِنَ لي في الخروجِ". فقال أبو بكرٍ : الصحابةُ بأبي أنت يا رسولَ الله ؟ قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم : نعم. قال أبو بكرٍ: فَخُذْ - بأبي أنت يا رسولَ الله - إحدى راحِلَتَيَّ هاتين، قال رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "بالثَّمَنِ". قالت عائشةُ: فجَهَّزْناهما أَحَثَّ ــ أكمل ــ الجِهازِ، وصَنَعْنا لهما سُفْرَةً في جِرابٍ، فقطعتْ أسماءُ بنتُ أبي بكرٍ قِطعةً من نِطاقِها، فربَطَتْ به على فَمِ الجِرابِ، فبذلك سُمِّيَتْ ذاتُ النِّطاقَيْنِ، قالت ثم لَحِقَ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأبو بكرٍ بغارٍ في جَبَلِ ثَوْرٍ، فكَمَنا فيه ثلاثَ ليالٍ، يبيتُ عندَهما عبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ، وهو غلامٌ شابٌّ، ثَقِفٌ لَقِنٌ، فيُدْلِجُ مِن عندِهما بسَحَرٍ، فيُصبِحُ مع قريشٍ بمكةَ كبائتٍ، فلا يسمعُ أمراً يُكتادانِ به إلا وَعاهُ، حتى يأتيَهما بخَبَرِ ذلك حين يختَلِطُ الظلامُ، ويَرْعَى عليهما عامِرُ بنُ فُهَيْرَةَ مولى أبي بكرٍ مِنحَةً ــ شاة ــ من غَنَمٍ، فيُرِيحُها ــ أي يردها ــ عليهما حين تذهبُ ساعةٌ من العِشاءِ، فيَبِيتانِ في رِسْلٍ ــ لبن طري ــ وهو لبنُ مِنحتِهما ورَضِيفِهما ــ وهي الحجارة المحماة بالشمس أو النار توضع في اللبن لتخثره وتجمده ــ، حتى يَنعِقَ بها عامرُ بنُ فهيرةَ بغَلَسٍ، يفعلُ ذلك في كلِّ ليلةٍ من تلك الليالي الثلاثِ، واستأجر رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم وأبو بكرٍ رجلًا من بني الدَّيْلِ، وهو من بني عبدِ بنِ عَدِيٍّ، هادياً خِرِّيتًا، والخِرِّيتُ الماهرُ بالهدايةِ، قد غَمَس

حِلْفاً في آلِ العاصِ بنِ وائلٍ السَّهْمِيِّ، وهو على دينِ كفارِ قريشٍ، فأمِنَّاهُ فدفعا إليه راحِلَتيهما، وواعداه غارَ ثَوْرٍ بعد ثلاثِ ليالٍ، فأتاهما براحلتيهما صُبحَ ثلاثٍ، وانطلق معهما عامرُ بنُ فهيرةَ، والدليلُ .."البخاري.

تأمل هذا الحديث جيداً .. وكل عبارة من عباراته .. فستجد أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يفوّت سبباً ممكناً ــ من الأسباب الدنيوية ــ يضمن من خلاله سلامته ومن معه .. وسلامة رحلته .. إلا وقد أخذ به .. كان بمقدوره أنه يتفادى عناء هذه الأسباب كلها .. وأن يدعو ربه أن يسري به إلى المدينة من دونها .. لكن يأبي، ويأبى الله عليه إلا أن يأخذ بجميع الأسباب الممكنة .. ليعلّم أمته أن الأخذ بالأسباب ضروري، وهو لا يتنافى مع التوكل والإيمان .. وأن التوكل من غير أخذ بالأسباب .. تواكل .. وهو من خوارم العقل والإيمان.

ونحو ذلك لما انطلق في هجرته صلى الله عليه وسلم .. لم يأخذ الطريق المؤدي إلى المدينة مباشرة .. لعلمه أن الطلَب من قريش سيقصدون هذا الطريق .. فسلك الطريق المقابل والمعاكس لجهة المدينة .. وانطلق معهما عامرُ بنُ فهيرةَ، والدليلُ، فأخذ بهم طريقَ السواحلِ .. ومكث في غار ثور ثلاث ليال .. حتى هدأ الطلب .. فعاد فسلك الطريق المؤدي إلى المدينة.

فأقبل نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إلى المدينةِ وهو مردفٌ أبا بكرٍ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعرَف، ونبيُّ الله شابٌّ لا يُعرَف، قال: فيلقى الرجلُ أبا بكرٍ فيقول: يا أبا بكرٍ، من هذا الرجل الذي بين يدَيك، فيقول: هذا الرجلُ يهديني السبيلَ. قال: فيحسب الحاسبُ أنه إنما يعني الطريقَ، وإنما يعني سبيلَ الخيرِ. البخاري.

وهذا من فطنة وذكاء أبي بكر الصديق رضي الله عنه .. فلم يُصرّح باسم الحبيب صلى الله عليه وسلم .. كما لم يعرّف به أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم .. ليخذّل عنه الطلب .. ويُعمي عنه الأعين .. وحتى تصل قافلة الهجرة إلى المدينة بأمان .. سالمة غانمة بإذن ربها.

يفعل ذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبإقرار منه .. بينما في زماننا وللأسف .. ترى منّا من يتمسّك بمسميات محدثة بات ضررها يغلب نفعها .. يتعصب لها .. ويعلن عنها .. ويوالي ويعادي فيها .. مع علمه أنها ستزَعّر وتخذل جميع دول العالَم على المسلمين وبلدانهم .. على ما هم فيه من استضعاف!

فهلا هؤلاء اطلعوا على سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم .. فاهتدوا .. وهَدوا بها؟!

* * * * *

الوقفة السابعة والعشرون

"بناء المسجد النبوي، ودور المساجد في الإسلام"

أول عمل قام به الحبيب صلى الله عليه وسلم بعد وصوله إلى المدينة المنورة، ثلاثة أشياء:

أولاً: بناء المسجد النبوي الشريف .. لأهميته، وأهمية المهام المنوطة به؛ فكان المسجد مقر العبادة .. والعلم .. والتربية .. وعقد مجالس الشورى والحكم .. والقضاء .. وبعث البعوث، والجيوش .. واستقبال الوفود .. حتى بعض الأنشطة الاجتماعية كالاحتفال بالأعراس، والأعياد كانت تمارس أحياناً في المسجد .. وكان المبتلى المصاب يُعرَف بسبب غيابه عن المسجد .. فيزوره المسلمون، ويتفقدون أحواله .. إذ كان المسجد بمثابة المؤسسة الأهم في المجتمع النبوي التي جمعت بين مهام وشؤون الدين والدنيا .. شؤون الدين والحكم والسياسة .. فكان مشعلاً ينبعث منه النور والخير للعالَم، كل العالَم .. لذا كان لا بد من أن تُعطى الأولوية لبنائه أولاً.

وقد شارك النبي صلى الله عليه وسلم بنفسه في بناء المسجد .. فكان يحمل مع أصحابه الحجارة .. ويرتجز معهم، وهم يحملون اللبن:

اللهم إن الأجر أجر الآخرة ... فارحم الأنصار والمهاجرة

اللهم إنه لا خير إلا خير الآخرة ... فاغفر للأنصار والمهاجرة

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى 35/ 39: كانت مواضع الأئمة ومجامع الأمة هي المساجد؛ فإن النبي صلى الله عليه وسلم أسس مسجده المبارك على التقوى: ففيه الصلاة، والقراءة والذكر، وتعليم العلم، والخطب، وفيه السياسة، وعقد الألوية والرايات، وتأمير الأمراء، وتعريف العرفاء، وفيه يجتمع المسلمون عنده لما أهمهم من أمر دينهم ودنياهم.

وكذلك عماله في مثل مكة، والطائف، وبلاد اليمن، وغير ذلك من الأمصار، وكذلك عماله على البوادي؛ فإن لهم مجمعاً فيه يصلون وفيه يساسون .. وكان الخلفاء والأمراء يسكنون في بيوتهم كما يسكن سائر المسلمين في بيوتهم، لكن مجلس الإمام الجامع هو المسجد الجامع ا- هـ.

هكذا كانت المساجد، وهكذا ينبغي أن تكون .. ولما دارت الدائرة على المسلمين ــ بسبب من عند أنفسهم! ــ وسَطى العلمانيون المجرمون الحاقدون على مقاليد الحكم في كثير من بلاد المسلمين .. جردوا المساجد من مهامها ودورها العام والهام .. وفصلوها عن الحياة .. وشؤون الناس .. وجعلوها مقصورة على أداء الصلوات وحسب

.. حتى أنهم تدخلوا في أوقات فتحها وإغلاقها .. والقدر الذي يُسمَح فيه للمصلين المكوث فيها .. وراقبوا كل ما يدخل إليها ويخرج منها .. وعاقبوا وجرَّموا كل من يمارس فيها نشاطاً أو عملاً غير الصلاة!

وقالوا بلسان الحال ــ وأحياناً بلسان المقال ــ: الله ليس له من شؤون الحكم والحياة شيء .. حتى المساجد ليس له منها إلا الصلوات والدعوات .. وما سوى ذلك ــ من شؤون الحكم والحياة ــ فهو لقيصر الحاكم .. للطاغوت .. حتى الصلوات والدعوات في المساجد من حق قيصر الحاكم أن يتدخل بها لو شاء: ﴿فَقَالُواْ هَـذَا للهِّ بِزَعْمِهِمْ وَهَـذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللهِّ وَمَا كَانَ للهِّ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَآئِهِمْ سَاء مَا يَحْكُمُونَ﴾الأنعام: 136.

وهؤلاء يشملهم ويعنيهم قوله تعالى:﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللهِّ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُوْلَـئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلاَّ خَآئِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾البقرة: 114. وخرابها؛ يشمل خرابها المادي والمعنوي .. بل خرابها المعنوي أشد وزراً وجرماً من خرابها المادي.

والمسلمون إن أرادوا أن يعودوا إلى مجدهم الأول .. إلى عزهم الأول .. لا بد من أن يعودوا إلى مساجدهم، وأن يُعيدوا لمساجدهم اعتبارها ودورها الريادي الأول؛ في قيادة وسياسة المجتمعات.

فالمساجد كانت دوماً علامة على مدى عودة الناس إلى دينهم، والتزامهم بإسلامهم .. فإن كانت المساجد عامرة بروادها، تؤدي دورها الريادي الأول .. كان ذلك علامة على درجة أسلمة المجتمع وتدينه .. ودرجة التزام الناس بإسلامهم .. والعكس كذلك؛ إن هجرها أهلها .. وفقدت دورها الريادي الأول .. كان ذلك علامة على بعد الناس عن دينهم، وعلامة على فساد وظلم النظام الذي يسوسهم ويحكمهم!

قال صلى الله عليه وسلم: "سبعةٌ يظلُّهم اللهُ يومَ القيامةِ في ظلِّه يومَ لا ظلَّ إلا ظلُّه ــ منهم ــ: ورجلٌ قلبُه مُعَلَّقٌ في المساجدِ"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "من بنى مسجداً لله، بنى اللهُ له بيتاً في الجنة"مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم:"من كان في المسجد ينتظر الصلاة، فهو في صلاة ما لم يُحدِث"[صحيح الموارد:361].

وقال صلى الله عليه وسلم: "لقد هممتُ أن آمرَ رجلًا يُصلِّي بالنَّاسِ، ثم أُحرِّقُ على رجالٍ يتخلَّفونَ عنِ الجُمُعةِ، بيوتَهم"مسلم.

وغيرها كثير من النصوص الشرعية الدالة على دور وأهمية المساجد في الإسلام .. وفي وجدان وقلب كل مسلم.

ثانياً: مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار ... وهو ما سنتناول الحديث عنه في الوقفة التالية إن شاء الله.

* * * * *

الوقفة الثامنة والعشرون

"المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار"

ثانياً: مؤاخاته صلى الله عليه وسلم بين المهاجرين والأنصار: فآخى بين المهاجرين والأنصار، إلى درجة أن جعل أحدهما يرث أخاه دون ذوي الرحم .. إلى أن أنزل الله تعالى قوله:﴿وَأُوْلُواْ الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾الأنفال:75. فنسخ الميراث بينهما، وبقيت الأخوة، والرفادة، والنصيحة، والنصر.

عن ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما:﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾النساء:33. قال: وَرَثَةً. ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾. كان المُهاجِرون لما قَدِموا المدينةَ يَرِثُ المُهاجِرُ الأنصارِيَّ دون ذوي رحِمِه، للأُخُوَّةِ التي آخَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بينهم، فلما نَزَلَتْ: ﴿وَلِكُلٍّ جَعَلْنَا مَوَالِيَ﴾. نُسِخَتْ. ثم قال: ﴿وَالَّذِينَ عَاقَدَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾: من النصرِ والرِّفادَةِ والنصيحةِ، وقد ذهَب المِيراثُ، ويوصِي له. البخاري.

وعن أنس بن مالك، قال: قال المهاجرون: يا رسولَ اللهِ ذهب الأنصارُ بالأجرِ كلِّه؛ ما رأينا قوماً أحسنَ بذلاً لكثيرٍ، ولا أحسنَ مواساةٍ في قليلٍ منهم، و لقد كفونا المؤْنةَ. قال صلى الله عليه وسلم: "أليس تُثنون عليهم، و تَدْعون لهم؟". قالوا: بلى. قال: "فذاك بذاك"[صحيح الترغيب:977].

وعنه، قال: قدِمَ عبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، فآخَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بينَهُ وبينَ سعدِ بنِ الربيعِ الأنصاريِّ، وعندَ الأنصاريِّ أمرأتانِ، فَعَرَضَ عليهِ أنْ يُنَاصِفَهُ أهلَهُ ومالَهُ، فقال: باركَ اللهُ في أهلِكَ ومالِكَ، دُلّوني على السوقِ ..."البخاري.

أراد الحبيب صلى الله عليه وسلم من هذا التآخي بين المهاجرين والأنصار، جملة من الأمور العظيمة:

منها: مواساة المهاجرين، وأن يخفف عنهم وحشة الغربة، وفراق الوطن، والأهل، وبعض ما قد فقدوه في مكة.

ومنها: الاندماج الحقيقي بين المهاجرين والأنصار، وبصورة تُذهِب إحساس كل فريق منهما بأنه غريب، وشيء آخر يختلف عن الفريق الآخر .. فلا مجال للتباغض، والتحاسد، والتدابر فيما بينهما!

وهذا بخلاف ما يحصل في بعض الساحات الجهادية اليوم .. حيث نرى للمهاجرين تجمعاتهم وأجندتهم وبرامجهم الخاصة بهم، وللأنصار من أهل البلد تجمعاتهم وأجندتهم وبرامجهم الخاصة بهم .. فيبقى الشعور بالغربة والفرقة والريبة قائماً فيما بينهما ..!

بل حتى تجمعات المهاجرين ذاتها تراها متفرقة فيما بينها؛ متفرقة في مساكن وأماكن متعددة ومختلفة .. بحسب تفرق مواطنهم وبلدانهم، وجنسياتهم، ولغاتهم .. فترى كل جالية متقوقعة على ذاتها، دون الجالية الأخرى .. فيتحقق خلاف المقصود من هجرتهم!

عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف، قال: لمْ يكنْ أَصْحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتَحَزِّقِينَ ولا مُتَماوِتِينَ، وكَانُوا يَتَناشَدُونَ الشِّعْرَ في مَجَالِسِهِمْ، ويَذْكُرُونَ أَمْرَ جَاهِلِيَّتِهِمْ، فإذا أُرِيدَ أحدٌ مِنْهُمْ على شيءٍ من أَمْرِ اللهِ دَارَتْ حَمالِيقُ عَيْنَيْهِ كأَنَّهُ مَجْنُونٌ"[صحيح الأدب المفرد: 432].

وقوله"لمْ يكنْ أَصْحابُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مُتَحَزِّقِينَ"؛ أي متحزبين، ومتفرقين، في جماعات، جماعات.

ومنها: وحدة الصف الداخلي ــ تمتين الجبهة الداخلية ــ للدولة الناشئة، لمواجهة التحديات الخارجية.

ومنها: أن يقطع الطريق على المنافقين وأقاويلهم؛ بأن للمهاجرين مطمع في المدينة، وفي أموال الأنصار .. على طريق أخلاق الغزاة الوافدين المستعمرين، من ذوي الأطماع الخاصة .. لا .. فالأخوة التي تحققت فيما بين الطرفين ــ إلى درجة انصهار الجميع في الجميع، وأن يرث الأخ أخاه ــ فوق الشبهات .. وفوق أن يُثار بحقها مثل هذه الأراجيف!

ثالثاً: إنشاء دستور يبين الحقوق والواجبات لمواطني الدولة الناشئة في المدينة المنورة ... وهو ما سنتناول الحديث عنه في الوقفة التالية إن شاء الله.

* * * * *

الوقفة التاسعة والعشرون

"إنشاء دستور ينظم العلاقة بين طوائف المجتمع المدنى"

ثالثاً: إنشاء دستور يبين الحقوق والواجبات، وينظم العلاقة فيما بين سكان ومواطني الدولة الجديدة ــ على اختلاف مشاربهم وانتماءاتهم ــ يبين ما لهم، وما عليهم .. وبخاصة أن اليهود كانوا من سكان ومواطني المدينة المنورة .. فكان لا بد من ميثاق أو دستور ينظم العلاقة بهم، وطريقة التعامل معهم .. ويحدد السياسات الداخلية والخارجية التي يلتزم بها الجميع .. وهذا الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم في وثيقته لأهل المدينة .. منذ الأيام الأولى من وصوله إلى المدينة المنورة .. وهي تُعَد بمثابة دستور ــ عقد اجتماعي ــ في زماننا.

نص الوثيقة والدستور:

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتاب من محمد النبي (رسول الله) بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ومن اتبعهم فلحق بهم وجاهد معهم.

1 – إنهم أمة واحدة من دون الناس.

2 – المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

3- وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ــ أخذ الديات ودفعها ــ وكل طائفة تفدي عانيها ــ أسيرها ــ بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

4- وبنو الحارث "بن الخزرج" على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

5- وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

6- وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

7- وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

8- وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

9- وبنو النّبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

10- وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدي عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

11- وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً ــ أي مثقلاً بالدين وكثير العيال ــ بينهم أن يعطوه بالمعروف في فداء أو عقل.

12 – وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه.

13 – وأن المؤمنين المتقين أيديهم على كل من بغى منهم أو ابتغى دسيعة ظلم ــ أي ابتغى ظلماً ــ أو إثماً أو عدواناً أو فساداً بين المؤمنين، وأن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم.

14 – ولا يقتل مؤمن مؤمناً في كافر ولا ينصر كافراً على مؤمن.

15 – وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم، وأن المؤمنين بعضهم موالي بعض دون الناس.

16 – وأنه من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم.

17 – وأن سِلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن في قتال في سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم.

18 – وأن كل غازية غزت معنا يعقب بعضهم بعضاً.

19 – وأن المؤمنين يبئ ــ يمنع ويكف ــ بعضهم عن بعض بما نال دماءهم في سبيل الله.

20 – وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدي وأقومه.

21 – وأنه لا يجير مشرك مالاً لقريش ولا نفساً ولا يحول دونه على مؤمن.

22 – وأنه من اعتبط ــ أي قتل بغير موجب شرعي ــ مؤمناً قتلاً عن بينة فإنه قود به، إلا أن يرضى ولى المقتول (بالعقل)، وأن المؤمنين عليه كافة لا يحل لهم إلا قيام عليه.

23 – وأنه لا يحل لمؤمن أقر بما في هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً أو يؤويه، وأن من نصره أو آواه فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل.

24 – وأنه مهما اختلفتم فيه من شيء فإن مرده إلى الله وإلى محمد.

25 – وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

26 – وأن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم، وللمسلمين دينهم، مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم أو أثم فإنه لا يوتغ ــ يهلك ــ إلا نفسه وأهل بيته.

27 – وأن ليهود بني النجار مثل ما ليهود بني عوف.

28 – وأن ليهود بن الحارث مثل ما ليهود بني عوف.

29 – وأن ليهود بني ساعدة مثل ما ليهود بني عوف.

30 – وأن ليهود بني جشم مثل ما ليهود بني عوف.

31 – وأن ليهود بني الأوس مثل ليهود بني عوف.

32 – وأن ليهود بني ثعلبة مثل ما ليهود بني عوف، إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ إلا نفسه وأهل بيته.

33 – وأن جفنة بطن من ثعلبة كأنفسهم.

34- وأن لبني الشطبية مثل ما ليهود بني عوف، وأن البر دون الإثم.

35- وأن موالى ثعلبة كأنفسهم.

36- وأن بطانة يهود كأنفسهم.

37- وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد.

38- وأنه لا ينحجز على ثأر جرح، وأنه من فتك فبنفسه وأهل بيته إلا من ظلم، وأن الله على أبر هذا.

39- وأن على اليهود نفقتهم، وعلى المسلمين نفقتهم، وأن بينهم النصر على من حارب أهل هذه الصحيفة، وأن بينهم النصح والنصيحة والبر دون الإثم.

40- وأنه لا يأثم أمرؤ بحليفه، وأن النصر للمظلوم.

41- وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين.

42- وأن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة.

43- وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم.

44- وأن لا تجار حرمة إلا بإذن أهلها.

45- وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث، أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله وإلى محمد رسول الله، وأن الله على أتقى ما في هذه الصحيفة وأبره.

46- وأن لا تُجار قريش ولا من نصرها.

47- وأن بينهم النصر على من دهم يثرب.

48- وإذا دعوا إلى صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه، وأنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب في الدين.

49- على كل أناس حصتهم من جانبهم الذي قبلهم.

50- وأن يهود الأوس مواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة، وأن البر دون الإثم لا يكسب كاسب إلا على نفسه، وأن الله على أصدق ما في هذه الصحيفة وأبره.

51- وأنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم، وأنه من خرج آمن، ومن قعد آمن بالمدينة، إلا من ظلم وأثم، وأن الله جار لمن بر واتقى، ومحمد رسول الله.[17].

---

[17] قد تناولت مصادر عدة من كتب السيرة والتاريخ هذه الوثيقة، وقد ورد في الصحيحين، وكتب السنن بعض ما ورد فيها .. وقد أوردها "إبراهيم العلي"، في كتابه صحيح السيرة النبوية، ص 204، ورد على من زعم عدم صحة أو ثبوت الوثيقة .. فراجعه إن شئت.

ونحن هنا نكتفي بذكر الوثيقة لأهميتها في رسم معالم سياسة الدولة الوليد .. وأهميتها في توجيه المسلمين وترشيدهم نحو صياغة دستور أمثل لحياتهم السياسية والاجتماعية .. فالمقام مقام وقفات، وخواطر مع سيرة

بهذا العمل العظيم، وبعد أن بنى النبي صلى الله عليه وسلم مسجده الشريف، وآخى بين المهاجرين والأنصار .. يكون صلى الله عليه وسلم قد انتهى من ترتيب البيت الداخلي لدولته .. وتمتين وتماسك الجبهة الداخلية .. ليتفرغ بعد ذلك للتحديات والمهام الخارجية التي تواجه الدولة الوليد في المدينة المنورة.

وهذا لا بد منه لكل دولة يُراد لها أن تقوم، وأن تثبت وتنهض، وتدوم .. وأن تقوى على مواجهة التحديات الخارجية .. إذْ أول ما ينبغي الالتفات إليه ترتيب البيت الداخلي للدولة .. وتحقيق تماسك وحدة الصف الداخلي .. تمتين وتقوية الجبهة الداخلية .. بصورة تمنع العدو من أن يحقق أو يسجل أي اختراق للصف الداخلي، يؤثر سلباً على سلامة الدولة وأمنها، ورخائها، واستقلالها!

* * * * *

النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم .. لا يسمح للشروحات المطولة والمفصلة، فهذا له موضع آخر.

الوقفة الثلاثون

"النظر إلى المآلات، ومراعاة النتائج"

مما تتميز به مواقف الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم وسيرته العطرة مراعاة النتائج، والنظر إلى مآلات الأعمال، وما قد يترتب عليها من مصالح ومفاسد، فما رجحت مصلحته أمضاه، وما رجحت مفسدته أمسك عنه .. وإن كان الفعل في أصله جائزاً، أو واجباً.

فهذا رأس النفاق عبد الله بنَ أُبَيٍّ ابن سَلولٍ يقولُ: لا تُنفِقوا على مَن عِندَ رسولِ اللهِ حتى يَنفَضُّوا! وقال أيضًا: لئِنْ رجَعنا إلى المدينةِ ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، يعني هو ومن معه الأعز، والنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه الأذل .. وهذا كفر، يوجب على صاحبه الحد.

وفي رواية: "أن النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ركِب حِمارًا، حتى مرَّ في مجلسٍ فيه أخلاطٌ من المسلمينَ والمشرِكينَ عبدَةِ الأوثانِ واليهودِ، وفيهم عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنِ سَلولٍ، وفي المجلسِ عبدُ اللهِ بنُ رَواحةَ، فلما غشِيَتِ المجلِسَ عَجاجَةُ الدابةِ، خمَّر عبدُ اللهِ بنُ أبَيٍّ أنفَه بِردائِه، ثم قال: لا تُغَبِّروا علينا، فسلَّم عليهمُ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم وقَف، فنزَل فدعاهم إلى اللهِ، وقرَأ عليهمُ القرآنَ، فقال عبدُ اللهِ بنُ أُبَيٍّ ابنِ سَلولٍ: أيُّها المَرءُ، لا أحسنَ من هذا إن كان ما تقولُ حقًّا، فلا تُؤذِنا في مجالسِنا، وارجِعْ إلى رَحلِك، فمَن جاءَك منا فاقصُصْ عليه! قال ابنُ رَواحَةَ:

اغشِنا في مجالسِنا فإنا نحِبُّ ذلك، فاستَبَّ المسلمونَ والمشرِكونَ واليَهودُ، حتى هَمُّوا أن يتَواثَبوا، فلم يزَلِ النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يُخَفِّضُهم ..."البخاري.

فقال عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله، دَعْني أضرِبْ عنُقَ هذا المنافقِ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "دعه؛ لا يتحدَّثُ الناسُ أن محمدًا يقتُلُ أصحابَه" البخاري.

فرغم أنه منافق .. بل رأس في النفاق .. وقال قولاً يوجب الحد .. إلا أن النبيّ صلى الله عليه وسلم نظر إلى المآلات، فرأى أنه لو أذن بقتله .. سيُقال أن محمداً يقتل أصحابه .. وأنه قد بدأ حياته في المدينة بقتل من استقبلوه .. وقد تحمر له أنوف فتغضب له .. فتحصل مقتلة بين الصحابة .. وهذه نتيجة ضارة .. ومفسدة معتبرة .. وسمعة لا تليق بالنبي صلى الله عليه وسلم .. ولا بدعوته .. ولا بظروف الدولة الوليد .. لذا لم يأذن بقتله، وإنما أمر ببره وحسن صحبته!

كما في الحديث، عن عبد الله بن عبد اللهِ بنَ أُبَيِّ ابن سَلولٍ ــ وهو صحابي جليل ــ فقال يا رسولَ الله: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتابَ، إن شئتَ لأتيتُك برأسِه ــ يريد أباه! ــ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا؛ ولكن بَرَّ أباك وأحسنْ صُحبتَه"[السلسلة الصحيحة:3223].

كذلك موقفه صلى الله عليه وسلم من هدم الكعبة ومن ثم إعادة بنائها على أصول وقواعد إبراهيم عليه السلام، فقال لعائشة رضي الله عنها: "يا عائشةُ، لولا أنَّ قومَكِ حديثُ عهدٍ بجاهليةٍ لأَمَرْتُ بالبيتِ فهُدِمَ، فأدخلتُ فيهِ ما أُخْرِجَ منهُ، وألزقتُهُ بالأرضِ، وجعلتُ لهُ بابيْنِ باباً شرقيّاً وباباً غربيّاً، فبلغتُ بهِ أساسَ إبراهيمَ"البخاري.

وفي رواية عند مسلم:"يا عائشةُ! لولا أنَّ قومَكِ حديثو عهْدٍ بشرْكٍ، لهدَمْتُ الكَعْبَةَ، فألْزَقْتُها بالأرْضِ، وجعَلْتُ لها بابَيْنِ باباً شرْقِيًّا وباباً غربِيّاً، وزدتُّ فيها ستَّةَ أذرُعٍ منَ الحِجْرِ، فإنَّ قريشًا اقتصرتْها حيثُ بنتِ الكعبةَ".

وفي رواية عند ابن ماجه: "ولَولا أنَّ قومَك حديثُ عَهدٍ بِكفرٍ مخافةَ أن تَنفرَ قلوبُهم لنظرتُ هل أغيِّرُه فأدخلَ فيهِ ما انتقصَ منهُ، وجعلتُ بابَه بالأرضِ"[صحيح سنن ابن ماجه:2410].

فأبقى النبي صلى الله عليه وسلم بنيان الكعبة كما هو، وكما بنته قريش منقوصاً، وعلى ما فيه من الزيادات المحدَثة التي لم تكن على عهد إبراهيم عليه السلام .. مخافة أن تنفر قلوب الناس عن الإسلام، فلا يتحملون رؤية الكعبة وهي تهدم .. فيفتنون في دينهم .. وهم لا يزالون حديثي عهد بجاهلية!

فنظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مآلات الفعل، وما قد يترتب عليه من نتائج ومفاسد .. فلما رأى أن الناس قد يفتنون في دينهم، وهم لا يزالون حديثي عهد بجاهلية .. امتنع عن إعادة بنيان الكعبة على الأصول والأسس الصحيحة التي بنى عليها إبراهيم عليه السلام الكعبة .. على أهمية وجلالة إعادة بنيانها على الأصول والقواعد الصحيحة.

ونحو ذلك، نهيه صلى الله عليه وسلم عن قطع الأيدي في الغزو، فقال: "لا تُقطَع الأيدي في الغزو"[18].

وفي الأثر عن زيد بن ثابت، قال:"لا تُقام الحدود في دار الحرب". وذلك خشية أن يلحق المحدود بالمشركين وصفوفوهم .. غضباً أو هرباً من الحد .. فيفتتن في دينه .. وهذه مفسدة معتبرة وهي أكبر من مفسدة تعطيل الحد في دار الحرب.

قال ابن القيم في الإعلام 3/ 5: أن النبي صلى الله عليه وسلم:"نهى أن تقطع الأيدي في الغزو". رواه أبو داود. فهذا حد من حدود الله تعالى، وقد نهى عن إقامته في الغزو خشية أن يترتب عليه ما هو أبغض إلى الله من تعطيله أو تأخيره من لحوق صاحبه بالمشركين حمية وغضباً كما قاله عمر وأبو الدرداء وحذيفة وغيرهم، وقد نص أحمد

[18] قال الشيخ ناصر في تخريج المشكاة 3601: إسناده صحيح.

وإسحاق بن راهويه والأوزاعي وغيرهم من علماء الإسلام على أن الحدود لا تقام في أرض العدو ا- هـ.

وفي الأثر، عنِ ابنِ عباسٍ: أَنَّهُ سألَهُ سائِلٌ فقال: يا أبا العباسِ، هل للقاتِلِ من توبةٍ؟ فقال ابنُ عباسٍ ــ كالمتعجِّبِ من شأنِه ــ: ماذا تقولُ؟! فأعادَ عليه مَسألَتَهُ، فقال لهُ: ماذا تَقولُ؟! مرتيْنِ أو ثلاثاً! ثمَّ قال ابنُ عباسٍ: أنَّى لهُ التوبةُ؟! سمِعتُ نبيَّكمْ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يقولُ:"يأتِي المقتُولُ مُتعلِّقاً رأسُهُ بإحدَى يديْهِ، مُتلبِّباً قاتِلَهُ بيدِهِ الأُخرَى، تَشخَبُ أوْداجُهُ دماً، حتى يأتِيَ بهِ العرْشَ، فيَقولُ المقتولُ لِربِّ العالمينَ: هذا قَتَلَنِي، فيَقولُ اللهُ للقاتِلِ: تَعِسْتَ، ويُذْهبُ بهِ إلى النارِ"[السلسلة الصحيحة:2697].

رغم أن التوبة تجب ما قبلها .. وبابها مفتوح لأي مذنب، مهما كان ذنبه .. إلا أن ابن عباس رضي الله عنه رأى في عيني السائل رغبة في القتل .. فكأنه يسأل عن توبة القاتل؛ ليقتل، ثم يتوب .. فأراد ابن عباس منعه وزجره .. وقال له: لا؛ ليس للقاتل توبة!

ونحو ذلك، نهي الشارع عن إنكار المنكر إذا كان سيؤدي إلى منكرٍ أكبر منه .. فاعتبر في ذلك المآلات والنتائج التي تترتب عن إنكار المنكر.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا ينبغي للمؤمن ــ وفي رواية: ليس للمؤمن ــ أن يُذلَّ نفسَه"، قالوا: يا رسول الله، وكيف يُذل نفسه؟ قال: "يتعرّضُ من البلاء لما لا يُطيق"[السلسلة الصحيحة:613].

ونحو ذلك أدلة قاعدة "سد الذرائع"، وهي قاعدة شرعية صحيحة دلت عليها عشرات النصوص الشرعية .. وهي تقوم على مبدأ حظر أو منع المباح أو الجائز لما يترتب على فعله من نتائج محرمة .. فالقاعدة وأدلتها، وفقهها .. يقوم على اعتبار مآلات الأفعال، وما يترتب عليها من نتائج .. وبيان أن ليس كل ما هو مباح أو جائز، يلزم بالضرورة أن يكون فعله مباحاً أو جائزاً .. بغض النظر عن النتائج والمآلات!

خلاصة القول: فقه اعتبار مآلات الأفعال .. وما يترتب عليه من مفاسد أو مصالح .. وأثره على الأحكام .. وعلى المواقف .. فقه عظيم؛ عظيم القدر، والفائدة .. يُعرَف قدر العالِم به .. فيه يتمايز ويتفاضل العلماء والدعاة .. ما أحوجنا إليه في هذا الزمان .. ونحن نخوض معركة الحق ضد طغاة الظلم، والكفر، والإجرام .. معركة الوجود والمصير!

هذا الفقه العظيم لا يغفل عنه، ولا يزهد به .. إلا جاهل سفيه!

الوقفة الحادية والثلاثون

"السيرة والشورى"

كان صلى الله عليه وسلم في غزواته، والشؤون العامة، كثيراً ما يقول لأصحابه:"أشيروا علي"، يُشركهم في القرارات المصيرية، عملاً بقوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾الشورى:38. وقوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾عمران:159. وتدريباً وتعليماً لأمته من بعده أن يأخذوا بالشورى، كمبدأ من مبادئ الحكم، والإمارة، والسياسة الشرعية .. بل وكنظام حياة.

قال أبو هريرة رضي الله عنه:"ما رأيتُ أحداً قطُّ كان أكثرَ مشورةً لأصحابِهِ من رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم"[19].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما:"لو اجتمعتما في مشورة ما خالفتكما"[20].

---

[19] أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الدلائل 99/4، وقال: له شواهد.

[20] قال ابن حجر في الفتح 352/13: إسناده لا بأس به. وقال أحمد شاكر في العمدة 432/1: إسناده صحيح.

قلت: والمراد بالشورى هنا؛ فيما لا تنزيل فيه، أما الشرع المنزل، الحلال والحرام، لا مشورة فيه لأحد، إذ يجب على الجميع أن يتلقوه بالقبول والرضى، والاستسلام، وكان الصحابة لعلمهم بهذا الأصل، وتأدباً مع النبي

يفعل ذلك وهو النبي المسدد الذي لا ينطق عن الهوى صلوات ربي وسلامه عليه، كما قال تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾النجم:4. فتكون الشورى بحق من هم دون النبي صلى الله عليه وسلم أوكد وأولى.

صلى الله عليه وسلم، يسألون قبل أن يشيروا عليه بشيء: أوحي من السماء؛ فالتسليم لأمر الله .. أم هو الرأي والمشورة؟

فإن قيل: كيف نوفق بين قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى﴾النجم:4. وبين كون النبي صلى الله عليه وسلم يستشير أحياناً أصحابه، ويأخذ بما يشيرون عليه .. فكيف يستشيرهم، ولماذا يستشيرهم، وهو لا ينطق إلا وحياً يُوحى عليه؟

أقول: لا تعارض ولله الحمد، فكل ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكل ما يقره، فهو وحي يُوحى؛ وبيان ذلك أن ما ليس فيه وحي منزل؛ ثم استشار النبي صلى الله عليه وسلم فيه أصحابه .. فالقرار الذي يُتخذ بعد الشورى، يكون هو الموافق للوحي، والذي يباركه الوحي .. فإن كانت نتيجة الشورى خطأ، فالوحي لا يقر النبي صلى الله عليه وسلم على الخطأ؛ إذ مباشرة يتنزل عليه ويسدده، ويبين له وجه الخطأ وأين يكمن الصواب في آنٍ معاً .. وبهذا يكون كل ما يصدر عن النبي صلى الله عليه وسلم من عمل أو قول أو إقرار ـــ وما استشار فيه وما لم يستشر ـــ بوحي.

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه:"الإمارة مشورة"؛ أي إنما تقوم الإمارة وتثبت بالمشورة.

ولما طُعن رضي الله عنه، جعل الخلافة شورى بين ستة أنفار من كبار الصحابة ممن مات الحبيب صلى الله عليه وسلم، وهو عنهم راض: عثمانَ، وعليِّ بنِ أبي طَالِبٍ، وطلحةَ بنِ عُبَيْدِ الله، والزُّبَيرِ بنِ العَوَّامِ، وعَبْدِ الرحمنِ بنِ عَوْفٍ، وسَعْدِ بنِ أبي وقَّاصٍ، رِضْوَانُ اللهِ عليهم أجمعينَ. وجعلَ عبدَ اللهِ بنَ عمرَ مَعَهُمْ مُشِيراً، وليسَ مِنْهُمْ، وأَجَّلَهُمْ ثَلاثًا، وأمرَ صُهَيْبًا أنْ يصلِّيَ بِالناسِ، رَحْمَةُ اللهِ عليهِ ورِضْوَانُهُ.[صحيح الموارد:1836].

وقال رضي الله عنه:"فمن بايعَ رجلاً على غير مشورةٍ من المسلمين فلا يُتابَع هو ولا الذي بايعه؛ تَغِرَّة أن يُقتلا"متفق عليه. أي خشية وحذَر أن يُقتلا؛ لأنه عندما غرّر بنفسه، وبصاحبه الذي بايعه على غير مشورة من المسلمين، فقد عرّض نفسه وصاحبه للقتل.

وذلك أن الشورى تتحقق بها معان عدة: يتحقق بها الرشد والصواب، والقوة، والوحدة، والاستقرار السياسي، ومشاركة الجميع في القرارات الهامة، وتحمل ما ينتج عنها من تبعات .. كما فيها تطيب للخاطر والأنفس .. وتأليف للقلوب .. وهذا مقصد هام من مقاصد السياسة الشرعية الحكيمة.

وغياب الشورى يعني بالضرورة الاستبداد .. والظلم .. والضعف .. والتنازع .. والفرقة .. وغياب جميع المعاني الإيجابية الآنفة الذكر أعلاه!

يعني صناعة فراعنة وطغاة جدد يمشون على خطى ونهج فرعون الأول، ويقولون بقوله: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾غافر: 29. وهو ما ترفضه الشعوب الحرة الكريمة العزيزة.

لا بد للمجتمع المسلم من أن تكون الشورى فيه هي الثقافة الرائجة والسائدة فيما بين الناس .. وعلى جميع المستويات الخاصة منها والعامة .. وبخاصة في القضايا الهامة التي يرتد الخطأ فيها على الجميع .. فإن الشورى حينئذ تتعين، كما يتعين الالتزام بنتائجها.

لا بد من ذلك، هذا إذا أردنا أن يعود لأمتنا مجدها، وعزها، وأن يعود لها دورها الريادي المعهود في قيادة الأمم والشعوب نحو التحضر، والسمو، والرقي.

* * * * *

الوقفة الثانية والثلاثون

"صلح الحديبية وما يُثار حوله من شبهات"

يوجد من يستدل ــ وللأسف ــ بصلح الحديبية على جواز التنازل عن المبادئ، والثوابت .. وعلى جواز الركون إلى الظالمين .. ويستدلون على فهمهم الخاطئ هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد وافق على حذف عبارة "رسول الله"، و "الرحمن الرحيم" من وثيقة الصلح .. كما نص الصلح على أن من أتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم من قريش مسلماً، يُرَد إلى مشركي قريش .. كما ورد في الصحيح:"جاءَ سهيلُ بنُ عمرٍو فقال: هاتِ اكتُبْ بيننَا وبينكم كتاباً، فدعا النبيُّ صلى الله عليه وسلم الكاتبَ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. قال سهيلٌ: أَمَّا الرحمنُ فواللهِ ما أدري ما هو، ولكن اكتُبْ باسمِك اللهمَّ، كما كنتَ تَكْتُبْ. فقال المسلمون: واللهِ لا نَكْتُبْها إلا بسمِ اللهِ الرحمنِ الرحيمِ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اكتُبْ باسمِك اللهمَّ. ثم قال: هذا ما قاضى عليه محمدٌ رسولُ اللهِ. فقال سهيلٌ: واللهِ، لو كنَّا نَعْلَمُ أنك رسولُ اللهِ ما صَدَدْنَاك عن البيتِ، ولا قاتلْنَاك، ولكِنْ اكتُبْ: محمدُ بنُ عبدِ اللهِ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: واللهِ، إني لرسولُ اللهِ وإن كَذَّبْتُموني،

اكتُبْ: محمدُ بنُ عبدِ الله. فقال سهيلٌ : وعلى أنه لا يَأْتِيك منا رجلٌ، وإن كان على دينِك إلا ردَدْتَه إلينا ..." البخاري.

ولهؤلاء نقول: أخطأتم .. وأبعدتم .. ليس في صلح الحديبية شيء يدل على ما ذهبتم إليه .. وإنما هو فتح .. ونصر .. وحق .. ولم ينتج عنه إلا خيراً.

وبيان ذلك من أوجه:

منها: أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يأتِ للقتال، وإنما للعمرة والطواف بالبيت، وقد ساق معه الهدي، وكان قد أقسم أن يجيبهم لأي خطة تمكن المسلمين من ذلك، وتفضي إلى تعظيم حرمات الله .. فقال صلى الله عليه وسلم:"إنا لم نَجِئْ لقتالِ أحدٍ، ولكنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرِين .. والذي نفسي بيدِه، لا يَسْأَلُونَنِي خطةً يُعَظِّمون فيها حرماتِ اللهِ إلا أَعْطَيْتُهم إيَّاها "البخاري.

ومنها: أنّ الله تعالى قد سمى صلح الحديبية فتحاً، وفيه أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم سورة الفتح: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُّبِيناً﴾ الفتح:1 . فأرسل إلى عمر فأقرأه، فقال: يا رسول الله أو فَتْحٌ هو؟ قال:"نعم". فطابت نفسه[21].

[21] قال الهيثمي في مجمع الزوائد 240/6: رجاله رجال الصحيح.

وفي رواية: قال رجل: يا رسول الله أو فتح هو؟ قال صلى الله عليه وسلم: "أي والذي نفسي بيده إنه لفتح".

فصلح الحديبية كان مقدمة وسبباً لفتح مكة .. وكا إشعاراً بالفتح وبدء الفتح .. فسُمي لأجل ذلك فتحاً.

وعن البراء بن عازب قال: "تَعُدُّون أنتم الفتحَ فتحُ مكةَ، وقد كان فتحُ مكةَ فَتْحاً، ونحن نَعُدُّ الفتحَ بيعةُ الرضوان يومَ الحديبيةِ" البخاري.

ومنها: فيه أَمِن الناس بعضهم بعضاً، ورفع الحرب، وانتشرت الدعوة، وتوسعت أرجاؤها، وأرسل النبي صلى الله عليه وسلم الكتب إلى ملوك الأرض يدعوهم فيها إلى الإسلام .. وكان سبباً في دخول عددٍ كبير من الناس في الإسلام .. إلى تضاعف عدد المسلمين أضعافاً مضاعفة .. حيث كان المسلمون في الحديبية ألفاً وأربعمائة، فأصبحوا في فتح مكة ــ بعد سنتين من الصلح ــ عشرة آلاف!

ومنها: إن عُلِم هذا الذي تقدم، نقول: ليس فيما حصل أي تنازل عن حق، أو مبدأ، ولا إقرارٍ لباطل .. فاستبدال اسمٍ حق باسم حق آخر ليس فيه أي تنازل عن الحق .. فالنبي صلى الله عليه وسلم له أسماء وصفات حميدة عديدة، فمن أسمائه: محمد، وأحمد، والماحي، والحاشر، والعاقب، كما في الحديث الصحيح، قال صلى الله عليه

وسلم:"إنَّ لي أسماءً: وأنا محمَّدٌ، وأنا أحمدُ، وأنا الماحي الَّذي يمحو اللهُ بيَ الكُفرَ، وأنا الحاشرُ الَّذي يُحشَرُ النَّاسُ على قدَمي، وأنا العاقبُ الَّذي ليس بعدَهُ أحدٌ". وقد سمَّاهُ اللهُ رءوفًا رحيماً. متفق عليه. فبأي اسم من تلك الأسماء تسمى به، أو سُمّي به .. فلا حرج .. فكما هو محمد رسول الله .. فهو محمد بن عبد الله .. وأن يستبدل اسم حق، باسم حق ليس فيه أي تنازل عن الحق.

وكذلك يُقال في أسماء الله الحسنى .. فبأي اسم من تلك الأسماء الحسنى ندعوه به .. فهو حق .. وسواء قلت: بسم الله الرحمن الرحيم .. أو بسم الله .. أو باسمك اللهمّ .. كل ذلك حق وصواب .. ليس في ذلك أي تنازل عن حق، أو إقرار لباطل، كما قال تعالى: ﴿وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ الأعراف:180. وقال تعالى: ﴿قُلِ ادْعُواْ اللّهَ أَوِ ادْعُواْ الرَّحْمَـنَ أَيّاً مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ الأَسْمَاء الْحُسْنَى﴾ الإسراء:110.

وقد تقدم معنا حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وهما في طريق الهجرة إلى المدينة .. وكان صلى الله عليه وسلم قد أردف أبا بكرٍ، وأبو بكرٍ شيخٌ يُعرَف، ونبيُّ الله شابٌّ لا يُعرَف، قال: فيلقى الرجلُ أبا بكرٍ فيقول: يا أبا بكرٍ، من هذا الرجل الذي بين يدَيك، فيقول: هذا الرجلُ يهديني السبيلَ. قال: فيحسب الحاسبُ أنه إنما يعني الطريقَ، وإنما يعني سبيلَ الخيرِ. البخاري.

فلم يعرّف أبو بكر رضي الله عنه باسم النبي صلى الله عليه وسلم، ولا بصفة النبوة .. حرصاً على سلامته، وليضلل عنه الأعين والطلب .. والنبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر عليه، بل أقره .. وقد صدق أبو بكر الصديق رضي الله عنه حينما قال:"هذا الرجلُ يهديني السبيلَ"، وهذا توصيف حق .. فالنبي صلى الله عليه وسلم يهدي البشرية جمعاء إلى الطريق الحق والصواب.

نعم؛ يُستفاد مما تقدم استحسان استبدال اسم حق مثار خلاف، باسم حق آخر لا خلاف عليه .. أو توصيف محق عليه خلاف بتوصيف آخر محق لا خلاف عليه .. من أجل تمرير بعض المصالح المعتبرة .. وهذا من الفقه، ومن مقتضيات السياسة الشرعية .. وفي ذلك عبرة وعِظة لأولئك المتعصبة؛ الذين يتعصبون ويتحزبون لمسميات محدَثة، ما أنزل الله بها من سلطان ــ بات ضررها يغلب نفعها ــ على حساب مصالح عامة ومعتبرة، تعم جميع المسلمين .. وبلدانهم .. لو كانوا يفقهون!

* * * * *

الوقفة الثالثة والثلاثون

"صلح الحديبية، والوفاء بالعهد"

لو جاز أن نضع لصلح الحديبية عنواناً، لكان العنوان الأمثل هو "الوفاء بالعهد، وعدم الغدر"، إذ في هذا الصلح تمثلت أعلى درجات الوفاء بالعهد .. فقد نص الصلح كما تقدم، قال سهيلُ بنُ عمرو:"على أنه لا يَأْتِيك منا رجلٌ، وإن كان على دينِك إلا ردَدْتَه إلينا، قال المسلمون: سبحانَ اللهِ! كيف يُرَدُّ إلى المشركين وقد جاء مسلمًا؟!"البخاري.

وقبل أن ينقضي الصلح .. ويُشهَد عليه .. إذ دخَلَ أبو جَنْدَلٍ بنُ سُهَيْلِ بنِ عمرٍو يَرْسُفُ في قيودِه، وقد خرَجَ مِن أسفلِ مكةَ حتى رَمى بنفسِه بينَ أظهرِ المسلمين، فقال سهيلٌ: هذا يا محمدُ، أولُ ما أُقاضِيكَ عليه أن تَرُدَّه إليَّ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"إنا لم نَقْضِ الكتابَ بعدُ". ــ أي لم نفرغ من كتابته بعد ــ قال: فوالله، إذًا لم أُصَالِحْكَ على شيءٍ أبداً، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"فأَجِزْه لي". قال: ما أنا بمجيزِه لكَ. قال:"بلى فافْعَلْ". قال: ما أنا بفاعلٍ .. قال أبو جندلٍ: أَيْ معشرَ المسلمين، أُرَدُّ إلى المشركين وقد جِئْتُ مسلمًا، ألا ترون ما قد لَقِيتُ؟ وكان قد عُذِّبَ عذابًا شديدًا في اللهِ .. البخاري.

وفي رواية عند أحمد وغيره: صرخ أبو جندل بأعلى صوته؛ يا معشر المسلمين أتردونني إلى أهل الشرك فيفتنوني في ديني؟!

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يا أبا جندل اصبر واحتسب، فإن الله عزَّ وجل جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً، فأعطيناهم على ذلك، وأعطونا عليه عهداً، وإنا لن نغدر بهم".

الله أكبر .. إلى هذه الدرجة يبلغ وفاء الإسلام بالعهد، ويراعي حرمته وحقه!

ثم رجَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى المدينةِ، وكان لا يأتي رَسولَ اللهَّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ أحَدٌ مِن الرِّجالِ، إلَّا ردَّهُ في تِلكَ المدَّةِ، وإن كانَ مُسلِماً .. فجَاءَه أبو بَصِيرٍ؛ رجلٌ مِن قريشٍ وهو مسلمٌ، فأَرْسَلُوا في طلبِه رجلين، فقالوا: العهدَ الذي جَعَلْتَ لنا. فدَفَعَه إلى الرَّجُلَيْن، فخَرَجا به حتى إذا بلَغَا ذا الحُلَيْفَةِ، فنزلوا يَأْكُلون مِن تمرٍ لهم، فقال أبو بَصِيرٍ لأحدِ الرجلين: والله إني لأَرى سيفَك هذا يا فلانُ جيدًا، فاستلَّه الآخرُ، فقال: أجلِ، والله إنه لجيدٌ، لقد جَرَّبْتُ به، ثم جَرَّبْتُ. فقال أبو بِصِيرٍ: أَرِنِي أنظُرْ إليه؟ فأَمْكَنَه منه، فضَرَبَه حتى بَرَدَ ــ أي مات ــ وفرَّ الآخرُ حتى أتى المدينةَ، فدَخَلَ المسجدَ يَعْدُو! فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حين رآه :"لقد رأى هذا ذُعْراً". فلما

انتهى إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: قُتِلَ واللهِ صاحبي، وإني لمقتولٌ!

فجاء أبو بَصِيرٍ، فقال: يا نبيَّ اللهِ، قد واللهِ أَوْفَى اللهُ ذمّتَك، قد رَدَدْتَني إليهم، ثم نَجَّانِي اللهُ منهم. قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"وَيْلَ أمِّه، مِسْعَرُ حربٍ، لو كان له أحدٌ". فلما سَمِعَ ذلك عَرَفَ أنه سَيَرُدُّه إليهم .. البخاري.

وقوله صلى الله عليه وسلم "مِسْعَرُ حربٍ، لو كان له أحدٌ"، وفي رواية "لو كان معه رجال"؛ فيه رجاء خفي، أن يكون معه أحد .. وأن يكون معه رجال .. كما فيه إغراء للمستضعفين المحاصرين في مكة أن يلتحقوا به .. فتلقت السماء رجاء الحبيب صلى الله عليه وسلم بالقبول .. فالتحق بأبي بصير الرجال .. وكان الوعد الذي أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لأبي جندل بأن الله جاعل له فرجاً ومخرجاً، قد تحقق من جهة ــ وعن طريق ــ أبي بصير ..!

فخَرَجَ أبو بصير حتى أتى سِيفَ البحرِ ــ وهو موضع بالعيص من ناحية ذي المروة على ساحل البحر بطريق قريش الذي كانوا يأخذون إلى الشام ــ قال: ويَنْفَلِتُ منهم أبو جندلِ بنِ سُهيلٍ، فلَحِقَ بأبي بَصِيرٍ، فجَعَلَ لا يَخْرُجُ مِن قريشٍ رجلٌ قد أَسلَمَ إلا لحِقَ بأبي بَصِيرٍ، حتى اجتمَعَتْ منهم عِصابةٌ، فواللهِ، ما يَسْمَعُونَ بعِيرٍ

خَرَجَتْ لقريشٍ إلى الشَّأْمِ إلا اعترضوا لها، فقَتَلُوهم وأَخَذُوا أموالَهم، فأَرْسَلَتْ قريشٌ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم تُنَاشِدُه باللهِ والرَّحِمِ لَمَّا أَرْسَلَ: فمَن آتاه فهو آمنٌ، فأَرْسَلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إليهم. البخاري. لكي يلتحقوا به في المدينة.

وهكذا ــ بسبب جهاد أبي بصير ومن معه ــ قد جعل الله للمسلمين المستضعفين في مكة فرجاً ومخرجاً .. كما أُلغي البند من الصلح المتعلق بعودة من أتى النبي صلى الله عليه وسلم مسلماً إلى قريش .. وظهر أن هذا البند ــ إلى ما قبل إلغائه من طرف مشركي قريش ــ كان أيضاً نصراً، وفتحاً، وخيراً كثيراً .. حيث كان سبباً في جهاد أبي بصير ومن معه .. كما كان سبيلاً جعل الله من خلاله للمؤمنين المستضعفين المحاصرين في مكة .. فرجاً ومخرجاً.

وبهذا يتبين لكل باحث منصف أن جميع بنود صلح الحديبية .. وكل كلمة من كلماته .. كانت فتحاً، ونصراً، وحقاً، وخيراً كثيراً .. ومن يتوهم في بند من بنوده أو كلمة من كلماته خلاف ذلك، فهو واهم، ومخطئ، وجاهل!

كما يُستفاد من قصة أبي بصير .. أن عهد النبي صلى الله عليه وسلم لقريش، والصلح الذي انعقد بينهما .. لا يلزم أبا بصير؛ لأنه

خرج من سلطان وحدود دولة النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة .. وبالتالي لكل منهما عهده وعقده المستقل.

كما يُستفاد وجود فريقين من المسلمين في آن واحد: فريق هو في عهد وأمان مع العدو .. وفريق آخر في حرب مع نفس العدو .. ولا يلزم كل فريق منهما من الأحكام ما يلزم الفريق الآخر .. وهذا أمر بين لا خفاء فيه.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن وَلاَيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُواْ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ﴾؛ أي يجب أن تنصروهم في الدين، حتى وإن لم يهاجروا ﴿إِلاَّ عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾؛ لا يجوز أن تنصروهم، فالعهد والميثاق الذي بينكم وبين القوم يمنعكم من ذلك ﴿وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ الأنفال:72. فالآية الكريمة افترضت وجود فريقين مؤمنين: فريق بينهم وبين العدو الكافر عهد وميثاق، يمنعهم من قتالهم. وفريق آخر لا عهد ولا ميثاق بينه وبين هذا العدو .. فهو في حِلٍّ منه، وله أن يناجزه ويُقاتله .. فلا يلزمه ما يلزم الفريق الأول المعاهد، كما أن الفريق الأول المعاهد لا يلزمه ما يلزم الفريق الآخر غير المعاهد.

* * * * *

الوقفة الرابعة والثلاثون

"معاملة الوفود كل بحسب ما يناسبه"

من الملاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعطي كل وفد يفد إليه من قِبل قريش ما يناسبه، ويُظهر له ما يُؤثر عليه، وعلى تفكيره، وعلى موقفه، ومن خلفه، ومن أرسله .. بصورة ترتد بالمصلحة على مجريات التفاوض .. وعلى المسلمين بعامة.

فلما جاءَ بُدَيْلُ بنُ وَرْقاءَ الخُزَاعِيُّ في نفرٍ مِن قومِه مِن خُزاعةَ، وكانوا عَيْبَةَ نصحِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ــ أي أنهم موضع النصح له والأمانة على سره ــ مِن أهل تِهامةَ، فقال: إني تَرَكْتُ كعبَ بنَ لُؤَيٍّ، وعامرَ بنَ لُؤَيٍّ نزلوا أعدادَ مياهِ الحديبيةِ، ومعهم العوذُ المَطافِيلُ وهي النياق ــ ذات اللبن معها أبناؤها ــ وهم مُقاتِلوكَ، وصادُّوك عن البيتِ.

وكون بُديل من قوم كانوا موضع ثقة ونصح رسول الله .. وكان يُمثل الوافد المستقل من خارج قريش، ومن كان كذلك فهو كفؤ أن يحمل رسالة النبي صلى الله عليه وسلم كاملة .. والتي تبين الغرض من مجيئه إلى مكة .. كما تبين خطة الصلح .. فقال له رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنا لم نَجِئْ لقتالِ أحدٍ، ولكنَّا جِئْنَا مُعْتَمِرين، وإن قريشاً قد نَهِكَتْهم الحربُ، وأَضَرَّتْ بهم، فإن شاؤُوا مادَدْتُهم مدةً،

ويُخَلُّوا بيني وبينَ الناسِ، فإن أظْهَرَ فإن شاؤوا أن يَدْخُلوا فيما دخَلَ فيه الناسُ فعلوا؛ وإلا فقد جَمُّوا، وإن هم أبَوْا، فوالذي نفسي بيدِه لأُقاتِلَنَّهم على أمري هذا حتى تَنْفَرِدَ سالفتي، ولَيَنْفَذَنَّ اللهُ أمرَه " البخاري.

فقال بُدْيلُ: سأُبْلِغُهم ما تقولُ. قال: فانطَلَقَ حتى أتى قريشاً، قال: إنا قد جِئْنَاكم مِن هذا الرجلِ، وسَمِعْنَاه يقولُ قولًا، فإن شِئْتُم أن نَعْرِضَه عليكم فعَلْنَا، فقال سفهاؤُهم: لا حاجةَ لنا أن تُخْبِرَنا عنه بشيءٍ ــ وهذا حال السفهاء المتحمسة المتعصبة من كل قوم، تراهم يردون الشيء قبل أن ينظروا في مصالحه ومفاسده ــ وقال ذَوُو الرأيِ منهم: هاتِ ما سَمِعْتَه يقولُ. قال: سَمِعْتُه يقولُ كذا وكذا، فحَدَّثَهم بما قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم.

ولا شك أن الرسالة التي نقلها بُديل إلى قريش .. كان لها أثرها البين على تفكير وتوجه قريش .. وما تلا ذلك من مجريات أحداث الصلح .. لكن قريشاً كانت تشك في "بُديل"، أن هواه مع محمد صلى الله عليه وسلم .. وبالتالي فهو غير مستأمن على هكذا مهمة!

هنا انبرى مفاوض جديد من قريش .. يستكمل مهمة بُديل، ويستوضح رسالته التي حملها من النبي صلى الله عليه وسلم إلى قريش

.. فقام عروةُ بنُ مسعودٍ فقال: أَيْ قومُ، أَلَسْتُم بالوالدِ؟ قالوا: بلى. قال: أو لسْتُ بالولدِ؟ قالوا: بلى. قال: فهل تَتَّهِمُونني؟ قالوا: لا. قال: ألستم تَعْلَمُون أني استَنْفَرْتُ أهلَ عُكاظٍ، فلما بَلَّحوا عليَّ ــ أي امتنعوا ــ جِئْتُكم بأهلي، وولدِي، ومَن أطاعَنِي؟ قالوا: بلى.

يريد من أسئلته هذه أن يبين لقريش أين هو منهم، وأن يتبين أيضاً رأيهم فيه، وأين هم منه، ومن ثقتهم به .. قال: فإن هذا قد عَرَضَ لكم خطةَ رُشْدٍ، اقبلوها ودَعُوني آتِيه، قالوا: ائْتِه.

وكان عروة بن مسعود مغروراً، قليل الأدب .. يحتاج لنوع معاملة تنفع معه .. وترده إلى صوابه ورشده .. فأَتى النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فجَعل يُكَلِّمُه، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"نحواً مِن قولِه لبُدَيْلٍ". فقال عروةُ عندَ ذلك: أَيْ محمدُ! أَرَأَيْتَ إن استَأْصَلْتَ أمرَ قومِك، هل سَمِعْتَ بأحدٍ مِن العربِ اجتاحَ أهلَه قبلَكَ؟! وإن تَكُنْ الأخرى، فإني والله، لَأَرَىَ وجوهًا، وإني لَأَرى أشوابًا مِن الناسِ خليقًا أن يَفِرُّوا ويَدَعُوكَ!

وهذا طعن بالصحابة، وتشكيك بثباتهم، وولائهم للنبي صلى الله عليه وسلم .. أراد منه أن يفت من عضد النبي صلى الله عليه وسلم، عساه ينتزع منه تنازلاً في مواقفه ومطالبه!

فقال له أبو بكرٍ:"امْصُصْ ببظرِ اللاتِ! أَنَحْنُ نَفِرُّ عنه ونَدَعُه؟!" .. وهذه كلمة شديدة جداً، لم يُعرَف عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قالها قط، إلا في هذا الموضع .. غضباً لله، وانتصاراً للنبي صلى الله عليه وسلم، ولحقه عليهم .. وثم تأديباً لعروة على ما بدر منه!

فقال عروة بن مسعود:"مَن ذا؟" يسأل وهو يعرفه .. من قبيل الاستعلاء، والكبر!

قالوا: أبو بكرٍ. قال: "أما والذي نفسي بيدِه، لولا يدٌ كانت لك عندي لم أُجْزِكْ بها لأَجَبْتُكَ". فتذكر له معروفاً، لم يُكافئه عليه، فعد هذه مقابل تلك!

قال: وجعَلَ يُكَلِّمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فكلما تكَلَّمَ أخَذَ بلحيتِه! والمغيرةُ بنُ شعبةَ قائمٌ على رأسِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ومعه السيفُ، وعليه المِغْفَرُ، فكُلَّمَا أهوى عروةُ بيدِه إلى لحيةِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ضرَبَ يدَه بنعلِ السيفِ، وقال له: أَخِّرْ يدَك عن لحيةِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ــ وفي رواية عند ابن حبان وغيره: قال له المغيرة: لتكفنّ يدك، أو لا ترجع إليك يدك ــ فرَفَعَ عروةُ رأسَه، فقال: مَن هذا؟ قالوا: المغيرةُ بنُ شعبةَ.

ثم إن عروةَ جعَلَ يَرْمُقُ أصحابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بعينِه، قال: فوالله، ما تَنَخَّمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُخَامَةَ إلا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدَلَّكَ بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضأَ كادوا يَقْتَتِلون على وضوئِه، وإذا تكَلَّمَ خَفَضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ؛ تعظيمًا له ..!

هذا الأدب الجم هو بعض أدب الصحابة مع النبي صلى الله عليه وسلم .. لكن في هذا الموضع ــ إضافة إلى ذلك ــ أرادوا به معناً آخر؛ أرادوا به أن يردوا على عروة .. وعلى ظنه السيء فيهم؛ أنهم يفرون عن النبي صلى الله عليه وسلم ويدعونه .. وأن يعطوه درساً في الأدب والولاء والحب والفداء لا ينساه أبداً، ولم يشهد مثيلاً له مع ملِك من قبل ولا من بعد ..!

فرجَعَ عروةُ إلى أصحابِه ــ مبهوراً مما شاهد وسمع ــ فقال: "أَيْ قومُ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووَفَدْتُ على قَيْصَرَ، وكسرى، والنَجَاشِيِّ، واللهِ، إن رَأَيْتُ ملكاً قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم محمداً، واللهِ، إن تَنَخَّمَ نُخامةً إلا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَّك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أَمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضأَ كادوا يَقْتَتِلون على وضوئِه، وإذا تكَلَّم خَفَّضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ؛ تعظيمًا له". ومن كان

هذا شأنهم ووصفهم، لا يمكن أن يفروا عن النبي صلى الله عليه وسلم، فأرواحهم دون أدنى أذى يُصيبه فداء ..!

فما هو المطلوب، بعد هذه المقدمة يا عروة بن مسعود ..؟!

قال: "إنه قد عَرَضَ عليكم خطةَ رُشْدٍ فأَقْبَلُوها".

هذا هو المطلوب، وهذا هو المراد .. فقد وصلت رسالة النبي صلى الله عليه وسلم، وتحقق المراد منها .. حتى أصبح عروة بن مسعود مفاوضاً له عند قريش، بعد أن كان مفاوضاً لهم عند النبي صلى الله عليه وسلم!

هنا تشوش العدو أكثر فأكثر .. وازدادت حيرته .. يحتاج إلى من يجلي لهم حيرتهم .. فقال رجلٌ مِن بني كِنانةَ: "دَعُوني آتِيه". وهذا الرجل ــ كما في رواية عند ابن اسحاق ــ يُدعى سيد الأحابيش، الحُليس بن علقمة.

فقالوا: ائتِه.

هذا الرجل كان ممن يعظمون البُدن التي يصطحبها الحجاج والمعتمرون معهم إلى الحج أو العمرة .. وإذا رآها، فإنها تؤثر على قراره، وتفكيره، وموقفه!

فلما أَشْرَفَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وأصحابِه، قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم:"هذا فلانٌ، وهو مِن قوم يُعَظِّمون البُدْنَ، فابعثُوها له"البخاري.

فبُعِثَتْ له، واستَقْبَلَه الناسُ يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: سبحانَ اللهِ، ما ينبغي لهؤلاء أن يُصَدُّوا عن البيتِ!

وصلت الرسالة إليه، وتحقق المراد قبل أن يصل إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ومن دون أن يتكلم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلما رجَعَ إلى أصحابِه قال: رأَيْتُ ــ أي البُدن ــ قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ، فما أرى أن يُصَدُّوا عن البيتِ. البخاري.

وفي رواية عند ابن إسحاق: فلما رأى الهدي يسيلُ عليه من عرض الوادي ــ أي من جنبه ــ في قلائده ــ وهو ما يُعلق في أعناق الهدي ليُعلم أنه هدي ــ وقد أكل أوباره من طول الحبس عن محلّه ــ موضع النحر من الحرم ــ رجع إلى قريش، ولم يصل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم إعظاماً لما رأى، فقال لهم ذلك. فقالوا له: اجلس فإنما أنت أعرابي لا علم لك!

فغضب الحليس، وقال: يا معشر قريش، والله ما على هذا حالفناكم، ولا على هذا عاقدناكم، أيُصَد عن بيت الله من جاء معظماً له؟! والذي نفس الحُليس بيده، لتخلنّ بين محمدٍ وبين ما جاء له، أو

لأنفرنّ بالأحابيش نفرة رجل واحد![تصدع في الموقف الداخلي لقريش]!

فقالوا له: صه؛ كفّ عنا يا حُلَيس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى.

فأرسلوا مفاوضاً آخر، يَقالُ له: مِكْرَزُ بْنُ حفصٍ، فقال: دعوني آتيه. فقالوا: ائْتِه. فلما أَشْرَفَ عليهم، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: "هذا مِكْرَزٌ، وهو رجلٌ فاجرٌ"البخاري. خبرة دقيقة بطبيعة وصفة المفاوض، ليُصرَف له ما يناسبه.

وقوله صلى الله عليه وسلم: "هو رجلٌ فاجرٌ"؛ فيه إغراء للمسلمين بأن ينتبهوا له، ويحترزوا منه، وما قد يحمله فجوره على أن يفعل .. وكانت قريش تعلم أن مكرزاً فاجراً لا يصلح لهكذا مهمة .. فأردفته مباشرة بسُهيل بن عمرو .. فجَعَلَ مكرز يُكَلِّمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فبينما هو يُكَلِّمُه؛ إذ جاء سُهَيْلُ بنُ عمرٍو. عن عَكْرِمَةَ: أنه لما جاءَ سُهَيْلُ بنُ عمرٍو، قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"لقد سَهُلَ لكم مِن أمرِكم" البخاري. فتم الصلح، على يد سُهيل .. فكان اسماً على مسمى .. كما أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك.

وفيما تقدم فقه عظيم مرتبط بالسياسة الشرعية ــ ما أحوجنا إليه، ونحن نخوض غمار المفاوضات مع العدو، كما نخوض معه غمار

المعارك والحروب ــ كما فيه دلالة هامة على أهمية الدراية التامة بطبيعة وصفة المفاوضين الموفدين من قِبَل العدو .. ثم النظر في الأشياء التي تؤثر عليهم، وعلى تفكيرهم، ومواقفهم، وقراراتهم .. بما يرتد بالفائدة والمصلحة الراجحة على الإسلام والمسلمين.

* * * * *

الوقفة الخامسة والثلاثون

"حِلم النبى صلى الله عليه وسلم وصفحه، وغضبه"

كان النبي صلى الله عليه وسلم رحيماً رفيقاً، لا يغضب لنفسه، ولا لشيء من أمور الدنيا، وكان يقتص من نفسه إذ وجد ما يستدعي القصاص .. ليكون قدوة لمن بعده، وأن لا أحد ــ مهما علا قدره وشأنه ــ فوق القصاص، وفوق قانون السماء .. وكان إذا أراد أن ينكر على مخطئ خطأه، لا يخصص في الخطاب والإنكار؛ إذ كان كثيراً ما يعمم، ويقول:"ما بل أقوام يفعلون كذا، وكذا .."؛ ليتنبه الفاعل على خطئه بأقل حرج .. إلا أن تُنتهَك حرمات الله، أو كان في غضبه لنفسه غضب لدين الله تعالى ولحدوده .. فكان حينئذٍ لا يقف لغضبه أحد.

عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت:"ما انتَقَمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم لنفسِه في شيءٍ يُؤْتَى إليه حتى تُنْتَهَكُ مِن حرماتِ اللهِ، فيَنْتَقِمُ للهِ" البخاري.

وعنها، قالت:"ما ضرب خادماً قط ولا أمراة، ولا ضرب رسول الله بيده شيئاً قط، إلا أن يجاهد في سبيل الله، ولا خيّر بين أمرين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما حتى يكون إثماً ــ أي إلا أن يكون إثماً ــ فإذا كان إثما كان أبعد الناس من الإثم، ولا انتقم لنفسه من شيء يؤتى

إليه حتى تنتهك حرمات الله عز وجل، فيكون هو ينتقم لله عز وجل"[السلسلة الصحيحة:507].

وكان صلى الله عليه وسلم لا تغضبه الدنيا وما كان لها، فإذا تعوطي الحق لم يعرفه أحد، ولم يقم لغضبه شيء حتى ينتصر له، لا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها ..[22].

وعنها، رضي الله عنها قالت: "كان إذا بلغه عنِ الرَّجِلِ شيءٌ لم يقلْ: ما بالُ فلانٍ يقولُ؟ ولكن يقولُ: ما بالُ أقوامٍ يقولونَ كذَا وكذَا"[صحيح الجامع:4692].

وقد ابتاع النبي صلى الله عليه وسلم فرسًا من أعرابيٍّ فاستتبعَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليُقبِضَهُ ثمنَ فرسِهِ فأسرعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المشيَ وأبطأَ الأعرابيُّ فطفقَ رجالٌ من أصحابِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعترضونَ الأعرابيَّ ويساومونَه الفرسَ حتَّى زادَ بعضُهُمُ في السَّومِ على الثَّمنِ الَّذي ابتاعَ بِهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ولا يشعُرونَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ابتاعه فَنادى الأعرابيُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ إن كنتَ مُبتاعًا هذا الفرسَ فابتَعهُ وإلَّا بعتُهُ. فقامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سمعَ الأعرابيَّ فقالَ:"أوَ ليسَ قد

[22] أخرجه البيهقي في الدلائل 1/286، وقال: له شواهد تشهد له بالصحة.

ابتعتُهُ منكَ؟". فقالَ الأعرابيُّ: لا واللهِ ما بعتُكَهُ. فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ:"بلى قد ابتعتُهُ منكَ". فطفِقَ النَّاسُ يلوذونَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبالأعرابيِّ وَهُما يتراجعانِ فطفِقَ الأعرابيُّ يقولُ هلمَّ شَهيدًا يشهَدُ أنِّي قد بايعتُكَ![لم يزجره النبي صلى الله عليه وسلم على مقولته هذه، ولم يغضب لنفسه، فداه نفسي].

حتَّى جاءَ خُزَيْمةُ بنُ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنه فاستمَعَ لمراجعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والأعرابيِّ فقال: أَنا أشهدُ أَنَّكَ قد بايعتَهُ. [فكيف لا يشهد، ولا يصدق النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصدقه في خبر السماء، وما يتنزل عليه من ربه، وهو لا ينطق إلا حقاً وصدقاً].

فأقبلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على خُزَيْمةَ فقالَ:"بمَ تشهَدُ؟". فقالَ بتصديقِكَ يا رسولَ اللهِ. فجعلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شَهادته بشَهادةِ رجُلَيْنِ[23].

وكان الأوس يفتخرون على الخزرج بأن خُزَيْمةُ بنُ ثابتٍ منهم، وقد جعل النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شَهادته بشَهادةِ رجُلَيْنِ.

وعن عبد الله بن عباس، قال: أنَّ زوجَ بَرِيرَةَ عبدٌ أسودُ يقالُ لهُ مُغيثٌ، كأنِّي أنظرُ إليهِ يطوفُ خلفَهَا يبْكي ودُموعُهُ تسيلُ على لحيتِهِ ــ

[23] صحيح سنن أبي داود: 3607. قال ابن حجر العسقلاني في موافقة الخبر الخبر 2/18: صحيح.

وكانت قد فارقته ــ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعباسٍ:"يا عباسُ، ألا تعجَبْ منْ حبِّ مُغيثٍ بَرِيرةَ، ومن بغضِ بريرةَ مغيثًا؟!". فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لها: لَو رَاجَعْتِهِ ــ وفي رواية عند النسائي: فإنَّهُ أبو ولدِكِ ــ؟".

لم تستعجل بريرة الإجابة حتى تتبين أهو أمر؛ فإن كان أمراً؛ فالسمع والطاعة لرسول الله صلى الله وسلم .. وإن كانت الشفاعة، ولها حق الاختيار .. فقد يكون لها رأي آخر .. وهذا من تمام فقهها وأدبها، رضي الله عنها!

قالتْ: يا رسولَ اللهِ تَأْمُرُني؟

قالَ صلى الله عليه وسلم:"إنَّمَا أنَا أَشْفَعُ". لم ينه مُغيثاً، ولم يزجره لكونه يلحق بريرةً .. ويمشي خلفها في الأسواق وهو يبكي .. بعد أن فارقته، وهي لا تحل له .. وإنما رفقاً بمشاعر وحب مغيث لبريرة .. ومراعاة لما بينهما من عشرة قديمة .. يتوسط ويشفع له عند بريرة .. عساها أن تراجعه!

قالت بريرة: لا حاجةَ لي فِيهِ! البخاري.

لها ذلك؛ فهذا أمر لا يصح فيه الإكراه، ولا الإحراج .. ولم يعاتبها النبي صلى الله عليه وسلم ــ حاشاه ــ لكونها قد ردت شفاعته ووساطته!

وكذلك، قد أخرج ابن إسحاق في السيرة، وغيره: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عدَّلَ صفوفَ أصحابِه يومَ بدرٍ وفي يدِه قِدحٌ ــ وهو السهم الذي يُرمَى به عن القوس ــ يعدِّلُ به القومَ، فمرَّ بسوادِ بنِ غَزيَّةَ حليفَ بني عدي بنِ النَّجارِ وهو مُسْتنتِلٌ من الصفِّ ــ أي خارج من الصف متقدم على أصحابه ــ فطعن في بطنِه بالقِدحِ، وقال: "استوِ يا سوادُ". فقال: يا رسولَ اللهِ أوجَعْتَني، وقد بعثك اللهُ بالحقِّ والعدلِ فأقِدْني!

فكشف رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عن بطنِه وقال: "استقِدْ"! استقد يا سواد .. الله أكبر .. رسول الله .. سيد الخلق .. قائد البشرية ومعلمها .. صلوات ربي وسلامه عليه .. يكشف عن بطنه ليُقاد منه بالعدل .. فلم يزجر صاحب الحق، ولم يغضب منه .. حاشاه .. ليعلمنا .. ويعلم ذوي النفوذ والحكم والسلطان من أمته أن لا أحد فوق العدالة .. وفوق أن يُقاد منه بالحق .. مهما علا شأنه، واتسع صيته!

فما كان من سواد إلا اعتنقه، وقبل بطنه .. هكذا استقاد سواد لنفسه، وحقه .. قال صلى الله عليه وسلم: "ما حملكَ على هذا يا سوادُ ؟". قال: يا رسولَ اللهِ حضَر ما ترى فأردتُ أن يكون آخرُ العهدِ بك

أن يمَسَّ جلدي جلدَك فدعا له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بخيرٍ، وقال له:"استوِ يا سوادُ"[السلسلة الصحيحة:2853].

وفي الصحيحن، عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: استأذن رهطٌ من اليهودِ على النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فقالوا: "السَّامُ عليك"، وأرادوا بالسَّام الموت!

ففهمتها أُمُّنا عائشة، فقالت: بل عليكم السّامُ واللعنةُ!

فقال صلى الله عليه وسلم:"يا عائشةُ، إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرفقَ في الأمرِ كلِّه". في مثل هذا الموضع الذي تغضب فيه أم المؤمنين لحرمة النبي صلى الله عليه وسلم .. يأمرها النبي صلى الله عليه وسلم بالرفق.

قلتُ: أولم تسمع ما قالوا؟!

قال صلى الله عليه وسلم:"قلتُ: وعليكمْ". أي وعليكم يرتد السام .. وهذا يكفي .. وهو ما بقتضيه الرفق.

وفي رواية عند مسلم، قال صلى الله عليه وسلم:"يا عائشةُ ! إنَّ اللهَ رفيقٌ يحبُّ الرِّفقَ، ويُعطي على الرِّفقِ ما لا يُعطي على العنفِ، وما لا يُعطِي على ما سواه".

وعن أنس بن مالك، قال: بينما نحن في المسجدِ مع رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم إذ جاء أعرابيٌّ، فقام يبولُ في المسجدِ! فقال أصحابُ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: مَهْ مَهْ! قال: قال رسولُ اللهِ

صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم: "لا تُزْرِمُوه ". دَعُوهُ ــ وفي رواية عند البخاري: فإنما بُعثتُم مُيَسِّرين ولم تُبْعثوا مُعَسِّرين ــ فتركوه حتى بال. ثم إن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّم دعاه فقال له: "إن هذه المساجدَ لا تَصْلُحُ لشيءٍ من هذا البولِ ولا القَذَرِ، إنما هي لِذِكرِ اللهِ عز وجل، والصلاةِ، وقِراءةِ القرآنِ ". قال فأمر رجلًا من القومِ، فجاء بدَلْوٍ من ماءٍ، فشَنَّهُ عليه. مسلم.

في مثل هذا الموضع، يقول صلى الله عليه وسلم لأصحابه:"دعوه .. فإنما بُعثتُم مُيَسِّرين ولم تُبْعثوا مُعَسِّرين". فلم ينهره، ولم يضربه .. وإنما علمه بكل رفق .. بعد أن تركه يقضي حاجته!

وعنه، قال: كنتُ أمشي مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وعليهِ بُرْدٌ نجرانيٌّ غليظُ الحاشيةِ، فأدركَهُ أعرابيٌّ فجذبَهُ جذبةً شديدةً، حتى نظرتُ إلى صفحةِ عاتِقِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ قد أَثَّرَتْ بهِ حاشيةُ الرداءِ من شِدَّةِ جذبتِهِ! ثم قال: مُرْ لي من مالِ اللهِ الذي عندكَ! فالتفتَ صلى الله عليه وسلم إليهِ: "فضحكَ، ثم أمرَ لهُ بعطاءٍ" البخاري.

ونحوه، عن معاوية بن الحكم السلمي، قال: بينا أنا أُصلِّي معَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، إذ عطَس رجلٌ منَ القومِ. فقلتُ: يرحمُك اللهُ ! فرَماني القومُ بأبصارِهم! فقلتُ: واثُكلَ أُمِّياه ! ما شأنُكم

تَنظُرونَ إليَّ؟! فجعَلوا يَضرِبونَ بأيديهم على أفخاذِهم. فلما رأيتُهم يُصَمِّتونَني ــ لكني سكَتُّ ــ فلما صلَّى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فبِأبي هو وأمِّي ! ما رأيتُ مُعَلِّمًا قبلَه ولا بعدَه أحسنَ تَعليمًا منه، فواللهِ ما كهَرَني ولا ضرَبَني ولا شتَمَني. قال: "إنَّ هذه الصلاةَ لا يَصلُحُ فيها شيءٌ من كلامِ الناسِ، إنما هو التسبيحُ والتكبيرُ وقراءةُ القرآنِ "مسلم.

* * * * *

الوقفة السادسة والثلاثون

"إذا ما انتُهِكَت حرمات اللّه"

لكن إن انتهكت حرمات الله، أو اعتدي عليها في شيء، فلا يقف لغضبه صلى الله عليه وسلم أحد حتى ينتصف لدين الله، وبخاصة إن كانت المخالفة لها مساس بالعقيدة، وأصول الدين، وصحيحه.

كما في الحديث عن جابر، أن عمر بن الخطاب، أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بنسخةٍ من التوراة، فقال: يا رسولَ الله! هذه نسخة من التوراة، فسكت، فجعل يقرأ ووجه النبِّي صلى الله عليه وسلم يتغير، فقال أبو بكر: ثكلتك الثواكل! ما ترى ما بوجه رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

وقوله "ما ترى ما بوجه رسول الله"؛ أي من الغضب؛ وذلك لأن الأمر متعلق بالعقيدة، والتلقي والاتباع، وممن يؤخذ الدين .. وتؤخذ الأحكام والقيم والمبادئ والمفاهيم .. من محمد صلى الله عليه وسلم، فحينئذٍ تتحقق الهداية، ويتحقق النجاة .. أم من غيره ــ أياً كان هذا الغير ــ فحينئذٍ المصير إلى الضلال، والهلاك، والخسران، لا محالة.

فنظر عمر إلى وجهِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أعوذُ بالله من غضب اللهِ وغضب رسوله، رضينا بالله رباً، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدٍ نبياً. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"والذي نفسُ محمدٍ بيده، لو بدا لكم موسى فاتبعتموه وتركتموني لضللتم عن سواء السبيل، ولو كان حيَّاً وأدركَ نبوتي لاتّبعني"[24]. هذا فيمن يتبع موسى عليه السلام، ويترك محمداً صلى الله عليه وسلم .. فكيف بمن يتبع المتكلمة، وأصحاب المذاهب الوضعية، والبدعية الضالة، ويعكف على قراءة كتبهم دهراً .. ويترك محمداً صلى الله عليه وسلم وما أنزل عليه .. لا شكّ أنه أولى بالضلال والخسران!

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: أنَّ قريشًا أهمَّهم شأنُ المرأةِ المخزوميَّةِ التي سرقت في عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في غزوةِ الفتحِ. فقالوا: من يُكلِّمُ فيها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ، حِبُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فأتى بها رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكلَّمه فيها أسامةُ بنُ زيدٍ، فتلوَّنَ وجهُ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ــ أي من الغضب، وذلك أن في شفاعة أسامة تعطيل لحد من حدود الله،

[24] رواه الدارمي، مشكاة المصابيح: 194، وانظر صحيح الجامع الصغير: 5308.

واضطراب لموازين الحكم والعدل بين الناس ــ فقال صلى الله عليه وسلم:"أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ اللهِ؟!". فقال له أسامةُ: استغفِرْ لي يا رسولَ اللهِ!

فلما كان العشيُّ قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فاختطب، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثم قال: أما بعد، فإنما أهلك الذين مَن قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريفُ، تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيفُ، أقاموا عليه الحدَّ. وإني والذي نفسي بيدِه لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمدٍ سرقت لقطعتُ يدَها"! فلا أحد فوق قانون الله وشرعه.

ثم أمر بتلك المرأةِ التي سرقتْ فقُطعَتْ يدُها، قالت عائشةُ: فحسنُتْ توبتُها بعد، وتزوَّجتْ، وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفعُ حاجتَها إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ. مسلم.

وعن عبد الله بن عمرو، قال: خرجَ رسولُ اللهَّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ علَى أصحابِهِ وَهُم يختَصِمونَ في القَدَرِ فَكَأنَّما يُفقَأُ في وجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ منَ الغضَبِ ــ وفي رواية عند الترمذي: فغَضبَ حتَّى احمرَّ وجهُهُ، حتَّى كأنَّما فُقِئَ في وجنتيهِ الرُّمَّانُ! ــ فقالَ:"بِهَذا أُمِرتُمْ؟! أو لِهَذا خُلِقتُمْ؟! تَضربونَ القُرآنَ بعضَهُ ببَعضٍ! بِهَذا هلَكَتِ الأمَمُ قبلَكُم".

فقالَ عبدُ اللهَّ بنُ عمرٍو: ما غبَطتُ نَفسي بمجلسٍ تخلَّفتُ فيهِ عن رسولِ اللهَّ صلَّى اللهَّ علَيهِ وسلَّمَ ما غبَطتُ نَفسي بذلِكَ المجلِسِ وتخلُّفي عَنهُ[صحيح ابن ماجه:69].

وعنه، قال: أنَّ نفرًا كانوا جُلوسًا ببابِ النَّبيِّ صلَّى اللهَّ عليهِ وسلَّمَ، فقالَ بعضُهُم: ألم يقلِ اللهَّ كذا وَكَذا؟ وقالَ بعضُهُم: ألم يقلِ اللهَّ كذا وَكَذا؟ فسمِعَ ذلِكَ رسولُ اللهَّ صلَّى اللهَّ عليهِ وسلَّمَ، فخرجَ كأنَّما فُقِئَ في وجهِهِ حبُّ الرُّمَّانِ، فقالَ: "بِهَذا أُمِرتُمْ؟! أو بِهَذا بُعِثتُمْ؟! أن تَضربوا كتابَ اللهَّ بعضَهُ ببعضٍ؟! إنَّما ضلَّتِ الأممُ قبلَكُم في مثلِ هذا، إنَّكُم لستُمْ مِمَّا هاهُنا في شَيءٍ، انظُروا الَّذي أُمِرتُمْ بِهِ، فاعمَلوا بِهِ، والَّذي نُهيتُمْ عنهُ، فانتَهوا"[25].

نعم، عندما تكون المخالفة مآلها إلى الضلال، والهلاك، كما ضلت وهلكت الأمم من قبل .. لا شك أنها تحتاج من رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القدر من الغضب .. فالأمر جد خطير، لا يقبل أن يُعالَج على طريقة ما بال أقوام ..!

وكذلك لما قتل أسامة بن زيد ذاك الرجل في أجواء المعركة، بعد أن قال لا إله إلا الله .. فقد غضب النبي صلى الله عليه وسلم غضباً شديداً، وقال لأسامة:"يا أسامةُ، أَقتَلْتَه بعدَما قال: لا إله إلا الله؟!".

---

[25] أخرجه أحمد في المسند، وقال شاكر 11/73: إسناده صحيح.

قال أسامة: قلتُ: يا رسولَ الله، إنما كان مُتَعَوِّذًا ــ أي قالها خوفاً من السيف ليدفع عن نفسه القتل ــ قال:"أَقتَلْتَه بعدما قال: لا إله إلا الله؟!". قال: فما زالَ يُكرِّرُها عليَّ، حتى تمنَّيتُ أني لم أكنْ أسلَمتُ قبلَ ذلك اليومِ. البخاري.

وفي رواية عند مسلم: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"أقال لا إله إلا الله وقتلته ؟!" قال، قلت: يا رسول الله! إنما قالها خوفاً من السلاح! قال صلى الله عليه وسلم:"أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا ؟!". فما زال يكررها علي حتى تمنيت أني أسلمت يومئذ!

وذلك أن للمسلم حرمة عظيمة ومغلظة لا يجوز أن تُنتهك أو أن تُمس بسوء بالظن والشبهات؛ حتى لو كان حديث عهد بكفر .. فحرمته كحرمة من سبقه في الإسلام سنوات، لا فرق.

يُستفاد مما تقدم فوائد عدة، منها أنه لا يجوز لنا أن نتعامل مع جميع ما نراه في واقعنا المعايش من مخالفات ــ على اختلاف تنوعها ودرجة خطورتها ــ على طريقة واحدة من الإنكار؛ على مبدأ وطريقة ما بال أقوام .. ثم بعد ذلك نعزوا فعلنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فحينئذٍ، نخطئ خطأ كبيراً بحق الإسلام، كما أننا نسيء الأدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم.

نرى الأمة تُذبَح من الوريد إلى الوريد .. نرى شعوباً مسلمة بكاملها تُذبح على يد الطاغوت المجرم كما في الشام وغيرها .. ثم يوجد منا من يتعاطى مع هذا الواقع المؤلم والخطير .. بفتور وبرودة، وعدم شعور بالمسؤولية .. وعلى طريقة ما بال أقوام .. ومن دون أن يتمعر وجهه ساعةً غضباً لله، ولحرماته .. ثم بعد ذلك يقول قولة الزور، ويشهد شهادة الزور: هذه هي السنة، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم ينكر على المخالفين مخالفاتهم .. وما أنا إلا من المتبعين!

أين هؤلاء من صفته صلى الله عليه وسلم" يتلون وجهه فَكَأَنَّما يُفقَأُ في وجهِهِ حَبُّ الرُّمَّانِ منَ الغضَبِ" ..؟!

إنها آفة مدعي الاتباع من قبل، واليوم، وغداً .. يتبعون النبيّ صلى الله عليه وسلم في جانب دون جانب .. يأخذون جانباً من سيرته وسنته، دون جانب .. يتبعونه فيما يهوون ويرغبون .. ويدعون منه ما لا يهوون!

ولهؤلاء، ولمن كان على شاكلتهم ومذهبهم، يُقال لهم ما قاله الرب سبحانه وتعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاء مَن يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنكُمْ إِلاَّ خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ البقرة: 85.

" أوحَى اللهَّ عزَّ وجلَّ إلى جِبريلَ علَيهِ السَّلامُ أنِ اقلِب مَدينَةَ كَذا وَكذا بِأَهلِها. قال: فقال يا رَبِّ إنَّ فيهِم عَبدَك فُلانًا لَم يعصِك طَرفَةَ عَينٍ!

قال: فقال اقلِبها عليهِ، وعَلَيهِم؛ فإنَّ وجهَه لَم يتَمَعَّر فيَّ ساعَةٍ قَطُّ"[26].

وفي المقابل، فريق آخر تراه يشتد غضبه فيما لا ينبغي، وفي صغائر الأمور .. وفي أمور تعالَج بقليل من الرفق والحكمة .. بينما في الأمور العظيمة .. في أمور تتعلق بالتوحيد وأصول الدين وصحيحه .. وعندما تنتهك حرمات الله جهاراً نهاراً تراه ــ رهبة أو رغبة ــ لا يغضب، ولا يتكلم بكلمة واحدة، ولا يحرك ساكناً .. ثم بعد ذلك يحسب أنه ممن يحسنون صنعاً!

---

[26] أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، وغيره، وهو حديث ضعيف .. لكن معناه حق، وصحيح، قد دلت عليه نصوص عدة، كما في الحديث عن عبد الله بن مسعود، قال: أُمِرَ بعبدٍ من عِبادِ اللهِ أنْ يُضْرَبَ في قبرِهِ مِائةَ جَلْدَةٍ، فلمْ يَزَلْ يَسْأَلُ ويَدْعُو حتى صارَتْ جَلْدَةً واحدةً، فَامْتَلأَ قَبْرُهُ عليهِ نارًا، فلمَّا ارْتَفَعَ عنهُ وأفاقَ، قال: على ما جَلَدْتُمُونِي؟ قالوا: إنَّكَ صَلَّيْتَ صَلاةً بغيرِ طُهورٍ، ومَرَرْتَ على مَظْلومٍ فلمْ تَنْصُرْهُ "السلسلة الصحيحة:2774.

قلت: هذا فيمن يمر على مظلوم فلم ينصره، فكيف بمن يمر على شعب مظلوم بكامله، فلم يغضب له، ولم ينصره .. الله المستعان؟!

الوقفة السابعة والثلاثون

"رحمةً للعالمين، وسيد العالمين"

على قدر ما فيك من خير للآخرين، على قدر ما تتحقق خيريتك، ويتحدد مقامك في الدنيا والآخرة، فمن الناس من يقتصر خيره على نفسه، وأهله، ومنهم من يقتصر خيره على قبيلته وعشيرته، ومنهم من يقتصر خيره على أهل بلده، ومنهم من يقتصر خيره على قومه .. ومنهم من يقتصر خيره على أتباع دينه وملته، ومنهم من يمتد خيره ليشمل العالَمين، والثقلين معاً: الأنس والجن .. كل الأنس وكل الجن، وإلى يوم القيامة .. وهذا مقام سيد الخلق محمد صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم:"أحبُّ الناس إلى اللهِ أنفَعُهم للناس"[السلسلة الصحيحة:906]. هذا هو المقياس الذي على أساسه يتفاضل الناس، ويتمايزون فيما بينهم .. مقياس "منفعة الناس" في دينهم، ومعاشهم .. فأنفع الناس للناس أعلاهم منزلة، وأقربهم إلى الله تعالى .. ولما كان النبي صلى الله عليه وسلم أنفع الناس للناس؛ كل الناس .. كان سيد الناس، وأحب الناس إلى الله تعالى.

كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾الأنبياء:107.

كل العالمين؛ الإنس والجن.

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾سبأ:28.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾التوبة:128.

حتى الكافرين، كان صلى الله عليه وسلم يألم ويتحسر من أجل هدايتهم، فأنزل الله عليه: ﴿فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾فاطر:8.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: يا رسولَ الله ! هل أتى عليك يومٌ كان أشدَّ من يومِ أُحُدٍ؟ فقال صلى الله عليه وسلم:"لقد لقيتُ من قومِك، وكان أشدَّ ما لقِيتُ منهم يومَ العقبةِ، إذ عرضتُ نفسي على ابنِ عبدِ يا ليلِ بنِ عبدِ كلالٍ، فلم يُجِبْني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مهمومٌ على وجهي، فلم أَستَفِقْ إلا بقرنِ الثعالبِ، فرفعتُ رأسي فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتْني، فنظرتُ فإذا فيها جبريلُ، فناداني، فقال: إنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ قد سمع قولَ قومِك لك وما رَدُّوا عليكَ، وقد بعث إليك ملَكَ الجبالِ لتأمرَه بما شئتَ فيهم. قال صلى الله عليه وسلم: فناداني ملكُ الجبالِ وسلَّم عليَّ، ثم قال: يا محمدُ

! إنَّ اللهَ قد سمِع قولَ قومِك لكَ، وأنا ملَكُ الجبالِ، وقد بعثَني ربُّك إليك لتأمرَني بأمرِك، فما شئتَ؟ إن شئتَ أن أُطبقَ عليهم الأخشبَينِ ــ أي الجبلين ــ. فقال له رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "بل أرجو أن يُخرِجَ اللهُ من أصلابِهم من يعبدُ اللهَ وحدَه، لا يشركُ به شيئًا" مسلم.

ما أعظم، وأرحم محمدا ... يُسيئون إليه .. ويُغرون به سفهاءهم .. ويكذّبونه .. ويردون عليه أسوأ رد .. ثم عندما يخيره ربه في أمرهم .. وأن يحكم فيهم بما يشاء؛ فحكمه فيهم نافذ على الفور غير مؤجل ولا مردود .. يختار لهم الحياة .. والسلامة .. والهداية، عسى أن يخرج من أصلابهم من يوحد الله ولا يُشرك به شيئاً!

ونحوه، عن أبي هريرة، قال: قدِم طُفَيلُ بنُ عمرٍو الدَّوسِيُّ وأصحابُه، على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقالوا: يا رسولَ اللهِ، إنَّ دَوسًا عصَتْ وأبَتْ، فادْعُ اللهَ عليها! فقيل: هلَكَتْ دَوسٌ ــ فظنَّ الناسُ أنه سيدعو عليهِم ــ فاستَقبل صلى الله عليه وسلم القبلةَ، ورفع يدَيه فقال: "اللهمَّ اهدِ دَوسًا وأَتِ بهم. اللهمَّ اهدِ دَوسًا وأَتِ بهم. اللهمَّ اهدِ دَوسًا وأَتِ بهم" ثلاثاً. أخرجاه في الصحيحين وغيرهما.

كذلك كان صلى الله عليه وسلم يوجه أصحابه، والمسلمين من بعده، من أجل العمل على هداية الناس إلى الحق والخير؛ وهو أنفع وأفضل ما يقدمه إنسان لإنسان؛ أن يدله على طريق الحق، والنجاة،

والخير، في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهَّ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾فصلت:33.

وفي الحديث، قال صلى الله عليه وسلم:"فواللهِ لَأن يُهدى بك رجلٌ واحدٌ خيرٌ لك من حُمْرِ النَّعَمِ" البخاري. أي الإبل الحمراء؛ أفضل أنواع الإبل.

وعن أنس بن مالك، قال: كان غُلامٌ يَهودِيٌّ يَخدِمُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فمَرِض، فأتاه النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يَعودُه، فقعَد عِندَ رَأسِه، فقال له:"أسلِمْ". فنظَر إلى أبيه وهو عندَه، فقال له: أطِعْ أبا القاسمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فأسلَم، فخرَج النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يقولُ: "الحمدُ للهِ الذي أنقَذه من النارِ " البخاري.

وترغيباً في فعل الخير، والتدليل عليه، جعل صلى الله عليه وسلم الدال عليه من حيث الأجر والمثوبة كفاعله، فقال صلى الله عليه وسلم:"إنَّ الدَّالَّ على الخيرِ كفاعِلِهِ"[صحيح الجامع:1605].

ولما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم .. هو رسول الخير والرحمة .. للناس كل الناس .. وهو خير الناس للناس .. وإلى يوم القيامة .. استحق أن يكون سيد ولد آدم، كما في الحديث، فقد صح عنه صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "أنا سيدُ ولدِ آدمَ ولا فخر، وأنا أولُ من تنشقُّ الأرضُ عنه يومَ القيامةِ ولا فخر، وأنا أولُ شافعٍ وأولُ

مشفَّعٍ ولا فخر، ولواءُ الحمدِ بيدي يومَ القيامةِ ولا فخرَ"[صحيح ابن ماجه:3496]. وهو أعلى وأرفع مقام؛ مقام لواء الحمد .. وما سواه من الألوية فدونه .. أعطاه النبي صلى الله عليه وسلم لأنه أحمد الخلق لربه سبحانه وتعالى.

وخيره صلى الله عليه وسلم للناس، ولأمته لم ينحصر في الدنيا وحسب .. بل حتى في الآخرة .. رغم أن أبواب الجنة أول ما تفتّح له .. وبإمكانه صلى الله عليه وسلم ــ بعد أن بلغ الرسالة، وأدّ الأمانة، وجاهد في سبيل الله حق جهاده ــ أن يخلد للراحة والتمتع بالجنان .. وهذا حقه .. إلا أنه يأبى الراحة .. والسكون .. ويأبى التمتع بالجنان قبل أن يتشفع للعصاة من أمته .. ويدخل آخر عاصٍ من أمته الجنة .. فيظل يراجع ربه سبحانه وتعالى .. ويلح عليه في الدعاء والسؤال .. ويقول يا رب: أمتي، أمتي .. إلى أن يُخرج ــ بإذن الله ــ آخر موحد من النار .. بينما غيره ــ في ذلك الموقف العصيب ــ الكل يسأل الله السلامة، ويقول: نفسي، نفسي!

كما في حديث الشفاعة الصحيح، قال صلى الله عليه وسلم:"إذا كان يوم القيمة ماج الناس بعضهم في بعض، فيأتون آدم فيقولون: اشفع لنا إلى ربك، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بإبراهيم فإنه خليل الرحمن، فيأتون إبراهيم، فيقول: لست لها، ولكن عليكم

بموسى فإنه كليم الله، فيأتون موسى، فيقول: لست لها، ولكن عليكم بعيسى فإنه روح الله وكلمته، فيأتون عيسى فيقول: لست لها، ولكن عليكم بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، فيأتونني، فأقول: أنا لها، فأستأذن على ربي فيُؤذن لي، ويلهمني محامد أحمده بها لا تحضرني الآن، فأحمده بتلك المحامد، وأخر له ساجداً، فيُقال: يا محمد ارفع رأسك وقل يُسمع لك، وسلْ تُعط، واشفع تُشفّع، فأقول: يا رب، أمتي أمتي، فيُقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيُقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسلْ تُعط، واشفع تُشفّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقال: انطلق فأخرج منها من كان في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، فأنطلق فأفعل، ثم أعود فأحمده بتلك المحامد ثم أخر له ساجداً، فيُقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع لك، وسل تُعط، واشفع تُشفَّع، فأقول: يا رب أمتي أمتي، فيقول: انطلق فأخرج من كان في قلبه أدنى أدنى أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فأخرجه من النار، فأنطلق فأفعل. ثم أعود الرابعة فأحمده بتلك المحامد، ثم أخر له ساجداً، فيقال: يا محمد ارفع رأسك، وقل يُسمع، وسل تُعط، واشفع تشفع، فأقول: يا رب ائذن لي فيمن

قال لا إله إلا الله، فيقول الرب سبحانه وتعالى: وعزتي وجلالي وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله" متفق عليه.

وفي رواية عند أحمد، كل نبي يقول:"إنه لا يُهِمُّني اليومَ إلا نفسي"، إلا محمد صلى الله علي وسلم، يقول:"فيأتوني فيقولون: يا محمدُ اشفعْ لنا إلى ربِّك فلْيَقْضِ بينَنا، فأقولُ: أنا لها حتى يأذنَ اللهُ عز وجل لِمَنْ يَشاءُ ويَرْضى. فإذا أراد اللهُ تبارك وتعالى أنْ يَصْدَع بينَ خلقِه نادى منادٍ: أينَ أحمدُ وأمتُه فنحنُ الآخِرون الأولون نحنُ آخِرُ الأممِ وأولُ مَنْ يُحاسَبُ، فتُفرِجُ لنا الأممُ عنْ طريقِنا فنمضي غُرًّا محجَّلِينَ مِنْ أثَرِ الطُّهورِ، فتقولُ الأممُ: كادتْ هذه الأمةُ أنْ تكونَ أنبياءَ كلُّها فنأتي بابَ الجنةِ فآخذُ بِحَلْقَةِ البابِ فأقرَعُ البابَ فيقال: مَنْ أنت فأقولُ: أنا محمدٌ فيُفتحُ لي ....". إلى آخر الحديث الذي أورده البخاري أعلاه.

هِمة عظيمة في إرادة الخير للناس لا تُدانيها ولا تماثلها همة .. ما أحوجنا للتأسي بها .. والاغتراف من معينها ما أمكن .. صلوات ربي وسلامه عليه .. وبخاصة أننا نعيش زماناً قد سادت فيه الأنانية، وحب النفس والذات .. ولسان حال الكثير منا يقول في الدنيا قبل الآخرة: اللهم نفسي، نفسي .. وليكن بعد نفسي ما يكون .. ولا حول ولا قوة إلا بالله.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوقفة الثامنة والثلاثون

"بيت النبوّة، والوصيّة بالنساء خيراً"

كان النبي صلى الله عليه وسلم في بيته، وتعامله مع نسائه، مثلاً أعلى في الرفق، والرحمة، والعدل، وحسن المعاملة.

قال تعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾النساء: 19.

وعن عائشة رضي الله عنها أنها سئُلت عن النبي صلى الله عليه وسلم ما كان يَصنعُ في بيته؟ قالت:"كان يكون في مهنةِ أهلِه ــ تعني في خدمة أهلِه ــ فإذا حضرَت الصلاةُ، خرجَ إلى الصلاة" البخاري. فلا تمنعه مشاغل النبوة وحقوقها عن خدمة أهله، والتماس حوائجهن.

وكان صلى الله عليه وسلم يوصي بالنساء خيراً، ويحرّج على الرجال حقهن، كما في الحديث، عن المقدام بن معدي كرب، أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم قامَ في الناسِ فحمدَ اللهَ وأثنى عليه، ثم قال:"إن اللهَ يوصيكم بالنساء خيراً، إن اللهَ يوصيكم بالنساء خيراً؛ فإنهنَّ أمهاتُكم، وبناتُكُم وخالاتُكم، إن الرجلَ من أهلِ الكتابِ

يتزوجُ المرأةَ وما يعلُقُ يَداها الخيطَ، فما يرغبُ واحدٌ منهما عن صاحبه حتى يموتا هَرَماً"[27].

وقال صلى الله عليه وسلم:"لا يَفرَكُ مؤمنٌ مؤمنةً، إن كَرِه منها خُلُقاً رضي منها آخر" مسلم.

وقوله "لا يَفرَكُ"؛ أي لا يبغضها إلى حد الطلاق ..

وقال صلى الله عليه وسلم:"اللهم إني أحَرِّجُ حق الضعيفين: اليتيم، والمرأة"[صحيح الجامع: 2447].

وقوله "إني أحَرّجُ"؛ أي أشدد وألحق الحرج والإثم بمن فرّط أو قصّر بحق الضعيفين ..

وقال صلى الله عليه وسلم:"إن اللهَ سائلٌ كلَّ راعٍ عمَّا استرعاهُ؛ حَفِظَ أم ضيَّعَ، حتى يسألَ الرجلَ عن أهلِ بيته"[28].

---

[27] أخرجه الطبراني، السلسلة الصحيحة: 2871. قلت: وفي الحديث دلالة على إنصاف الحق، والثناء عليه خيراً .. والترغيب به .. ولو كان صاحب هذا الحق كافراً. وقولُه " وما يعلُقُ يَداها الخيطَ "؛ قال في النهاية: "كناية عن صغر سنّها وفقرها "ا- هـ. قلت: ولا يُستبعد أن يكون كناية عن قلة الصداق والمهر الذي يعطيه الرجل منهم للمرأة.

[28] أخرجه ابن حبان، صحيح الترغيب والترهيب: 1966. والضياع الوارد؛ يشمل الضياع المادي والمعنوي سواء.

وقال صلى الله عليه وسلم:"كفَى بالمرء إثماً أن يُضيِّعَ من يَقُوت"[29]. أي من يُعيل من النساء، والأبناء، وغيرهم ممن يدخل في رعايته.

وقال صلى الله عليه وسلم:"إن النساءَ شقائِقُ الرجال"[صحيح الجامع: 1983]. هكذا ينبغي أن تكون العلاقة بين الزوجين، علاقة الشقائق والأخوة؛ على ما تتضمنه من وفاء واحترام متبادل.

وقال صلى الله عليه وسلم:"ما أطعمتَ زوجتَكَ فهو لك صدقةٌ"[صحيح الجامع:5535].

وقال صلى الله عليه وسلم:"ما أعطى الرجلُ امرأتَه فهو صدقةٌ"[صحيح الجامع: 5540].

وقال صلى الله عليه وسلم:"وإنَّك لن تُنفقَ نفقةً تبتغي بها وجه اللهِ إلا أُجِرتَ بها حتى ما تجعلُ في فِيّ امرأتِكَ"[30].

وقال صلى الله عليه وسلم:"دينارٌ أنفقتَه في سبيلِ الله، ودينارٌ أنفقته في رقبةٍ ــ أي في فك وعتق رقبة مملوكة ــ، ودينارٌ تصدَّقتَ به

---

[29] أخرجه أبو داود والنسائي والحاكم، صحيح الترغيب والترهيب: 1965. قلت: ومن الضياع الذي يشمله الحديث، ضياعهم في الجانب التربوي التعليمي، الديني.

[30] أي ما تجعل في فمها من طعام وشراب، والحديث: متفق عليه.

على مسكين، ودينار أنفقتَه على أهلِك؛ أعظمُها أجراً الذي أنفقتَه على أهلِك" مسلم.

وعن عرباض بن سارية، قال: قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"إذا سَقى الرجلُ امرأتَه الماءَ أُجِرَ"، فقمت إليها فسقيتها وأخبرتها بما سمعت[السلسلة الصحيحة: 2736]. فالعلم للعمل .. وليس لمجرد الثراء الثقافي والعلمي!

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم مقياس الخيرية، وبرهانها بإظهار الخير للنساء؛ فعلى قدر ما يُظهر المرء من خير لزوجته أو نسائه على قدر ما يكون ذلك دليلاً على أنه من الأخيار والفضلاء، يُرجى خيره للآخرين، ومن لم يكن فيه خير لزوجته أو نسائه، فمن باب أولى أن لا يكون فيه خير لما سواهن .. فالأقربون أولى بخيره ومعروفه إن كان من ذوي الخير والمعروف.

كما في الحديث، قال صلى الله عليه وسلم:"خيارُكم خيارُكم لنسائهم"[صحيح الجامع: 3265].

وقال صلى الله عليه وسلم:"خيرُكم خيرُكم لأهلِه، وأنا خيرُكم لأهلي"[صحيح الجامع: 3314].

وقال صلى الله عليه وسلم:"خيركُم، خيركُم للنساء"[صحيح الجامع: 3316].

وقال صلى الله عليه وسلم:"أكملُ المؤمنين إيماناً أحسنُهم خُلُقاً، وخِيارُهم خِيارُهم لنسائهم"[31].

ومن الخير الذي يجب أن يُبذل لهن، تعليمهن الخير، وأن لا يُكتم عنهن علماً يحتجنه، وينفعهن في دينهن ودنياهن، كما قال تعالى: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾طـه:132. ومن لوازم أمر الأهل بالصلاة، تعليمهن الصلاة؛ أركانها، وواجباتها، وشروطها، وآدابها.

قال صلى الله عليه وسلم:"من كتمَ عِلماً عن أهله، أُلجِمَ يومَ القيامةِ لجاماً من نارٍ"[صحيح الجامع: 6517].

وعن علي رضي الله عنه، في قوله تعالى: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَاراً﴾، قال: علِّموا أهليكم الخيرَ[صحيح الترغيب: 115].

وقال صلى الله عليه وسلم:"لا تمنعوا النساءَ حظوظَهُنَّ مِن المساجِد، إذا استأذَنَّكُم" مسلم. والمساجد تُقصَد من أجل الصلاة، وحلقات العلم.

ومن آداب النبوة المرعية مع الأهل حسن الملاطفة، والملاعبة، وممارسة اللهو المباح .. كما في الحديث عن جابرٍ، قال: قدمتُ من

[31] رواه أحمد في مسنده، وصححه الشيخ شاكر في التخريج: 7396.

سفرٍ، فأتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقال:"إذا أتيتَ أهلَك فاعمل عملاً كيِّساً". فلما أتيتُ أهلي، قلتُ: إن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال:"إذا أتيتَ أهلَك فاعمل عملاً كيِّساً"، قالت: دونك[32].

وعن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل من غزوةٍ فقال:"يا أيها الناس! لا تطرقوا النِّساءَ ليلاً، ولا تغتروهنَّ"[السلسلة الصحيحة: 3085].

وقوله "ولا تغتروهُنَّ"؛ أي لا تدخلوا عليهن فجأة على حين غرّة؛ فترون منهن ما لا يسركم من إهمالٍ للمظهر، وهو كذلك يؤذي المرأة الصالحة التي لا تحب أن يرى منها زوجها ما يُسيئها ويُسيئه من كآبة المنظر، وعدم التزين والتجمل، والظهور بالمظهر الجميل اللائق باستقباله.

وعن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: دخل الحبشةُ المسجدَ يلعبون، فقال لي:يا حُمَيْراء أتحبين أن تنظري إليهم"؛ يعني إلى لعب الحبشَةَ ورقصِهم في المسجد، فقلتُ: نعم، فقام على الباب، وجئته، فوضعتُ ذقني على عاتِقه، فأسندتُ وجهي إلى خدِّه، قالت: ومن قولهم يومئذٍ: أبا القاسم طَيِّباً، فقال رسولُ الله صلى الله

---

[32] السلسلة الصحيحة: 1190. والعمل الكيِّس: هو كل عمل مباح يرغب المرأة بزوجها ويشوقها إليه.

عليه وسلم:"حسبُكِ؟"، فقلت: يا رسول الله لا تعجل، فقام لي، ثم قال:"حسبُكِ؟"، فقلتُ: لا تعجل يا رسولَ الله! قالت: وما لي حبٌّ النظر إليهم، ولكني أحببتُ أن يبلغَ النساءَ مقامُه لي، ومكاني منه[33].

وعنها، رضي الله عنها، قالت:"أنها كانت مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، وهي جارية، قالت: لم أحمل اللحمَ، ولم أُبْدِنْ، فقال لأصحابه: تقدموا، فتقدموا، ثم قال: تعالي أسابقُك، فسابقتُه، فسبقتُه على رجلَي، فلما كان بعدُ، خرجتُ معه في سفرٍ، فقال لأصحابه: تقدَّموا، ثم قال: تعالي أسابِقُكِ، ونسيت الذي كان، وقد حملتُ اللحمَ، وبدَّنتُ، فقلت: كيف أسابقك يا رسولَ الله وأنا على هذه الحال؟ فقال: لتفعَلِن، فسابقته، فسبقني، فجعل يضحكُ، ويقول: هذه بتلكَ السَّبقةِ"[34].

فديننا فيه فسحة جميلة، كافية، وافية، ما زاد عنها أو نَقُص ضَرَّ .. والحمد لله رب العالمين.

* * * * *

---

[33] أخرجه النسائي وغيره، السلسلة الصحيحة: 3277. وقوله " يا حميراء "؛ تصغير الحمراء، يريد البيضاء، كما في النهاية.

[34] أخرجه النسائي في " عشرة النساء "، وأحمد، والطبراني، وغيرهم، وصححه الشيخ ناصر في " آداب الزفاف ".

الوقفة التاسعة والثلاثون

"النبى صلى اللّه عليه وسلم والأطفال"

فإن قيل: هل للأطفال نصيب من اهتمامات، وتوجيه، ورعاية النبي صلى الله عليه وسلم ..؟

وأين عالم الأطفال من سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم ..؟

نقول: نعم؛ للأطفال ــ أياً كان دين آبائهم ــ كل الاهتمام، والرعاية، والرفق، والرحمة من النبي صلى الله عليه وسلم.

ورعايته صلى الله عليه وسلم للطفولة امتدت إلى ما قبل مجيء الطفل للحياة .. فأوصى صلى الله عليه وسلم رجال أمته بأن يختاروا لأبنائهم المرأة الصالحة؛ ذات الدين والخلق .. ليضمنوا لأبنائهم حسن التربية، واستقامة السلوك .. كما أوصى بما يحفظ المولود من الشيطان الرجيم .. قبل أن يُقدر له الوجود، والخروج للحياة .. فقال صلى الله عليه وسلم: " أما لو أنَّ أحدَهم يقولُ حينَ يأتي أهلَه: بِسمِ الله، اللهمَّ جَنِّبني الشيطانَ، وجنِّبِ الشيطانَ ما رزَقتَنا، ثم قُدِّرَ بينهما في ذلك، أو قُضيَ ولدٌ، لم يضرَّهُ شيطانٌ أبداً "متفق عليه.

فإن جاء المولود تناولته يد النبوة ــ منذ الساعات الأولى من ولادته ــ بجملة من الإجراءات اللطيفة الرفيقة الجميلة:

كما في الحديث، عن أبي رافع، قال:"رأيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أذَّن في أُذُنِ الحسَن بن علي، حين ولدتهُ فاطِمةُ بالصَّلاةِ"[صحيح سنن أبي داود: 4258].

وعن عائشة، قالت:"كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يُؤتَى بالصِّبيانِ فيدعو لهم بالبركة، ويحنِّكُهم"مسلم. أي يحنكهم بالتمر.

وكان صلى الله عليه وسلم يقول:"مع الغلامِ عقيقَتُه؛ فأهريقُوا عنه دماً، وأَميطوا عنه الأذى"البخاري. ويكون ذلك بحلق شعر رأسه، ويُسن أن يُتصدق بوزنه فضة.

وقال:"كلُّ غلامٍ رهينةٌ بعقيقتِه، تُذبَحُ عنه يوم سابعِه، ويُحلَقُ، ويُسَمَّى"[35].

فإذا سُمي الولد باسم غير جيد، قد يترك آثاره السلبية على المولود في حياته، كان صلى الله عليه وسلم يستبدله باسم حسن وجميل

---

[35] صحيح سنن أبي داود: 2463. قالوا في تأويل الرهينة: أن الولدَ يُمنع من الشفاعة لأبيه يوم القيامة، ويحتمل أن يكون المراد أوسع من ذلك .. وهذا الحديث من جملة الأدلة الدالة على وجوب العقيقة، والله تعالى أعلم.

.. قال صلى الله عليه وسلم:"لا تُسمينَّ غُلامَكَ: يساراً، ولا رَباحاً، ولا نجيحاً، ولا أفلحَ"مسلم.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنَّ ابنةً لعمر كان يُقالُ لها: عاصيَة، فسمَّاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم جميلة[صحيح الترغيب: 1981].

وعن أبي هريرة: أن زينب بنتَ أبي سلَمَة كان اسمُها "بَرَّة"، فقيلَ: تُزكِّي نفسَها، فسمَّاها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم "زينَب" متفق عليه.

وعن شُريح بن هانئ: أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم سمِعَ قوماً يُسمون رجلاً منهم عبد الحَجَر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم:"ما اسمُك؟"، قال: عبد الحجر! قال:"لا، أنت عبدُ الله"[صحيح الأدب المفرد: 623].

وعن عائشة رضي الله عنها:"أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كان يُغيِّرُ الاسمَ القبيحَ"[36].

[36] أخرجه الترمذي، صحيح الترغيب: 1980. أقول: ينبغي أن يُراعى في انتقاء أسماء الأبناء جملة من الأمور: أن لا يفيد الاسم تزكية، وأن لا يدل معناه على معصية أو شرك، وأن يكون جميلاً من حيث دلالته ومعناه ..

وكان صلى الله عليه وسلم يوصي بتعليم الأبناء وتأديبهم، وبخاصة فيما يتعلق بفريضة الصلاة؛ لأهميتها، وخشية أن يدخل الطفل سن البلوغ، فيُجر عليه القلم .. وهو لا يصلي!

فقال صلى الله عليه وسلم:"مُروا الصبيَّ بالصلاة إذا بلغَ سبعَ سِنين، وإذا بلَغَ عشرَ سنينَ فاضربُوه عليها"[صحيح سنن أبي داود: 508].

وقال صلى الله عليه وسلم:"مُروا أولادَكُم بالصَّلاةِ وهم أبناءُ سبعِ سنين، واضربُوهم عليها وهم أبناءُ عشرِ سنين، وفرِّقُوا بينهم في المضاجع"[صحيح الجامع: 586].

وعن أبي حفص عمر بن أبي سلمة، قال: كنت غلاماً في حِجرِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، وكانت يدي تَطِيشُ في الصَّحفَةِ؛ فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يا غلامُ سَمِّ اللهَ تعالى، وكُلْ بيمينِك، وكُلْ ممَّا يليكَ". فما زالت طِعمَتي بَعْدُ. متفق عليه. أي صفة أكلي وتناولي للطعام.

وعن ابن عباس، قال: كنتُ خلفَ النبي صلى الله عليه وسلم، فقال:"يا فتى ألا أهَبُ لك، ألا أُعلِّمُك كلماتٍ ينفعك الله بهن؟

هذه جملة من الضوابط والشروط لا بد للوالدين من مراعاتها عند انتقاء أسماء أبنائهم.

احفظِ اللهَ يحفظكَ، احفظ اللهَ تجدهُ أمامَك، وإذا سألتَ فاسألِ اللهَ، وإذا استعنْتَ فاستعن بالله، واعلم أنَّه قد جَفَّ القلَمُ بما هو كائنٌ، واعلم بأنَّ الخلائِقَ لو أرادوكَ بشيءٍ لم يُرِدكَ اللهُ به لم يقدروا عليه، واعلم أنَّ النصرَ مع الصبرِ، وأنَّ الفرَجَ مع الكربِ، وأن مع العُسْرِ يُسراً"[37].

وقال صلى الله عليه وسلم:"إذا كان جُنْحُ الليلِ ــ وهي أول ساعة من الليل بعد غروب الشمس ــ فَكُفُّوا صبيانَكُم؛ فإن الشياطينَ تنتشرُ حِينئذٍ، فإذا ذهبت ساعةً من العِشَاء فخلُّوهُم"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم:"كُفُّوا صبيانَكُم عند العِشَاءِ؛ فإن للجنِّ انتشاراً وخَطَفَةً"[صحيح الجامع: 4492].

وكان صلى الله عليه وسلم يقول:"اعدِلُوا بين أولادِكُم، اعدلوا بين أبنائِكم" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم:"اعدِلوا بينَ أولادِكُمْ في النُّحَلِ، كما تُحبونَ أن يَعدِلوا بينكم في البرِّ واللُّطفِ"[صحيح الجامع: 1046].

وعن أنسٍ، قال: كان مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم رجلٌ، فجاء ابن له فقبَّلَهُ وأجلسَهُ على فَخِذه، ثم جاءت بنتٌ له فأجلَسها إلى جنبه، قال:"فهلاَّ عدَلْتَ بينهما؟!"[السلسلة الصحيحة:

[37] رواه ابن أبي عاصم في السنة، وصححه الشيخ ناصر في التخريج: 316.

3098]. فأجلست البنت على فخذك الآخر وقبلتها، كما فعلت ذلك بولدك .. فالوالد مطالب بالعدل بين الأبناء حتى في هذه الأمور.

وللنظرة القاتمة السائدة الخاطئة يومئذٍ ــ في الجاهلية ما قبل الإسلام ــ عن البنت، لمجرد كونها بنت أو أنثى .. فقد عناها النبي صلى الله عليه وسلم بمزيد من الرعاية، واللطف، والإحسان، والرفق، والرحمة .. ليحمل البشرية إلى الرشد، والعدل، والتوازن بين الأبناء والبنات، في هذا الأمر الجلل.

قال صلى الله عليه وسلم:"من ابتُلِي من هذه البنات بشيء، فأحسَن إليهنَّ، كُنَّ له سِتراً من النار"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم:"من عالَ ثلاثاً من بناتٍ يَكفِيهنَّ، ويرحمُهُنَّ، ويُرفِقُ بهنَّ، فهو في الجنَّة"[السلسلة الصحيحة:2492].

وقال صلى الله عليه وسلم:"مَن عالَ جاريتين حتى يُدرِكا، دخَلْتُ أنا وهو الجنَّة كهاتين"، وضمَّ أصابعَه . مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم:"ما من مُسلمٍ تُدرِكُه بنتان؛ فيُحسِن صُحبتَهُما إلا أدخلتاهُ الجنَّة" [صحيح الأدب المفرد: 57].

وقال صلى الله عليه وسلم:"سوُّوا بين أولادكُم في العَطيَّة، فلو كنتُ مُفضلاً أحداً لفضَّلتُ النِّساءَ"[38].

وقال صلى الله عليه وسلم:"لا تكرهوا البنات؛ فإنهنَّ المؤنِسات الغاليات"[السلسلة الصحيحة: 3206]. وغير ذلك الكثير، الكثير.

وكان صلى الله عليه وسلم ينهى الآباء أن يدعوا على أبنائهم .. فقال صلى الله عليه وسلم:"لا تدعُوا على أنفُسِكُم، ولا تدعُوا على أولادِكُم، ولا تدعوا على أموالِكم، لا تُوافِقوا من اللهِ ساعةً يُسأَلُ فيها عطاءٌ فيستجيبُ لكم" مسلم.

أما عن رحمة الحبيب صلى الله عليه وسلم بالأطفال .. وملاطفته لهم .. فهذا مجال رحب واسع لا تحوط به المجلدات .. ولكن حسبنا هنا بعض القطوف، بما يناسب الوقفات.

عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقال: أَتُقبِّلُون الصبيانَ؟ فما نقبِّلُهم! فقال

---

[38] قال ابن حجر في الفتح 253/5: أخرجه سعيد بن منصور، والبيهقي من طريقه، وإسناده حسن. قلت: والحديث من جملة الأدلة الدالة على وجوب التسوية في العطاء والهبة بين الذكور والإناث؛ بخلاف الإرث يكون:﴿ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنْثَيَيْنِ ﴾.

النبي صلى الله عليه وسلم:"أوَأَملِكُ لك ــ أي ماذا أملك لك ــ أنْ نَزعَ اللهُ من قلبِكَ الرحمة"متفق عليه.

وعن أبي هريرة، قال: قبَّلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم الحسنَ بن علي رضي الله عنهما، وعندهُ الأقرعُ ابن حابِسٍ، فقال الأقرع: إنَّ لي عشرَةً من الولدِ ما قبَّلتُ منهم أحداً، فنظر إليه رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقال:"من لا يَرحَم لا يُرحَم" متفق عليه.

وعن أنسٍ:"أخذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إبراهيمَ فقبَّلَه وشمَّهُ" البخاري.

وعن عائشة، قالت: ما رأيتُ أحداً أشبهَ برسولِ الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة كرَّمَ اللهُ وجهها؛ كانت إذا دخلت عليه قامَ إليها فأخذَ بيدها وقبَّلَها وأجلَسَها في مجلِسه، وكان إذا دخلَ عليها قامت إليه، فأخذت بيده فقبَّلتهُ وأجلَسَتْهُ في مجلِسِها[صحيح سنن أبي داود: 4347].

وعن أبي هريرة، قال كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، ليُدلِعُ لِسَانَهُ للحسن بن علي، فيرى الصبيُّ حُمرةَ لِسانِه، فيَبْهَشُ إليه.[السلسلة الصحيحة: 70]. وقوله "فيَبْهَشُ إليه"؛ أي يُسرع في مدِّ يده إليه.

عن أُمِّ خالدٍ بنتِ خالد بن يعيد، قالت: أتيتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم مع أبي، وعليَّ قميصٌ أصفَرُ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"سنَهْ سَنَهْ" ـ أي حسنةٌ حَسَنةٌ ـ قالت: فذهبتُ ألعَبُ بخاتَمِ النبوَّةِ فزَبَرَني أبي ــ أي زجرني ونهاني ــ قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"دَعْها" البخاري. دعها تلعب بخاتم النبوة؛ أشرف وأعظم موضع .. حتى تكتفي من تلقاء نفسها .. صلوات الله وسلامه عليك، يا سيدي .. يا رسول الله.

وعن أنسِ بنِ مالك، قال: إنْ كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم ليُخالِطُنا حتى يقولَ لأخٍ لي صغيرٌ:"يا أبا عُمَيْر، ما فعَلَ النُّغَيْرُ" البخاري. يُمازحه، والنُّغير طائر كان يلعب به أبو عُمير، فمات.

وعنه، قال:"كان ــ أي رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ أرحمَ النَّاس بالعيالِ والصِّبيانِ"[السلسلة الصحيحة: 2089].

وعنه، قال:"كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يمرُّ بالغُلمانِ فيُسلِّمُ عليهم، ويدعو لهم بالبركة"[السلسلة الصحيحة: 1278].

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمشي إلى بعض شأنه ومعه أصحابه رضي الله عنهم، فيأتي أطفال المدينة فيأخذون بأطراف ثوب النبي صلى الله عليه وسلم .. فيمشي معهم حيثما شاءوا!

الله أكبر .. قائد البشرية ومعلمها الأكبر .. يقوده أطفال المدينة .. فيمشي معهم ــ رأفة بهم وتواضعاً وحباً لهم ــ حيثما شاءوا ..!

وعن بريدة، قال: كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم يخطُبُ فجاءَ الحسن والحُسين رضي الله عنهما، وعليهما قميصان أحمران يَعثُران فيهما، فنزلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقطَعَ كلامَهُ، فحملَهُما، ثمَّ عادَ إلى المنبر، ثم قال: "صدق الله ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾؛ رأيتُ هذينِ يَعثُرانِ في قميصَيْهِما فلم أصبرْ حتَّى قطعتُ كلامي فحمَلتُهُما "[صحيح سنن النسائي: 1340]. ثم أخذ في الخُطبة.

وعن شدَّاد بن الهاد الليثي، قال: خرجَ علينا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في إحدى صلاتَي العِشاء، وهو حاملٌ حسناً أو حسيناً، فتقدَّم رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فوضعَهُ، ثم كبَّرَ للصلاة، فصلَّى، فسجدَ بين ظهراني صلاته سجدةً أطالها، قال أبي: فرفعتُ رأسي، وإذا الصبيُّ على ظهرِ رسولِ الله ﷺ وهو ساجدٌ، فرجعتُ إلى سُجودي، فلما قضى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، قال الناسُ: يا رسولَ الله! إنَّكَ سجدتَ بين ظهراني صلاتِكَ سجدةً أطلتَها! حتى ظننَّا أنه قد حدَث أمرٌ ــ يريدون أنه صلى الله عليه وسلم قد قُبِض! ــ أو أنه يُوحى إليك، قال: "كلُّ ذلك لم يَكُن؛ ولكنَّ ابني ارتَحَلَني، فكرِهتُ أن أُعَجِّلَهُ حتَّى يَقضِيَ حاجَتَهُ"[صحيح سنن النسائي: 1093].

وعن البراء، قال: رأيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والحسَنُ ــ صلوات الله عليه ــ على عاتقِه، وهو يقول:"اللهمَّ إنِّي أُحِبُّه، فأحِبَّه"[صحيح الأدب المفرد: 63].

وعن يعلى بن مُرَّة، أنه قال: خرجنا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ودُعينا إلى طعامٍ فإذا حُسين يلعبُ في الطريق، فأسرَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم أمامَ القوم، ثم بسَطَ يديه؛ فجعلَ الغلامُ يفرُّ هاهُنا وهاهُنا، ويُضاحِكُه النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى أخذَه، فجعَلَ إحدى يدَيه في ذقنِه والأُخرى في رأسه، ثم اعتنَقَه، ثمَّ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"حُسينٌ مني وأنا من حُسَين، أحبَّ اللهُ من أحبَّ حُسيناً، الحُسَينُ سَبطٌ من الأسباط"[صحيح الأدب المفرد: 279]. أي هو بمفرده أمة من أمم الخير.

وعن أبي هريرة، قال:"كنَّا نصلي مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم العِشاءَ، فإذا سجدَ وثبَ الحسَنُ والحُسين على ظهرِه، وإذا رَفَعَ رأسَه أخذَهما بيده من خلفِه أخذاً رفيقاً، فوضعَهُما وضعاً رفيقاً، فإذا عادَ عادا، فلمَّا صلَّى وضعهما على فخِذَيه واحداً ههنا، وواحداً ههنا.

قال أبو هريرة: فجِئتُه فقلتُ يا رسولَ الله! ألا أذهب بهما إلى أمِّهما؟ قال: لا، فبَرِقَتْ برقَةً، فقال: الحَقا بأُمِّكُما، فما زالا يمشيان في ضوئها حتى دخلا إلى أُمِّهما"[السلسلة الصحيحة: 3325].

وعن يوسف بن عبد الله بن سَلاَم، قال:"سمَّاني رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يوسف، وأقعدَني على حِجْرِه، ومسَحَ على رأسي"[صحيح الأدب المفرد: 282]. وغير هذا الكثير الكثير .. فقد كُتبت في حقوق الطفولة في الإسلام كتب ومجلدات .. والمعرض هنا معرض وقفات وخواطر وليس إقصاء لكل ما قيل في الطفولة في الإسلام، وما لها من حقوق.

وفي الختام، لا نغفل ونحن نتكلم عن سيرة الحبيب المصطفى صلى الله عليه وسلم مع الطفولة والأطفال .. من أن نشير إلى مئات الآلاف من أطفال الشام .. وهم يفترشون ــ في هذه الأيام ــ الثلوج في مخيمات اللجوء والمهجر .. وقد مات الكثير منهم بسبب البرد، والجوع .. بينما الشعوب، ومعها دولها التي تتشبع ــ زوراً ــ بالتحضر، والرقي، والإنسانية .. والتباكي على الطفولة والأطفال .. تكتفي بالتفرج على المأساة .. وفي كثير من الأحيان تكون يد عون ودعم للطاغية المجرم؛ طاغية الشام .. على هذه المأساة .. مأساة العصر .. حتى بات المراقب يعتقد أن كلاهما أصبحا شركاء في جرم قتل ووأد الطفولة وحقوقها .. لدى أطفال الشام!

* * * * *

الوقفة الأربعون

"سيرة النبى صلى اللّه عليه وسلم مع الدواب والبهائم"

لم تقتصر رحمة النبي صلى الله عليه وسلم على العالمين من الإنس والجن وحسب، بل امتدت لتشمل عالَم الدواب والبهائم .. فتعامَل معها .. وألزم أمته بأن يتعاملوا معها .. على أنها عوالم أمم أمثالكم .. تحس .. وتألم .. وتحزن .. وتفرح .. وتغضب، وترضى .. وتشكر المعروف .. بل وتعبد الله تعالى وتوحّده .. الإحسان إليها، والرفق بها واجب .. والتقصير بحقها ظلم يُحاسَب عليه المرء.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَمَن فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللهَّ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللهَّ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾الحج:18.

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَّ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرُ صَافَّاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللهَّ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾النور:41.

وقال تعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدَهِ وَلَـكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً﴾الإسراء:44.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلاَ طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلاَّ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم﴾الأنعام:38.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"من رَحِمَ ولو ذبيحةَ عصفورٍ رَحِمه الله يومَ القيامة"[السلسلة الصحيحة:27].

قال رجلٌ: يا رسولَ الله! إنِّي لأَذبَحُ الشاةَ فأرحمها. قال:"والشَّاةَ إن رحمتَهَا رحِمَكَ اللهُ" [السلسلة الصحيحة:26].

وعن عبد الله بن عمر، أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم أمرَ بحدِّ الشِّفَار، وأن تُوارى عن البهائم"[39]. حتى لا يقع بصرها عليها !..

وعن ابن عباس، قال: مرَّ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم على رجل واضعٌ رجلَه على صَفحَةِ شاة ــ أي على عنقها ــ وهو يحدُّ

[39] أخرجه أحمد في المسند، وقال عنه الشيخ شاكر 134/8: إسناده صحيح. وقوله " الشِّفار "؛ أي السكاكين المُعدَّة لذبح البهائم.

شفرَته، وهي تلحظُ إليه ببصرها، فقال:"أفلا قبلَ هذا؟! أتُريد أن تُميتها موتتين؟!"[السلسلة الصحيحة: 24].

وفي رواية:"أتريدُ أن تُميتَها موتات؟! هلاَّ حدَدتَ شفرَتَك قبلَ أن تَضجَعها ؟!"[40].

وقال صلى الله عليه وسلم:"إذا أخصبَت الأرض فانزلوا عن ظهركم، وأعطوه حقَّه من الكَلأ، وإذا أجدبت الأرض فامضوا عليها .."[41].

قوله "فانزلوا عن ظهركم"؛ أي عن ظهر دوابكم التي تركبونها؛ كالإبل، والخيل، والبغال، والحمير .. لتأخذ حقها من الراحة والمرعى .. فإن مررتم بأرض لا كلأ فيها ولا ماء فامضوا عليها، ولا تقيلوا دوابكم فيها؛ لأنها تُحرَم فيها من حقها بالمرعى.

وقال صلى الله عليه وسلم:"إذا سرتم في أرض خصبةٍ، فأعطوا الدواب حقَّها أو حظَّها، وإذا سرتم في أرضٍ جدبة فانجوا

---

[40] أخرجه الحاكم في المستدرك 231/4، وقال: صحيح على شرط البخاري، ووافقه الذهبي.

[41] أخرجه الطحاوي في المشكل، والخطيب، والبيهقي، السلسلة الصحيحة: 682. وقوله " وعليكم بالدلجة "؛ أي بالسفر والسير ليلاً.

عليها، وعليكم بالدُّلجة؛ فإن الأرض تُطوى بالليل، وإذا عرَّستم، فلا تُعرِّسوا على قارعة الطريق فإنها مأوى كل دابة"[42].

وعن سراقة بن مالك، قال: أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة فلم أدرِ ما أسأله عنه، فقلت: يا رسولَ الله! إني أملأ حوضي انتظر ظهري ــ أي ناقتي ــ يرد علي، فتجيء البهيمة فتشرب، فهل في ذلك من أجر؟ فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"لك في كلِّ كَبِدٍ حَرَّى أَجرٌ"[السلسلة الصحيحة: 2152]. وقوله "في كلِّ كَبِدٍ حَرَّى"؛ أي كل كبد عطشى لما أصابها من الحَرِّ والجفاف.

وقال صلى الله عليه وسلم: "بينما رجلٌ يمشي بطريق؛ إذا اشتدَّ عليه العطَشُ، فوجد بئراً، فنزلَ فيها فشرب ثم خرج، فإذا كلبٌ يلهَثُ يأكل الثَّرَى من العطش، فقال الرجلُ: لقد بلغَ هذا الكلبَ من العطَشِ مِثلُ الذي كان بلغَ بي، فنزل البئرَ، فمَلأ خُفَّهُ، ثم أمسكَهُ بفِيه حتى رَقِيَ فسقى الكلبَ، فشكرَ اللهُ له، فغفرَ له". قالوا: يا رسولَ الله! وإنّ لنا في البهائِم لأجراً؟ فقال:"في كل ذاتِ كَبِدٍ رطَبَةٍ أجرٌ

---

[42] أخرجه البزار والبيهقي، السلسلة الصحيحة: 1357. وقوله " فانجوا عليها "؛ أي أسرعوا عليها. وقوله " عرَّستم "؛ أي حططتم رحالكم وأمتعتكم للاستراحة أو المبيت .. فلا تتوسطوا الطريق.

"متفق عليه. وقوله" في كل ذاتِ كَبِدٍ رطَبَةٍ أجرٌ"؛ يشمل الإنسان وكل حيوانٍ ذي كبدٍ يحتاج إلى ماء.

وقال صلى الله عليه وسلم:"بينما كَلبٌ يُطِيفُ بِرَكيّةٍ ــ بئر من الماء ــ قد كادَ يقتلُه العطَشُ؛ إذْ رأته بغيٌّ من بغَايا بني إسرائيل، فنَزَعت مُوقَها ــ أي خفَّها ــ فاستقت له به فسقته إياه، فغُفِرَ لها به" متفق عليه.

وعن المنهال بن عمرو عن يعلى بن مرة، عن أبيه، قال: سافرتُ مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فرأيتُ منه شيئاً عجباً، أتاه بعير فقام بين يديه، فرأى عينيه تدمُعان، فبعث إلى أصحابه، فقال:"ما لبعيركم هذا يشكوكم؟!" فقالوا: كنا نعملُ عليه، فلما كبر وذهبَ عملُه، تواعدنا لننحره غداً. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"لا تنحروه، واجعلوه في الإبل يكون معها"[السلسلة الصحيحة: 485].

عن يحيى بن سعيد: أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم رُؤي وهو يمسح وجه فرسه بردائِه، فسُئِل عن ذلك؟ فقال:"إني عُوتِبتُ الليلةَ في الخيل"[السلسلة الصحيحة: 3187].

وعن أنس بن مالك قال: "كنَّا إذا نزلنا منزلاً، لا نُسبِّح حتى نَحُلَّ الرِّحال"[صحيح سنن أبي داود: 2224]. وقوله "لا نُسبِّح حتى نَحُلَّ الرِّحال"؛ أي لا ننشغل بصلاة الضحى، وغيرها من النوافل إلا

بعد أن نُنزل الرحال عن ظهور الإبل وغيرها من البهائم التي يرتحل عليها، طلباً لراحتها، ورفقاً بها، ومراعاة لحقها في الراحة، وطلب المرعى.

وعن جابر: أنَّ النبي صلى الله عليه وسلم مُرَّ عليه بحمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال:"أما بلَغَكُم أني قد لعنتُ من وسَمَ البهيمةَ في وجهها، أو ضربها في وجهها؟" فنهى عن ذلك[43].

وقال صلى الله عليه وسلم:"اركبوا هذه الدَّوابَ سالمةً، وايتدِعوها سالمةً، ولا تتخذوها كراسِيَّ"[السلسلة الصحيحة:21].

وقوله "ولا تتخذوها كراسي"؛ أي مقاعد، للراحة والسمر، لغير أغراض التنقل والسفر .. ففي الأرض غناً عن ذلك. وقوله "اركبوا هذه الدَّوابَ سالمةً"؛ فيه نهي عن استخدامها أو ركوبها وهي مريضة.

وقال صلى الله عليه وسلم:"إيَّاكم أن تتخذوا ظهورَ دوابِّكم منابِرَ؛ فإن اللهَ إنما سخَّرها لكم لتبلغكم إلى بلدٍ لم تكونوا بالغيه إلا بِشِقِّ الأنفُسِ، وجعل لكم الأرضَ؛ فعليها فاقضوا حاجاتكم"[صحيح سنن أبي داود: 2238].

---

[43] صحيح سنن أبي داود: 2235. والوسم؛ أثَر الكيِّ لتُميَّز به الدواب عن غيرها.

وعن عبد الله بن جعفر، قال: دخل النبيُّ صلى الله عليه وسلم حائطاً لرجلٍ من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبيَّ صلى الله عليه وسلم ؛ حَنَّ وذرفت عيناه، فأتاه النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فمسَحَ ذَفرَاه ــ أي ذفر دمعه عن موضعه ــ فسكَتَ، فقال:"من ربُّ هذا الجمل؟ لمن هذا الجمل؟!"، فجاء فتى من الأنصار، فقال: لي يا رسولَ الله! فقال:"أفلا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملَّكَكَ اللهُ إيَّاها، فإنه شكا إليَّ أنك تُجيعهُ وتُدئِبه"[صحيح سنن أبي داود: 2222]. أي وتتعبه، وتكلفه فوق طاقته!

وقال صلى الله عليه وسلم:"عُذِّبت امرأةٌ في هرَّةٍ؛ سجنتها حتى ماتت فدخلت فيها النار؛ لا هي أطعمتها ولا سقتها إذْ حبستها، ولا هي تركتها تأكلُ من خشَاشِ الأرض" متفق عليه. أي من هوام الأرض وحشراتها.

وقال صلى الله عليه وسلم:"لو غُفِر لكم ما تأتون إلى البهائم لغُفِر لكم كثيراً"[السلسلة الصحيحة: 514]. والمراد من الحديث أن الله تعالى لو غفر لابن آدم تقصيره بحقوق البهائم، وما يتسبب لها من أذى وضرر لغُفر له كثيراً من ذنوبه وخطاياه.

عن سوادة بن الربيع، قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم، وأمر لي بذَود ــ أي بإبل ــ قال لي: "مُرْ بنيك أن يقصوا أظافِرَهم عن

ضروعِ إبلهم ومواشِيهم"، وقل لهم: "فليحتلبوا عليها سِخَالها، لا تدركها السَّنَةُ وهي عِجَافٌ"[السلسلة الصحيحة: 1936]. وقوله "لا تدركها السَّنَةُ وهي عِجَافٌ"؛ أي لا ينبغي أن تبلغ السِّخال ابناء المواشي السنة وهي ضعيفة؛ إذ يجب أن تُعطى حقها من الرضاعة، ومن حليب أمهاتها. والأمر بقص الأظافر عند ضروع الإبل والمواشي؛ أي عند احتلابها، وحتى لا تتأذى الضروع بأظافر حالبها.

وعن عبد الله بن مسعود: أنَّ النَّبي صلى الله عليه وسلم نزل منزلاً فأخذ رجلٌ بيضَ حُمَّرة ــ اي طائر صغير أحمر اللون ــ فجاءت تَرِفُّ على رأسِ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:"أيُّكم فَجَعَ هذه بيضتها؟" فقال رجل: يا رسولَ الله أنا أخذتُ بيضتها، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم:"اردُدْهُ؛ رحمةً لها"[صحيح الأدب المفرد: 295].

وفي رواية عنه، قال: كنا مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفرٍ، فانطلَقَ لحاجته، فرأينا حُمَّرةً معها فرخان، فأخذنا فرخَيها، فجاءت الحمَّرة فجعلت تَفرشُ، فجاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال:"مَن فجعَ هذه بولدها؟ رُدُّوا ولَدَها إليها"، ورأى قرية نملٍ قد حرقناها، فقال: من حرَقَ هذه؟"، قلنا: نحنُ، قال:"إنه لا ينبغي أن يُعذِّبَ بالنارِ إلا ربُّ النار"[صحيح سنن أبي داود: 2329].

وقال صلى الله عليه وسلم:"أنَّ نملةً قرصَت نبياً من الأنبياء، فأمرَ بقريَّة النَّملِ فأُحرِقَت، فأوحى الله عز وجل إليه: أفي أنْ قَرصَتْكَ نملةٌ، أهلكتَ أمَّةً من الأممِ تُسَبِّحُ ؟!"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم:"نزلَ نبيٌّ من الأنبياء تحتَ شجرةٍ، فلدَغَتْهُ نملةٌ، فأمرَ بجهازه، فأُخرِجَ مِن تحتِها، ثم أمرَ بها فأُحرِقت ــ وفي رواية عند النسائي: فأمرَ ببيتهنَّ فحُرق على ما فيها ــ فأوحى اللهُ إليه: فهَلاَّ نملةً واحدةً"مسلم. أي فهلا عاقبت نملة واحدة التي لدغتك وحسب .. وقوله تعالى: ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾الأنعام:164. كما يُحمل على الإنسان، فإنه يُحمل على التعامل مع الحيوانات والبهائم كذلك.

وعن هشام بن زيدٍ قال: دخلتُ مع أنسٍ على الحَكَم بن أيوب، فرأى غلماناً أو فتياناً نصبوا دجاجةً يرمونَها، فقال أَنَس: "نهى النبيُّ أن تُصْبَرَ البهائمُ "متفق عليه. أي أن تكون غرضاً وهدفاً للرمي؛ فتقتل صبراً!

وقال ابن عمر رضي الله عنه:"لعنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مَن مثَّلَ بالحيوان"متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن أعظمَ الذنوبِ عند الله ــ عدّ ثلاثاً، منهم ــ: رجلٌ يقتلُ دابَّةً عَبَثاً" [السلسلة الصحيحة: 999]. ومن

العبث؛ أن تُقتَل من أجل متعة الصيد أو تجريب السلاح، أو للاستعراض كما يحصل في ميادين مصارعة الثيران!

كذلك قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التحريش بين البهائم، أو إخصائها .. كما في الحديث، عن ابن عمر:"أنه كره أن يُحرَّش بين البهائم"[صحيح الأدب المفرد: 936]. وهو أن تحمل البهائم على أن تقاتل بعضها البعض!

وعن ابن عباس، عن النبي صلى الله عليه وسلم:"نهى عن صبر الروحِ، وخِصاء البهائم"[44].

وعن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم:"نهى عن خِصاء الخيل، والبهائم"[صحيح الجامع: 6956].

وعن ابن عباس:"أن رسولَ الله صلى الله عليه وسلم نهى عن صبرِ ذِي الروح، وعن إخصاء البهائم نهياً شديداً"[45].

---

[44] رواه البيهقي في السنن، صحيح الجامع: 6960. الإخصاء؛ قتل الفحولة عند ذكور الدواب لكي تقوى على الخدمة ـــ كالفلاحة ونحوها ـــ بصورة أحسن، أو تتفرغ للخدمة، فلا تجد في نفسها ميولاً نحو إناثها، وهذا لا يجوز!

[45] قال الهيثمي في مجمع الزوائد 5/265: رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح.

كذلك نهى صلى الله عليه وسلم عن حملِ الحمير على الخيل؛ من أجل أن تلد بغالاً .. لما في ذلك من أذى وامتهان للخيل، وتعطيل لوظيفتها الأساسية والأهم؛ وهي استخدامها في ساحات وميادين القتال والجهاد في سبيل الله .. كما في الحديث عن علي بن أبي طالب، قال: أُهديَت لرسولِ اللهِ بغلةٌ فركبها، فقال علي: لو حملنا الحميرَ على الخيلِ، فكانت لنا مثلَ هذه، قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم:"إنَّما يفعلُ ذلك الذين لا يعلمون"[صحيح سنن أبي داود: 2236].

كذلك قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم، عن قصِّ نواصي الخيل، ومعارِفها، وأذنابها .. فقال صلى الله عليه وسلم:"لا تَقُصُّوا نواصِيَ الخيلِ، ولا معارِفَها، ولا أذنابَها؛ فإن أذنابَها مذَابُّها، ومعارِفَها دِفاؤها، ونواصيها معقودٌ فيها الخير"[46].

وغير ذلك الكثير، الكثير .. من التوجيهات النبوية الشريفة ذات العلاقة بحقوق الدواب والبهائم .. مما يدل على أن ديننا الإسلام هو السبّاق لمراعاة هذا الحق قبل غيره .. الذي بات "الغرب" مؤخراً يتطاول به علينا .. زاعماً زوراً أنه أول من تنبّه له!

---

[46] صحيح سنن أبي داود: 2217. معارف الخيل؛ أي شعرها المتدلي على رقبتها. وقوله " أذنابها مذَابُّها "؛ أي تذب بأذنابها ما يعلق بها من حشرات، وأمور ضارة.

الوقفة الحادية والأربعون

"صور من اجتهاد النبى صلى اللّه عليه وسلم فى العبادة"

قال تعالى: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً * نِصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً﴾المزّمّل:2-4.

عن علقمة، قال: سأَلْتُ أَمَّ المؤمنينَ عائشةَ قلتُ: يا أَمَّ المؤمنينَ، كيف كان عملُ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، هل كان يخُصُّ شيئًا من الأيامِ؟ قالتْ: لا، كان عملُه دِيمَةً ــ أي دائماً ديمومة المطر في سكون ــ وأيُّكم يستطيعُ ما كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يستطيعُ. البخاري.

وعن حذيفة بن اليمان، قال: صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ذاتَ ليلةٍ، فافتتح البقرةَ، فقلتُ: يركع عند المائةِ، ثم مضى. فقلتُ: يصلي بها في ركعةٍ. فمضى. فقلتُ: يركع بها. ثم افتتح النساءَ فقرأها، ثم افتتح آلَ عمرانَ فقرأها، يقرأ مُترسِّلًا ــ أي بهدوء من غير استعجال ــ إذا مرَّ بآيةٍ فيها تسبيحٌ سبَّحَ، وإذا مرَّ بسؤالٍ سأل، وإذا مرَّ بتعوُّذٍ تعوَّذَ، ثم ركع فجعل يقول"سبحانَ ربيَ العظيمِ" فكان ركوعُه نحوًا من قيامِه. ثم قال " سمع اللهُ لمن حمدَه ربَّنا لك الحمدُ " ثم قام طويلًا، قريبًا مما ركع. ثم سجد فقال " سبحان ربيَ الأعلى فكان سجودُه قريبًا من قيامِه " مسلم.

وعن عبد الله بن مسعود قال: صلَّيتُ مع النبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليلةً، فلم يزلْ قائمًا حتى هممتُ بأَمْرِ سوءٍ! قلنا: وما هممتَ؟ قال: هممتُ أن أقْعُدَ وأَذَرَ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ. متفق عليه.

وعن عبد الله بن عباس، قال: أنه بات عندَ ميمونةَ زوجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وهي خالتُه، قال: فاضطجَعْتُ في عَرْضِ الوِسادَةِ، واضطجَعَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأهلُه في طولِها، فنامَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم حتى انتصَفَ الليلُ، أو قبلَه بقليلٍ، أو بعدَه بقليلٍ، ثم استَيْقَظَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فجَعَلَ يَمْسَحُ النومَ عن وجهِه بيديه، ثم قرَأَ العشرَ الآياتِ الخواتمَ مِن سورةِ آلِ عمرانَ، ثم قام إلى شَنٍّ مُعَلَّقَةٍ ــ القربة من الجلد ــ فتَوَضَأَ منها، فأَحَسَنَ وضوءَه، ثم قام يُصَلِّي، فصَنَعَتُ مثلَ ما صنَعَ ، ثم ذهبْتُ فقُمْتُ إلى جنبِه ، فوضَعَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يدَه اليمنى على رأسي، وأخَذَ بيدِه اليمنى يَفْتِلُها ــ وفي رواية: وأخَذَ بأُذُني اليمنى يَفْتِلُها ــ فصلى ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم ركعتين، ثم أَوْتَرَ، ثم اضطجَعَ حتى جاءه المؤذنُ، فقام فصلى ركعتين خفيفتين، ثم خرَجَ فصلى الصبحَ. متفق عليه.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها: كانَ يصلِّي قبلَ الظُّهرِ أربعًا في بيتي ثمَّ يخرجُ فيصلِّي بالنَّاسِ، ثمَّ يرجِعُ إلى بيتي فيصلِّي ركعتينِ،

وكانَ يصلِّي بالنَّاسِ المغربَ ثمَّ يرجعُ إلى بيتي فيصلِّي ركعتينِ، وكانَ يصلِّي بهمُ العشاءَ ثمَّ يدخلُ بيتي فيصلِّي ركعتينِ وكانَ يصلِّي منَ اللَّيلِ تسعَ ركعاتٍ فيهنَّ الوترُ وكانَ يصلِّي ليلًا طويلًا قائمًا، وليلًا طويلًا جالسًا فإذا قرأَ وهوَ قائمٌ ركعَ وسجدَ وهوَ قائمٌ، وإذا قرأَ وهوَ قاعدٌ ركعَ وسجدَ وهوَ قاعدٌ، وكانَ إذا طلعَ الفجرُ صلَّى ركعتينِ ثمَّ يخرجُ فيصلِّي بالنَّاسِ صلاةَ الفجرِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ.[صحيح أبي داود:1251].

وعنها، قالت: كان يُصلِّي قبلَ الظهرِ أربعًا، يُطيلُ فيهنَّ القيامَ، و يُحسنُ فيهنَّ الركوعَ والسجودَ، فأمَّا لم يكن يَدَعُ صحيحًا ولا مريضًا ولا غائبًا ولا شاهدًا؛ فركعتينِ قبل الفجرِ.[السلسلة الصحيحة:2705].

وعن مسروق، قال: سألتُ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها، عن صلاةِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ بالليلِ ، فقالت: "سبعٌ، وتسعٌ، وإحدى عشرةَ، سِوَى ركعتيْ الفجرِ "البخاري. أي ركعتي سنّة الفجر.

وعن أنس بن مالك، قال: "كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يُفْطِرُ من الشهرِ حتى نَظُنَّ أن لا يصومَ منهُ، ويصومُ حتى نَظُنُّ أن لا يُفْطِرَ منهُ شيئًا، وكان لا تشاءُ أن تراهُ من الليلِ مُصلِّيًا إلا رأيتَهُ، ولا نائمًا إلا رأيتَهُ" البخاري.

وعن المغيرة بن شعبة، قال: كان النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم يصلِّي حتى تَرِمَ، أو تنتَفِخَ قدَماه، فيُقالُ له: غفَر اللهُ لك ما تقدَّم من ذَنْبِك وما تأخَّر؟ فيقولُ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم:"أفلا أكونُ عبدًا شَكورًا"البخاري.

وفي رواية عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، قالت: كان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، إذا صلَّى، قام حتى تفطَّر رجلاه ــ أي حتى تشقَّق رجلاه!ــ قالت عائشةُ: يا رسولَ اللهِ ! أتصنعُ هذا، وقد غُفِر لك ما تقدَّم من ذنبك وما تأخَّرَ؟ فقال: "يا عائشةُ ! أفلا أكونُ عبدًا شكورًا " مسلم.

ومع ذلك، كان صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحدٍ من أصحابه أنه قد جنح في التعبد إلى التشدّد كان ينهاه، ويحمله على الاعتدال والتوسط وإنصاف بقية الحقوق من نفسه .. كما قد بلغه عن عثمان بن مظعون أنه قد ترك النساء، ليتفرغ للعبادة، فبعث إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال:"يا عثمانُ إنِّي لمْ أُومَرْ بِالرَّهْبانِيَّةِ، أَرَغِبْتَ عن سُنَّتِي؟!" قال: لا يا رسولَ اللهِ، قال:"إنَّ من سُنَّتِي أنْ أُصَلِّي وأنام، و أَصُومَ و أَطْعَمَ، وأنْكِحَ وأُطَلِّقَ، فمَنْ رَغِبَ عن سُنَّتِي فَليسَ مِنِّي، يا عثمانُ إنَّ لأهلِكَ عليكَ حَقًّا، ولنفسِكَ عليكَ حَقًّا"[السلسلة الصحيحة:394].

وعن أنس بن مالك، قال: جاء ثلاثُ رهطٍ إلى بُيوتِ أزواجِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، يَسأَلونَ عن عبادةِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فلما أُخبِروا كأنهم تَقالُّوها! فقالوا: أين نحن منَ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟ قد غفَر اللهُ له ما تقدَّم من ذَنْبِه وما تأخَّر، قال أحدُهم: أما أنا فإني أُصلِّي الليلَ أبدًا، وقال آخَرُ: أنا أصومُ الدهرَ ولا أُفطِرُ، وقال آخَرُ: أنا أعتزِلُ النساءَ فلا أتزوَّجُ أبدًا! فجاء رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقال:"أنتمُ الذين قلتُم كذا وكذا؟! أما واللهِ إني لأخشاكم للهِ وأتقاكم له، لكني أصومُ وأُفطِرُ، وأُصلِّي وأرقُدُ، وأتزوَّجُ النساءَ، فمَن رغِب عن سُنَّتي فليس مني" البخاري.

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها، قالت: كانَ لِرَسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حَصيرةٌ، يَبسُطُها بالنَّهارِ، ويحتَجِرُها باللَّيلِ ــ يجعل منها كالحُجْرة ــ فيصلِّي فيها، ففَطِنَ لَه النَّاسُ، فَصلَّوا بصَلاتِه وبينَه وبينَهمُ الحصيرَةُ، فقالَ:"اكلَفوا منَ العمَلِ ما تُطيقونَ فإنَّ اللهَ عزَّ وجلَّ لا يَملُّ حتَّى تَملُّوا، وإنَّ أحبَّ الأعمالِ إلى اللهِ عزَّ وجلَّ أدوَمُهُ، وإن قَلَّ"[صحيح النسائي:761].

وعنها، قالت: أنَّ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ سُئِلَ: أيُّ العملِ أحَبُّ إلى اللهِ؟ قال:"أدْومُه وإن قَلَّ" مسلم.

* * * * *

الوقفة الثانية والأربعون

"صور من زهد وعيش النبى صلى اللّه عليه وسلم"

تُعرَض على النبي صلى الله عليه وسلم الدنيا وزينتها، فيأباها ولا يرضى منها لنفسه، وآل بيته الأطهار إلا الكِفاف من الرزق .. قال صلى الله عليه وسلم:"اللهمَّ اجعلْ رزقَ آلِ محمدٍ قوتًا" مسلم. وفي رواية:"اللهُمَّ ارْزُقْ آلِ مُحمدٍ كِفافًا".

وعن عباس بن ربيعة قال: قُلْتُ لعائشةَ: أنَهَى النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم أن تؤكَلَ لُحومُ الأضاحي فوقَ ثلاثٍ؟ قالتْ: ما فعَله إلا في عامٍ جاعَ الناسُ فيه، فأراد أن يُطعِمَ الغنيُّ الفقيرَ، وإن كنا لنَرفَعُ الكِراعَ ــ وهو الساق من الغنم أو البقر العاري من اللحم ــ فنأكلُه بعد خمسَ عشْرةَ، قِيلَ: ما اضطرَّكم إليه؟ فضحِكَتْ، قالتْ:"ما شبعَ آلُ محمدٍ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من خُبزِ بُرٍّ مَأدومٍ ثلاثةَ أيامٍ حتى لحِقَ باللهِ" البخاري.

وفي رواية، قالت:"ما شبع رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ ثلاثةَ أيامٍ تِباعًا، من خبزِ بُرٍّ، حتى مضى لسبيلِه" مسلم.

وكان أبو هريرة، يقول: "والذي نفسُ أبي هريرة بيدِه، ما شبع نبيُّ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وأهلُه، ثلاثةَ أيامٍ تباعًا، من خبزِ حنطةٍ، حتى فارق الدُّنيا" مسلم.

وفي رواية عند البخاري: "ما شَبِعَ آلُ محمدٍ صلى الله عليهِ وسلمَ
من طعامٍ ثلاثةَ أيامٍ حتَّى قُبِضَ".

وعن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت لعروة: ابن أختي، إنْ كنا لننظُرُ إلى الهلالِ ثلاثةَ أهِلَّةٍ في شهرينِ، وما أوقِدَتْ في أبياتِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم نارٌ، فقلتُ: ما كان يُعِيشُكم؟ قالتْ: الأسوَدانِ التمرُ والماءُ، إلا أنه قد كان لرسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم جيرانٌ منَ الأنصارِ، كان لهم مَنائِحُ ــ ذوات اللبن من المواشي ــ وكانوا يَمنَحونَ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من أبياتِهم فيَسقيناه. متفق عليه.

وعنها، رضي الله عنها قالت: "كان فراش رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم مِن أَدَمٍ ــ وهو الجلد المدبوغ ــ وحشوُه من لِيفٌ".متفق عليه.

وعنها، قالت: "كانَ وسادةُ رسولِ اللهَّ صلَّى اللهُّ عليهِ وسلَّمَ الَّتي ينامُ عليها باللَّيلِ من أدمٍ حشوُها ليفٌ" [صحيح أبي داود: 4146].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: "لقد رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يظلُّ اليومَ يلْتَوي، ما يجدُ دَقَلًا يملأُ به بطنَه" مسلم. والدقل؛ هو التمر اليابس الرديء!

وعن قتادة بن دعامة، قال: كنا نأتي أنسَ بنَ مالكٍ وخبَّازُه قائمٌ، وقال: "كُلوا، فما أعلَمُ النبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رأى رَغيفًا مُرَقَّقًا حتى لحِق باللهِ، ولا رأى شاةً سَميطًا بعينِه قَطُّ" البخاري. " شاةً سَميطًا "؛ أي شاة مشوية.

وعن أبي هريرة، أنه مرَّ بقومٍ بين أيديهم شاةٌ مَصلِيَّةٌ، فدَعَوه، فأبَى أن يأكُلَ، قال: "خرَج رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم من الدنيا ولم يَشبَعْ من الخُبزِ الشَّعيرِ" البخاري.

وعن أبي حازم، قال: سألتُ سهلَ بنَ سعدٍ: هل أكل رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النقيَ؟ فقال سهلٌ: ما رأى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ النقيَّ، من حين ابتعثه اللهُ حتى قبضه اللهُ. قال: فقلت: هل كانت لكم في عهد رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مناخلُ؟ قال: ما رأى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ مَنخُلًا، من حين ابتعثه اللهُ حتى قبضه. قال: قلت: كيف كنتم تأكلون الشعيرَ غير منخولْ؟ قال: كنا نطحنُه وننفخُه، فيطير ما طار، وما بقي ثرَّيناه فأكلناهُ. البخاري.

وعن ابن عباس، قال: "كان يَبِيتُ اللياليَ المُتَتَابِعَةَ طاوِيًا وأهلُهُ، لا يَجِدُونَ عَشاءً، وكانَ أكثرُ خُبْزِهمُ خبزَ الشَّعيرِ" [صحيح الجامع:4895].

وعن عائشة رضي الله عنها، قالت: توفي رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقَدْ شَبِعنا مِن الأسوَدَينِ: التَّمرِ والمَاءِ. البخاري.

وفي رواية عند مسلم: "وما شبِعْنا من الأسودَينِ".

أَتَى أبو طَلْحةَ أُمَّ سُلَيْمٍ وهي أُمُّ أَنَسِ بنِ مالكٍ وأبو طَلْحةَ رابُّه فقال عندَكِ يا أُمَّ سُلَيمٍ شيءٌ فإنِّي مرَرْتُ على رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وهو يُقرِئُ أصحابَ الصُّفَّةِ سورةَ النِّساءِ وقد ربَط على بطنِه حجَرًا مِن الجوعِ فقالت كان عندي شيءٌ مِن شَعيرٍ فطحَنْتُه ثمَّ أرسَلَتْني إلى الأسواقِ والأسواقُ حوائطُ لهم فأَتَيْتُهم بشيءٍ مِن حطَبٍ فجعَلَتْ منه قُرصًا ثمَّ قال أعندَكِ أُدْمٍ فقالت كان عندي نِحْيٌ فيه سَمْنٌ فلا أدري أبقِي فيه شيءٌ فأَتَيْتُه به فعصَرْتُه. فقال: إنَّ عَصْرَ اثنَيْنِ أبلَغُ مِن عصرِ واحدٍ، فعصَرا جميعًا فأخرَجا منه مِثْلَ التَّمرةِ فدهَنَتْ به القُرصَ ثمَّ دعاني فقال يا أَنَسُ تحرَّى رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فقُلْتُ نَعَمْ فقال: إنِّي قد ترَكْتُه مع أصحابِ الصُّفَّةِ يُقرِئُهم فادْعُه ولا تَدْعُ معه غيرَه انظُرْ ألَّا تفضَحَني! فأَتَيْتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فلمَّا رآني قال لعلَّ أباكَ أرسَلكَ إلينا؟ قُلْتُ: نَعَمْ. فقال للقومِ:

انطلِقوا، فانطلَقوا يومَئذٍ وهم ثمانونَ رجُلًا فأمسَك بيدي فلمَّا دنَوْتُ مِن الدَّارِ نزَعْتُ يدي مِن يدِه فجعَل أبو طَلْحَةَ يطلُبُني في الدَّارِ ويرميني بالحجارةِ ويقولُ فضَحْتَني عندَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثمَّ إنَّه خرَج إليه فأخبَره الخبَرَ فقال لا يضُرُّكَ فأمَرهم فجلَسوا ثمَّ دخَل فأتَيْناه بالقُرْصِ. فقال: هل مِن أُدْمٍ؟ فقالت أمُّ سُلَيْمٍ: يا رسولَ اللهِ قد كان عندَنا نِحْيٌ وقد عصَرْتُه أنا وأبو طَلْحَةَ. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم هلُمُّوا فإنَّ عَصْرَ الثَّلاثةِ أبلَغُ مِن عَصْرِ الاثنَيْنِ، فأُتي به رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم فعصَره رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم معهما فأخرَجوا منه مِثْلَ التَّمرةِ فمسَحوا بها القُرْصَ فمسَحه رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بيدِه، ثمَّ دعا فيه بالبركةِ ثمَّ قال: ادعوا لي عشَرةً فدعَوْتُ عشَرةً فأكَلوا منه حتَّى تجشَّؤوا شِبَعًا، فما زالوا يدخُلونَ عشَرةً عشَرةً حتَّى شبِعوا، ثمَّ جلَس رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وجلَسْنا معه فأكَلْنا حتَّى فضَل.[47].

وفي رواية عند مسلم، عن أنس بن مالك، قال: "جئتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ يومًا، فوجدتُه جالسًا مع أصحابِه يُحدِّثُهم، وقد عصَب بطنَه بعصابةٍ على حجرٍ! فقلتُ لبعضِ أصحابِه: لِمَ عصَبَ

[47] أخرجه الطبراني في الأوسط، والهيثمي في مجمع الزوائد 310/8، وقال: إسناده حسن.

رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ بطنَه؟ فقالوا: من الجوعِ! فذهبتُ إلى أبي طلحةَ، وهو زوجُ أمِّ سُلَيمٍ بنتِ مَلحان. فقلتُ: يا أبتاه! قد رأيتُ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ عصَب بطنَه بعصابةٍ، فسألتُ بعضَ أصحابِه، فقالوا: من الجوعِ. فدخل أبو طلحةَ على أُمِّي، فقال: هل من شيءٍ؟ فقالت: نعم؛ عندي كسرٌ من خبزٍ وتمراتٌ، فإن جاءنا رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ وحدَه أشبعْناه، وإن جاء آخرُ معه قلَّ عنهم، ثم ذكر سائر الحديثَ بقِصَّتِه.

وعن جابر بن عبد الله، لما كان يومُ الخندقِ نظرتُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فوجدتُه قد وضع حجرًا بينه وبين إزارِه، يقيمُ به صلبَه من الجوعِ. [السلسلة الصحيحة:4/ 152].

وعن أبي هُرَيرَةَ، كان يقولُ: آللهِ الذي لا إلهَ إلا هو، إن كنتُ لأعتمِدُ بكَبِدي على الأرضِ منَ الجوعِ، وإن كنتُ لأشُدُّ الحجَرَ على بطني منَ الجوعِ، ولقد قعَدتُ يومًا على طريقِهم الذي يَخرُجونَ منه، فمرَّ أبو بكرٍ، فسأَلتُه عن آيةٍ من كتابِ اللهِ، ما سأَلتُه إلا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يَفعَلْ، ثم مرَّ بي عُمَرُ، فسأَلتُه عن آيةٍ من كتابِ اللهِ، ما سأَلتُه إلا ليُشبِعَني، فمرَّ ولم يَفعَلْ، ثم مرَّ بي أبو القاسمِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فتبسَّم حين رآني، وعرَف ما في نفسي وما في وجهي، ثم قال: "يا أبا هِرٍّ". قلتُ: لبَّيكَ يا رسولَ اللهِ، قال: "اِلحَقْ". ومَضى فاتَّبَعتُه،

فدخَل، فاستَأذَنتُ، فأذِن لي، فدخَل، فوجَد لبنًا في قَدَحٍ، فقال: من أين هذا اللبنُ". قالوا: أهداه لك فلانٌ أو فلانةٌ، قال: "أبا هِرٍّ". قلتُ: لبَّيكَ يا رسولَ الله، قال:"اِلحَقْ إلى أهلِ الصُّفَّةِ فادعُهم لي". قال: وأهلُ الصُّفَّةِ أضيافُ الإسلامِ، لا يَأوونَ على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحدٍ، إذا أتَتْه صدَقَةٌ بعَث بها إليهم ولم يتناوَلْ منها شيئًا، وإذا أتَتْه هديةٌ أرسَل إليهم وأصاب منها وأشرَكهم فيها، فساءني ذلك، فقلتُ: وما هذا اللبنُ في أهلِ الصُّفَّةِ، كنتُ أحَقُّ أنا أن أُصيبَ من هذا اللبنِ شَربةً أتقوَّى بها. فإذا جاء أمَرني، فكنتُ أنا أُعطيهم، وما عسى أن يَبلُغَني من هذا اللبنِ، ولم يكُنْ من طاعةِ اللهِ وطاعةِ رسولِه صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بُدٌّ، فأتَيتُهم فدَعَوتُهم فأقبَلوا، فاستَأذَنوا فأذِن لهم، وأخَذوا مجالسَهم منَ البيتِ، قال: "يا أبا هِرٍّ". قلتُ: لبَّيكَ يا رسولَ الله، قال:"خُذْ فأعطِهم". قال: فأخَذتُ القَدَحَ، فجعَلتُ أُعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ، فأُعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ فيَشرَبُ حتى يَروى، ثم يَرُدُّ عليَّ القَدَحَ، حتى انتَهَيتُ إلى النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم وقد رَوِي القومُ كلُّهم، فأخَذ القَدَحَ فوضَعه على يدِه، فنظَر إليَّ فتبَسَّم، فقال: "أبا هِرٍّ". قلتُ : لبَّيكَ يا رسولَ الله، قال: "بَقِيتُ أنا وأنت". قلتُ: صدَقتَ يا رسولَ اللهِ، قال: "اقعُدْ فاشرَبْ". فقعَدتُ فشرِبتُ، فقال:

"اشرَبْ". فشرِبتُ، فما زال يقولُ: "اشرَبْ". حتى قلتُ: لا والذي بعَثك بالحَقِّ، ما أجِدُ له مَسلكًا، قال: "فأرِني". فأعطَيتُه القَدَحَ، فحمِد اللهَ وسمَّى وشرِب الفَضلَةَ. البخاري.

وعن عبد الله بن عباس، قال: أنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ التفتَ إلى أحُدٍ فقالَ: "والَّذي نفسُ محمَّدٍ بيدِهِ ما يَسرُّني أنَّ أحُداً يحوَّلُ لآلِ محمَّدٍ ذَهَبًا، أنفقُهُ في سبيلِ اللهِ أموتُ يومَ أموتُ أدَعُ منهُ دينارَينِ، إلا دينارَينِ أعدُّهما لدَينٍ". إن كانَ فَماتَ وما ترَكَ ديناراً ولا دِرهماً ولا عَبداً ولا وَليدةً وترَكَ دِرعَهُ مرهونةً عندَ يَهوديٍّ على ثلاثينَ صاعًا من شَعيرٍ[48].

وفي رواية: "قُبِض النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ودرعُهُ مرهونةٌ عند رجلٍ من يهودٍ على ثلاثين صاعًا من شعيرٍ أخذها رزقًا لعيالِهِ".

وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنَّ المُكثِرينَ همُ المُقلُّونَ يومَ القيامةِ؛ إلَّا مَن قال هكَذا وهكَذا في حقٍّ. قلتُ: اللهُ ورسولُه أعلَمُ. فقال: هكذا ثلاثًا، ثمَّ عرضَ لنا أُحُدٌ فقال: يا أبا ذَرٍّ! فقلتُ: لبَّيكَ رسولَ اللهِ وسَعديكَ وأنا

[48] أخرجه أحمد في المسند، وقال شاكر في التخريج: صحيح.

فداؤُكَ، قال: ما يُسرُّني أنَّ أُحُداً لآلِ محمَّدٍ ذَهباً، فيُمْسي عندَهم دينارٌ أو قال مِثقالٌ"[صحيح الأدب المفرد:616].

وجاء رجلٌ إلى رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فقال: إني مجهودٌ ــ أي من شدة الجوع ــ فأرسل إلى بعضِ نسائه؟ فقالت: والذي بعثك بالحقِّ، ما عندي إلا ماءٌ! ثم أرسل إلى أخرى؟ فقالت: مثلَ ذلك. حتى قلنَ كلهنَّ مثلَ ذلك: لا؛ والذي بعثك بالحقِّ، ما عندي إلا ماءٌ . فقال صلى الله عليه وسلم: "من يُضيفُ هذا الليلةَ، رحمه اللهُ؟" فقام رجلٌ من الأنصارِ فقال: أنا يا رسولَ اللهِ، فانطلق به إلى رَحْلِه، فقال لامرأتِه: هل عندك شيءٌ؟ قالت: لا؛ إلا قوتُ صِبياني! قال: فعلِّليهم بشيءٍ، فإذا دخل ضيفُنا فأَطفِئي السِّراجَ وأَرِيه أنا نأكلُ، فإذا أهوى ليأكلَ فقومي إلى السِّراجِ حتى تُطفئيه، قال: فقعدوا وأكل الضَّيفُ، فلما أصبح غدا على النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: "قد عجِب اللهُ من صنيعِكما بضيفِكما الليلةَ" مسلم.

وعن عمر بن الخطاب قال: استأذنت على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأذِن لي، وإنَّهُ لعلى حصيرٍ ما بينَه وبينَه شيْءٌ، وتحت رأسِه وسادةٌ من أُدْمٍ حشوُها ليفٌ، وإنَّ عند رجليْهِ قِرْظًا مصبوباً ــ أي ورقاً لدبغ الجلود مجموعاً ــ وعندَ رأسِه أُهُبًا معلقةً، فرأيتُ أثرَ الحصيرِ في جنبِ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فبكيتُ. فقال: "ما يُبكيك ؟"

فقلتُ: يا رسولَ الله، إنَّ كسرى وقيصرَ فيما هما فيهِ، وأنت رسولُ اللهِ؟ فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "أما ترضى أن تكونَ لهما الدنيا ولكَ الآخرةُ ؟" متفق عليه.

وفي رواية عند البخاري: فدخَلتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا هو مضطَجِعٌ على رمالِ حصيرٍ، ليس بينه وبينه فراشٌ، قد أثَّر الرمالُ بجنبِه، متكئٌ على وِسادةٍ من أَدَمٍ، حشوُها لِيفٌ، فسلَّمتُ عليه، ثم رفعتُ بصري في بيتِه، فواللهِ ما رأيتُ فيه شيئًا يرُدُّ البصرَ، غيرَ أُهبَةٍ ثلاثةٍ، فقلتُ: ادعُ اللهَ فليوسِّعْ على أمتِك، فإن فارسَ والرومَ وُسِّعَ عليهِم وأُعطوا الدنيا، وهم لا يعبُدونَ اللهَ، وكان مُتَّكِئًا، فقال: "أوَ في شكٍّ أنت يا ابنَ الخطَّابِ؟! أولئك قومٌ عُجِّلَتْ لهم طيباتُهم في الحياةِ الدنيا". فقلتُ: يا رسولَ اللهِ استغفِرْ لي.

وعن عبد الله بن مسعود، قال: اضطجع رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم على حصير فأثر في جنبه فلما استيقظ جعلتُ أمسح جنبَه، فقلت: يا رسول ألا آذنتنا حتى نبسط لك على الحصير شيئاً؟ فقال رسول اللهِ صلى الله عليه وسلم: ما لي وللدنيا، وما أنا والدنيا، إنما مثلي ومثل الدنيا كراكب ظل تحت شجرة ثم راح وتركها "[49].

[49] أخرجه أحمد في المسند، وقال شاكر: إسناده صحيح.

الوقفة الثالثة والأربعون

"النبي صلى الله عليه وسلم حقٌّ عام"

اعلَم أن النبي محمد صلى الله عليه وسلم حقٌّ عام؛ المساس به بسوء، أو الاعتداء عليه بأي نوع من الاعتداء، ليس هو اعتداء على شخصه الشريف وحسب، وإنما هو اعتداء صارخ وصريح على جميع المؤمنين والمسلمين، من السابقين، والمعاصرين، واللاحقين .. وإلى يوم القيامة .. ولكل مسلم حينئذٍ كامل الحق في أن يُطالب بحقه، ويدافع عنه ــ بالطرق المشروعة ــ كما لو أنه اعتدي على شخصه، وحقوقه وحرماته بصورة مباشرة .. وبالتالي فإنّ النبيّ صلى الله عليه وسلم فوق حريّة التعبير، وفوق أي قانون أو اعتبار يمس بجنابه المقدّس بسوء.

فالمؤمن لا يصح إيمانه ولا يكتمل حتى يكون النبيُّ صلى الله عليه وسلم أحب إلى نفسه من نفسه، وولده، وأهله، وماله، والناس أجمعين .. وأنه لو حصل الاختيار ــ وكان لا بد منه ــ بين النفس، والأهل، والمال، والولد، وكل عزيز من جهة، وبين النبي صلى الله عليه وسلم من جهة أخرى، فليس للمؤمن إلا أن يختار محمداً صلى الله عليه وسلم.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِّ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾التوبة:24.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالاً مُّبِيناً﴾ الأحزاب:36.

وقال تعالى: ﴿لِتُؤْمِنُوا بِاللهَّ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ﴾ الفتح:9. أي وتنصروه، وتعظموه.

وفي الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "لا يؤمنُ أحدُكم حتى أكونَ أحبَّ إليه من والدهِ وولده، والناسِ أجمعين" متفق عليه.

وفي رواية مسلم: "لا يؤمنُ عبدٌ حتى أكونَ أحبَّ إليه من أهلِه ومالِه والناسِ أجمعين".

وعن عبد الله بن هشام قال: كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهوآخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إلي من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "لا والذي نفسي بيده حتى أكونَ أحبَّ إليكَ من نفسِك"، فقال له عمر:

فإنه الآن والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : "الآن يا عمر" البخاري. أي الآن يا عمر عرفت الحق، فنطقت به.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة من كنَّ فيه وجدَ حلاوةَ الإيمان ــ منها ــ: أن يكونَ اللهُ ورسولُه أحبَّ إليه مما سواهما .." متفق عليه.

ومن حديث صلح الحديبية: قال عروةُ بنُ مسعودٍ: فوالله، ما تَنَخَّمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم نُخَامَةَ إلا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدَلَّكَ بها وجهَه وجلدَه، وإذا أمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضأَ كادوا يَقْتَتِلون على وضوئِه، وإذا تكَلَّمَ خَفَضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ؛ تعظيمًا له، فرجَعَ عروةُ إلى أصحابِه ــ إلى قريش ــ فقال: أَيْ قومُ، واللهِ لقد وفَدْتُ على الملوكِ، ووَفَدْتُ على قَيْصَرَ، وكسرى، والنَجَاشِيِّ، واللهِ، إن رَأَيْتُ مِلْكًا قطُّ يُعظِّمُه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمدٍ صلى الله عليه وسلم محمدًا، واللهِ إن تَنَخَّمَ نُخامةً إلا وقَعَتْ في كفِّ رجلٍ منهم فدَلَّك بها وجهَه وجلدَه، وإذا أَمَرَهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضأَ كادوا يَقْتَتِلون على وضوئِه، وإذا تكَلَّم خَفَّضُوا أصواتَهم عندَه، وما يُحِدُّون إليه النظرَ؛ تعظيمًا له، وإنه قد عَرَضَ عليكم خطةَ رُشْدٍ فأَقْبَلُوها. البخاري.

وعن أنس بن مالك، قال: "رأيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والحَلَّاقُ يحلقُه وقد أطاف به أصحابُه ما يريدون أن تقعَ شعرةٌ إلا في يدِ رجلٍ" مسلم.

ومن حديث أبي جُحيفَة، قال: "رأيتُ رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في قُبَّةٍ حَمراءَ مِن أدَمٍ، ورأيتُ بلالًا أخذَ وضوءَ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ورأيتُ الناسَ يَبتَدِرونَ ذاك الوضوءَ، فمن أصابَ منه شيئًا تَمسَّحَ به، ومن لم يُصِب منه شيئًا أخذَ مِن بَلَلِ يَدِ صاحِبِهِ، وقامَ الناسُ، فجعَلوا يأْخُذونَ يديهِ فيمسَحونَ بها وجوهَهم، قال: فأخذتُ بِيدهِ فوَضَعْتُها على وجْهي، فإذا هيَ أبرَدُ مِن الثلجِ، وأطيبُ رائِحَةً مِن المسْكِ" البخاري.

ومن حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، قال: "مرّ رسولُ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بامرأة من بني دينار، وقد أصيب زوجها، وأخوها، وأبوها مع رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم بأحد ــ أي استشهدوا ــ فلما نعوا لها ــ أي خبر استشهادهم ــ قالت: فما فعلَ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم؟!"

هذا هو همها الأكبر أن تطمئن أولاً على سلامة رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم رغم شدة مصابها!

قالوا: خيراً يا أم فلان؛ هو بحمد الله كما تحبين.

لكنها تريد أن تطمئن أكثر، فلم تكتفي بما تلقته الأذن من خبر عن رسول الله، بل تريد أن ترى بعينها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم سالماً ليطمئن قلبها، وتقر عينها .. فقالت: أرونيه حتى أنظر إليه؟ قال: فأشير لها إليه، حتى إذا رأته، قالت: " كل مصيبةٍ بعدك جلل؛ تريد صغيرة" [50]!

نعم كل مصيبة بعدك يا رسولَ الله جلَل، حتى لو كانت هذه المصيبة في الزوج، أو الأخ، أو الوالد، والولد!

وكان من شأنِ خبيبِ بنِ عديِّ بنِ عبدِ اللهِ الأنصاريِّ أمراً عجباً، حيث قد وقع أسيراً بيد قريش ــ وكان ذلك بعد وقعة أُحُد ــ فعذبوه عذاباً شديداً، ولما أرادوا صلبه لقتله .. قال خبيب: اللهمَّ إني لا أنظرُ إلا في وجهِ عدوٍّ، اللهمَّ إني لا أجدُ رسولًا إلى رسولِك، فبلِّغْهُ عني السلامَ. فجاء جبريلُ عليهِ السلامُ إلى رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فأخبرَهم بذلك. وقال خبيبٌ وهم يرفعونَه على الخشبةِ اللهمَّ أحصهم عددًا واقتلهم بدَدًا ولا تُبقِ منهم أحدًا .. فنادوه وهو مصلوبٌ: أتحبُّ أنَّ محمدًا مكانَك؟ فقال: لا واللهِ العظيمِ ما أحبُّ أن يَفْدِيَني بشوكةٍ يُشاكُها ..!

---

[50] أخرجه بن هشام في السيرة، والبيهقي في الدلائل، والطبري في تاريخه، صحيح السيرة النبوية: 411.

اللهم ارحم خُبيباً، وارض عنه ...!

وقد سُئل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كيف كان حبُّكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: "كان أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا، ومن الماء البارد على الظمأ".

وكان مالكُ إذا ذُكِرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، يتغير لونُه وينحني حتى يَصعُبَ ذلك على جُلسائه، فقيل له يوماً في ذلك؟ فقال: لو رأيتم ما رأيت لما أنكرتم عليَّ ما ترون؛ لقد كنتُ أرى محمد بن المنكدر وكان سيِّدَ القُرَّاء، لا نكادُ نسألُه عن حديثٍ أبداً إلا يبكي حتى نرحمَهُ، ولقد كنت أرى جعفر بن محمد ـــ وكان كثيرَ الدُّعابة والتَّبسُّمِ ـــ فإذا ذُكِرَ عنده النبيُّ صلى الله عليه وسلم اصفر لونُه!

ولقد كان عبد الرحمن بن القاسم، يَذكرُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فيُنظَرُ إلى لونِه كأنَّه نزفَ منه الدم، وقد جفَّ لسانُه في فمِه هيبةً لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد رأيتُ الزُّهريَّ ـــ وكان لمن أهنأ الناس ـــ فإذا ذُكِر عنده النبيُّ، فكأنه ما عرفَك ولا عرفتَهُ.

ولقد كنتُ آتي عامر بن عبد الله بن الزبير، فإذا ذُكِر عنده النبي صلى الله عليه وسلم، بكى حتى لا يبقى في عينهِ دموعٌ.

ولقد كنت آتي صفوان بن سليم ــ وكان من المتعبدين المجتهدين ــ فإذا ذُكِر النبيُّ صلى الله عليه وسلم بكى، فلا يزالُ يبكي حتى يقومَ الناسُ عنه ويتركوه[51].

هذه صور موجزة من توقير وتعظيم السَّلف الصالح للنبي صلى الله عليه وسلم .. وهو قليل من كثير، لو أردنا الاستقصاء، والإحصاء .. اللهم صلِّ على عبدك ونبيك محمد عدد خلقك، ورِضا نفسِك، وزِنَة عرشك، ومِداد كلماتك، وعلى آله، وصحبه، وسلّم تسليماً كثيراً، كثيراً[52].

* * * * *

[51] قال ابن تيميه في الفتاوى 226/1: فهذا كله نقله القاضي عياض، من كتب أصحاب مالك المعروفة ا- هـ.

[52] بالانتهاء من كتابة هذه " الوقفة الثالثة والأربعون "، وكان ذلك بتاريخ 1436/4/2 هـ 2015/1/22م، نتوقف عن الاستمرار في كتابة الوقفات مع سيرة النبي المصطفى محمد صلى الله عليه وسلم .. عسى أن تكون لنا ــ إن شاء الله ــ عودة نستأنف فيها الكتابة ــ من جديد ــ حول هذا الموضوع الهام والشّيق .. سائلاً الله تعالى العون، والقبول .. إنه تعالى سميع قريب مجيب .. وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم.

الوقفة الرابعة والأربعون

" أخذ الناس بما يظهر منهم من عمل "

لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يأخذ الناس بالظنّ، وبما يمكن أن يَظهر منهم لاحقاً، بل ولا بما يعلم من باطنهم من نفاق .. وإنما كان يأخذ الناس بظاهرهم، وبحسب ما يُظهرون من قول أو عمل؛ فإن أظهروا خيراً، قابلهم بخير مثله وأحسن منه، وإن أظهروا شراً، أخذهم بما يُظهرون من شر .. ليقرر لأمته أن الأحكام تُبنى على الظاهر، وما يَظهر من المرء، ولا شيء غير الظاهر.

فقد ظهرت قرائن تفيد احتمال أن يكون ابن صيَّاد هو الدجال ــ وقد قارَب يومئذٍ الحُلُمَ ــ لكن لا ترقى إلى درجة اليقين .. وقد قصده النبي صلى الله عليه وسلم مرة ليتثبت من حقيقته فرأتْ أمُّ ابنِ صَيَّادٍ رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وهو يَتَّقي بجُذوعِ النَّخلِ، فقالتْ لابنِ صَيَّادٍ: يا صافِ، وهو اسمُ ابنِ صَيَّادٍ، هذا محمدٌ، صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، فثارَ ابنُ صَيَّادٍ، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لوتَرَكَتْه بَيَّن"؛ أي لعرف وظهر أنه الدجال أم لا.

فقال عُمَرُ رضي اللهُ عنه: دَعْني يا رسولَ اللهِ أضرِبُ عنُقَه، فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إن يَكُنْه فلن تُسلَّطَ عليه، وإنْ لم يَكُنْه فلا خيرَ لك في قَتْلِه" البخاري.

وكذلك كان صلى الله عليه وسلم يعلم المنافقين بأسمائهم وأعيانهم، فلم يأخذهم بما يعلم من نفاقهم، وما يُضمرونه من شر، ما لم يُظهروه، ويُجاهروا به.

وقد أطلَع النبيُّ صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان على أسمائهم، فقال صلى الله عليه وسلم لحذيفة: "فإني أسر إليك أمراً فلا تذكرنه، إني قد نُهيت أن أصلي على فلان وفلان، رهط ذوي عدد من المنافقين". فلم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكرهم لأحد غير حذيفة بن اليمان، فلما توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه في خلافته إذا مات رجل يظن أنه من أولئك الرهط أخذ بيد حذيفة فاقتاده إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حذيفة صلى عليه، وإن انتزع حذيفة يده فأبى أن يمشي معه انصرف عمر معه فأبى أن يصلي عليه، وأمر عمر رضي الله عنه أن يُصلى عليه.[أخرجه البيهقي]. يأمر بالصلاة عليه لأن ظاهره كان بخلاف ما يعلمان عنه من نفاق أكبر .. فما يلزمهما لا يلزم غيرهما من المسلمين.

قال حُذَيفةُ رضيَ اللهُ عنهُ: ماتَ رجلٌ من المنافِقِينَ، فلَم أُصَلِّ عليهِ، فقالَ عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ: ما منعَك أن تصلِّيَ عليهِ؟ قُلتُ: إنَّهُ منهُم. فقال: أباللهِ منهُم أنا؟ قُلتُ: لا. فبكى عمرُ رضيَ اللهُ عنهُ[53].

كذلك قول الخارجي ذي الخويصرة جد الخوارج، للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ الله اعدل .. اتقِ الله .. فقال صلى الله عليه وسلم: "ويلكَ، ومن يعدلْ إذا لم أعدلْ .. ويلك، أولستُ أحقَّ أهلِ الأرضِ أن يتقى اللهَ" قال : ثم ولَّى الرجلُ. فقال خالدُ بنُ الوليدِ: يا رسولَ اللهِ ! ألا أضربُ عنقَه؟ فقال: "لا؛ لعله أن يكون يصلي". قال خالدٌ: وكم من مُصلٍّ يقول بلسانِه ما ليس في قلبه. فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ: "إني لم أُومرْ أن أنقِّبَ عن قلوبِ الناسِ، ولا أشقَّ بطونَهم". قال: ثم نظر إليه وهو مُقفٍ فقال: "إنه يخرج من ضِئضيءِ هذا قومٌ يتلون كتابَ اللهِ، رطبًا لا يجاوزُ حناجرَهم، يمرُقون من الدِّينِ كما يمرُق السهمُ من الرَّميَّةِ، لئن أدركتُهم لأقتلنَّهم قتلَ ثمودَ" مسلم.

فلم يقتله النبي صلى الله عليه وسلم ولم يأذن بقتله بناء على ما سيظهر منه ومن صلبه من شر في المستقبل، قبل أن يَظهر، ويُظهر شره.

---

[53] قال ابن حجر العسقلاني في المطالب العالية: إسناده صحيح.

وفي ذلك عِظة وعبرة لمن يفتتحون معارك مع فصائل وأطراف مسلمة مجاهدة على اعتبار أنها في المستقبل قد تتحول إلى عدو .. وإلى مشروع صحوات .. فقبل أن يحصل ذلك ــ ويُظهروا شيئاً من ذلك ــ يُبادرونهم القتل والقتال، وينتهكون حرماتهم .. وما يملكون من دليل على فعلهم وعدوانهم سوى الظن .. و [إِنَّ الظَّنَّ لاَ يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً] يونس: 36.

وهؤلاء إن كان لهم سلف فيما يفعلون؛ فسلفهم الطاغية فرعون لما أمر بقتل جميع من يولد من أطفال بني إسرائيل من الذكور، وذلك لما نما إلى مسامعه أن نهاية ملكه سيكون على يد مولود من بني إسرائيل!

* * * * *

الوقفة الخامسة والأربعون

" الحسنات يُذهبنَ السيئات "

من سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أنه كان يتوسع في إقالة عثرات من عُرف بسابقة جهاد وبلاء في الله، وصدق ولاء لله، ولرسوله، وللمؤمنين.

كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، أن حاطب بن أبي بلتعة قد كاتب مشركي قريش يُخبرهم ببعض أمر النبيّ صلى الله عليه وسلم .. فقال صلى الله عليه وسلم: "ما حملك يا حاطب على ما صنعت؟!". قال: ما بي إلا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، وما غيرت ولا بدلت، أردت أن تكون لي عِندَ القوم يد يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس من أصحابك هناك إلا وله من يدفع الله به عن أهله وماله، قال صلى الله عليه وسلم: "صدق، فلا تقولوا له إلا خيرا".

فقال عُمَر بن الخطابِ: إنه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فأضرب عنقه، فقال صلى الله عليه وسلم: "يا عمر، وما يدريك، لعل الله قد اطلع على أهل بدر، فقال : اعملوا ما شئتم، فقد وجبت لكم الجنة". فدمعت عينا عمر وقال : الله ورسوله أعلم. البخاري.

وفي رواية عند الترمذي، قال حاطب: ما فعلتُ ذلِكَ كُفراً وارتداداً عن ديني ولا رِضاً بالكفرِ. فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ: "صدَق". فقالَ عمرُ بنُ الخطَّابِ: دعني يا رسولَ اللهِّ أضرِبْ عنقَ هذا المُنافقِ، فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ: "إنَّهُ قد شَهِدَ بدراً، فما يُدريكَ لعلَّ اللهَّ اطَّلعَ على أَهْلِ بدرٍ، فقالَ: اعمَلوا ما شئتُمْ فقد غفَرتُ لَكُم".

فرغم أن ذنب حاطب كان عظيماً، قد حمل عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن يسأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يضرب عنقه .. وأن يرميه بالخيانة والنفاق .. إلا أن حسنة مشاركته في موقعة بدر كانت من جملة الأسباب الرئيسية التي تشفعت لحاطب، وأقالت عثرته.

وفي صحيح مسلم: أن عبداً لحاطب جاء رسول الله صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّمَ يشكو حاطباً، فقال: يا رسول الله! ليدخلن حاطب النار، فقال رسول صلَّى اللهُّ علَيهِ وسلَّم: " كذبت، لا يدخلها، فإنه شهد بدراً والحديبية".

وقال صلى الله عليه وسلم: "لن يَدْخُلَ النارَ رجلٌ شهِدَ بدرًا والحُدَيْبِيَةَ" [صحيح الجامع:5223].

وعن الزبير بن العوام، أنه خاصم رجلًا من الأنصار قد شهد بدراً، إلى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم في شِرَاجِ الحَرَّةِ، كانا يسقيان به كلاهما، فقال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم للزبير: "اسْقِ يا زُبَيْرُ، ثم أرسلِ إلى جارِكَ". فغضبَ الأنصارِيُّ، فقال : يا رسولَ اللهِ، آن كان ابنَ عَمَّتِكَ؟! فَتلَوَّنَ وجْهُ رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم ثم قال: "اسق، ثم احبس حتى يَبْلُغَ الجَدْرَ". فاستَوْعَى رسول الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم حينئذٍ حقَّهُ لِلزُّبَيرِ، وكان رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قبلَ ذلك أشارَ على الزُّبَيْرِ برأيٍ سعةٍ لهُ وللأنْصاريِّ.

قال الزُّبيرُ: والله ما أحسِبُ هذه الآيةَ نزلت إلا في ذلك :[فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ]الآية. البخاري.

فرغم أن اعتراض الأنصاري على حكم النبي صلى الله عليه وسلم ذنب عظيم ... إلا أن النبي صلى الله عليه وسلم قد أقال عثرته، ولم يأخذه بذنبه؛ لعلمه بسلامة وصدق باطنه، وأنه ممن شهد بدراً .. أعظم وأكرم بها من حسنة.

ثم أنه من الأنصار .. والنبي صلى الله عليه وسلم يقول في الأنصار: "أوصيكم بالأنصار؛ فقد قضوا الذي عليهم ــ أي من النصرة والجهاد ــ وبقي الذي لهم، فاقبلوا من محسنهم، وتجاوزوا عن مُسيئهم" البخاري.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قد لعن من الخمر عشراً، فقال: "لعن اللهُ الخمرَ، وشارِبَها، وساقِيَها، وبائِعَها، ومُبْتَاعَهَا، وعاصرَهَا، ومُعْتَصِرَها، وحامِلَها، و المحمولَةَ إليهِ، وآكِلَ ثَمَنِها"[صحيح الجامع:5091].

وفي المقابل فقد ورد في صحيح البخاري، عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً كان على عهد النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم كان اسمه عبد الله، وكان يُلقب حماراً، وكان يُضحك رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، وكان النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد جلده في الشراب، فأُتي به يوماً فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتَي به! فقال النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "لا تلعنوه فوالله ما علمت إلا أنه يحب الله ورسوله".

فرغم أن الله تعالى ورسوله صلَّى اللهُ عليه وسلَّم قد لعنا الخمر وشاربها .. وكان الصحابي من المدمنين على الخمر، وهو ما دل عليه قوله "ما أكثر ما يؤتَي به!"، إلا أن النبي صلَّى اللهُ عليه وسلَّم منع من إنزال هذا اللعن بحق الصحابي لوجود عِلة مانعة تمنع من لعنه بعينه؛ ومن لحوق اللعن به؛ وهي أنه يحب الله ورسولَه .. وأنه صادق الولاء لله ولرسوله، وللمؤمنين.

وعليه، اقتداء بسيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه .. فمن عُرف بسابقة بلاء في الله، وجهاد في سبيله، وأنه صادق الولاء لله ولرسوله، وللمؤمنين .. ينبغي أن يتوسع له في التأويل، وأن يُحسَّن به الظن، وأن تُقال عثراته ما أمكن عند مورد الكبوات، والزلات، والعثرات .. وفي الحديث فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "أقيلوا ذوي الهيئات عثراتهم" [صحيح الأدب المفرد:362]. أي أقيلوا ذوي الحسنات عثراتهم.

وقال تعالى: [وَأَقِمِ الصَّلاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ذَلِكَ ذِكْرَى لِلذَّاكِرِينَ] هود:114.

* * * * *

الوقفة السادسة والأربعون

" البراء من الخطأ أيًّا كان صاحبه "

من سيرة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم مع أصحابه أنه كان لا يقر أصحابه على خطئ، أو ظلم، فمهما يكن الصحابي من المقربين للنبي صلى الله عليه وسلم، وله حظوة في قلبه، إذا أخطأ كان صلى الله عليه وسلم ينكر عليه خطأه، ويتبرأ من خطئه .. ويُقاضيَه إن استوجب فعله القضاء .. ويغلظ في الإنكار عليه، بحسب درجة الخطأ .. دون أن يتبرأ من الصحابي ذاته، إذ البراء من الفعل شيء، والبراء من صاحبه شيء آخر.

كما في قصة خالد بن الوليد رضي الله عنه، مع النفر الذين أرادوا أن يدخلوا الإسلام، فلم يُحسنوا أن يقولوا أسلمنا، فقالوا: صبأنا صبأنا .. فلم يقبل منهم، فاستعجلهم الأسر والقتل!

كما في الحديث الذي أخرجه البخاري، عن عبد الله بن عمر قال: بعثَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم خالدَ بنَ الوليدِ إلى بني جَذِيمَةَ، فدعاهم إلى الإسلامِ، فلم يُحْسِنوا أن يقولوا: أسلَمْنا، فجعلوا يقولون: صَبَأْنا صَبَأْنا، فجعلَ خالدٌ يقتلُ منهم ويأسرُ، ودفعَ إلى كلِّ رجلٍ منا أسيرَه، حتى إذا كان يومٌ أمر خالدٌ أن يقتلَ كلُّ رجلٍ منا أسيرَه، فقلت: واللهِ لا أقتلُ أسيرِي، ولا يقتلُ رجلٌ من أصحابي أسيرَه، حتى

قدمْنا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم فذكرْناه، فرفع النبيُّ صلى الله عليه وسلم يديْه فقال: "اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما صنعَ خالدٌ، اللهمَّ إني أبرأُ إليك مما صنعَ خالدٌ" مرتين.

وفي رواية: "وبَعَثَ عَلِيًّا يُؤَدِّي قَتْلَاهُمْ ــ أي يدفع ديتهم ــ وَمَا أُتْلِفَ مِنْ أَمْوَالِهِمْ حَتَّى مَيْلَغَةَ الكلْبِ".

فتبرأ النبي صلى الله عليه وسلم من صنيع خالد الخاطئ، ولم يتبرأ من خالد .. فخالد بقيت مكانته محفوظة .. وبقي أميراً على رأس الجيوش والبعوث الإسلامية .. وبقي سيف الله المسلول .. فهذا لا يمنع من ذاك.

ونحو ذلك، ما حصل مع أسامة بن زيد رضي الله عنه، حيث كان من المقربين إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يُعرَف بين المسلمين بأنه حِبُّ رسولِ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ .. ومع ذلك لما أخطأ؛ فقتَل ذلك الرجل المحارب بعدما قال لا إله إلا الله .. غضب النبي صلى الله عليه وسلم، وأنكر عليه فعلَه إنكاراً شديداً، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، عن أسامة بن زيد، قال: "بعثنا رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم إلى الحُرَقَةِ من جُهَيْنَةَ، قال: فصبَّحْنا القومَ فهزَمْناهم. قال: ولَحِقْتُ أنا ورجلٌ مِن الأنصارِ رجلًا منهم. قال: فلما غَشِيناه قال: لا إله إلا الله. قال: فكفَّ عنه الأنصاريُّ،

فطَعَنْتُه برُمحي حتى قتَلْتُه! قال: فلما قَدِمنا بلغَ ذلك النبيَّ صلى الله عليه وسلم، قال: فقال لي: يا أسامةُ! أَقتَلْتَه بعدَ ما قال لا إله إلا الله؟! قال: قلتُ يا رسولَ الله، إنما كان مُتَعَوِّذًا. قال: أَقتَلْتَه بعدما قال لا إله إلا الله؟! قال: فما زالَ يُكرِّرُها عليَّ، حتى تمنَّيتُ أني لم أكنْ أسلَمتُ قبلَ ذلك اليومِ" البخاري.

وكذلك لما سرقت المرأةِ المخزوميَّةِ في عهدِ النبيِّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، في غزوةِ الفتحِ، وقد أهم قريشاً شأنها، فقالوا: من يُكلِّمُ فيها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئُ عليه إلا أسامةُ بنُ زيدٍ؛ حِبُّ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ؟ فأتى بها رسولَ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فكلَّمه فيها أسامةُ بنُ زيدٍ، فتلوَّنَ وجهُ رسولِ الله صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ، فقال: "أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ الله؟!". فقال له أسامةُ: استغفِرْ لي يا رسولَ الله ... مسلم. ونحو ذلك كثير في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع أصحابه، وطريقة تعامله مع أخطائهم.

وهذا منهج نبوي عظيم في التعامل مع الخطأ والمخطئين، ما أحوجنا إليه في هذا الزمان .. ما أحوجنا لأن نقول لمن نُحب ــ مهما علا قدره ــ إن أخطأ: أخطأت والصواب كذا .. نبرأ إلى الله من خطئك .. حبنا لك محفوظ .. مقامك عندنا محفوظ .. لكن هذا لا يمنعنا من أن ننصف الحق منك .. وأن نشهد عليك إن أسأت بأنك

أسأت، وإن أحسنت بأنك أحسنت، كما في الحديث، فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: "واشهدوا على المحسن بأنه مُحسن، وعلى المسيء بأنه مسيء" [السلسلة الصحيحة:457]. أيّاً كان هذا المحسن، أو كان هذا المسيء.

وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِّ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ] النساء:135.

* * * * *

الوقفة السابعة والأربعون

"سعَةُ صدرِ النبى صلى اللّه عليه وسلم للمخالف"

رغم أن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى، وطاعته واجبة، ودين وإيمان .. ومعارضته، ورد حكمه كفر ينافي الإيمان .. إلا أنه كان صلى الله عليه وسلم واسع الصدر، والحلم، والعفو، والصفح للمخالفين من أمته .. يقيل عثراتهم، ويتوسّع لهم في التأويل، والعذر .. ويسمع للرأي الآخر أحسن استماع.

فهذا فتىً من قريشٍ ــ وبكل جرأة ووقاحة ــ يأتي النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم، ويقول له على الملأ: يا رسولَ الله ائذَنْ لي في الزِّنى!

لا يريد أن يزني وحسب، وإنما يريد أيضاً رخصة في الزّنى .. وأن يُشهد الناس على هذه الرخصة .. ممن قد حرّم الزّنى على أمته!

فأقبَل القومُ عليه وزجَروه فقالوا: مَهْ مَهْ!

لكن النبيَّ صلى الله عليه وسلم لم يزجره، ولم يوبخه .. وبعد أن استمع لمقولته، قال: "ادنُهْ". فدنا منه قريباً، فقال: "أتُحِبُّه لأمِّك؟". قال: لا والله يا رسولَ الله، جعَلني اللهُ فداك. قال: "ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لأمَّهاتِهم". قال: "أفتُحِبُّه لابنتِك؟". قال: لا والله يا رسولَ الله، جعَلني اللهُ فداك. قال: "ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لبناتِهم". قال: "أفتُحِبُّه لأختِك؟". قال: لا والله يا رسولَ الله جعَلني اللهُ فداك. قال:

"ولا النَّاسُ يُحِبُّونه لأخواتِهم ". قال: أتُحِبُّه لعمَّتِك؟". قال: لا والله يا رسولَ الله، جعَلني اللهُ فداك. قال: "ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لعمَّاتِهم". قال: "أتُحِبُّه لخالتِك؟". قال: لا والله يا رسولَ الله،جعَلني اللهُ فداك. قال: "ولا النَّاسُ يُحِبُّونَه لخالاتِهم". قال: "فوضَع يدَه عليه وقال: "اللَّهمَّ اغفِرْ ذنبَه، وطهِّرْ قلبَه، وحصِّنْ فرجَه". قال: فلم يكُنْ بعدَ ذلك الفتى يلتَفِتُ إلى شيءٍ[54]. هكذا عالج النبي صلى الله عليه وسلم الموقف ...!

وهذا مُغيث، يطوف خلف بَرِيرةٍ بعد أن فارقته، يبكي ودموعُه تسيلُ على لحيته، يسألها أن ترجع إليه .. فرآهما النبي صلى الله عليه وسلم، فرقّ قلبه لمُغيث .. فقال لبريرةٍ: "لو راجعتِه ". فقالت: يا رسولَ الله تأمُرُني؟

وهذا من أدب بريرة مع رسولِ الله صلى الله عليه وسلم .. فإذا كان طلب النبي صلى الله عليه وسلم أمراً .. فحينئذٍ لا خيار لبريرة سوى الرضا والتسليم.

قال: "إنَّمَا أنَا أَشْفَعُ ".

قالت: لا حاجةَ لي فِيهِ. البخاري.

---

[54] أخرجه الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رجاله رجال الصحيح. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: 1/712: إسناده صحيح.

فاحترمَ رأيها ورغبتها .. ولم يستغل صلاحياته كنبي ــ حاشاه! ــ ليحملها على ما يحب .. فيما لا تحب!

ونحو ذلك، لما ابتاعَ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ فرساً من أعرابيٍّ فاستتبعَهُ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ليُقبِضَهُ ثمنَ فرسِهِ، فأسرعَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ المشيَ وأبطأَ الأعرابيُّ فطفقَ رجالٌ من أصحابِ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ يعترضونَ الأعرابيَّ ويساومونَه الفرسَ حتَّى زادَ بعضُهُمُ في السَّومِ على الثَّمنِ الَّذي ابتاعَ بِهِ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، ولا يشعُرونَ أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ابتاعه، فَنادى الأعرابيُّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: إن كنتَ مُبتاعاً هذا الفرسَ فابتَعهُ وإلَّا بعتُهُ.

فقامَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حينَ سمعَ الأعرابيَّ فقالَ: "أوَليسَ قد ابتعتُهُ منكَ؟!".

فقالَ الأعرابيُّ: لا واللهِ ما بعتُكَهُ!

فقالَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "بلى قد ابتعتُهُ منكَ"!

فطفِقَ النَّاسُ يلوذونَ بالنَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ وبالأعرابيِّ وَهُما يتراجعانِ فطفِقَ الأعرابيُّ يقولُ هلمَّ شَهيدًا يشهَدُ أنِّي قد بايعتُكَ!

فالرجل يريد من النبي صلى الله عليه وسلم شاهداً يشهد على أن البيع قد تم .. والنبي صلى الله عليه وسلم لم يزجره .. ولم يذكره بحقوق النبوة، وبحقه كنبي مرسل .. فداه نفسي!

فَمن جاءَ من أصحابِ النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، قالَ للأعرابيِّ: ويلَكَ إنَّ النَّبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لم يَكُن ليقولَ إلَّا حقًّا!

حتَّى جاءَ خُزَيْمةُ بنُ ثابتٍ رضيَ اللهُ عنه فاستمَعَ لمراجعةِ النَّبيِّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ والأعرابيِّ فقال: أَنا أشهدُ أنَّكَ قد بايعتَهُ!

فأقبلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على خُزَيْمةَ فقالَ: "بمَ تشهَدُ؟". فقالَ: بتصديقِكَ يا رسولَ اللهِ. فجعلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ شَهادته بشَهادةِ رجُلَيْنِ[55].

وذات مرة، مرَّ رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ على عبدِ اللهِ بن أُبيِّ بنِ سَلولٍ وهو في ظلِّ أجَمةٍ فقال ابن سلول: قد غبَّر علينا ابنُ أبي كبشةَ!

وهذه كلمة كبيرة، أراد منها الطعن ..!

فقال ابنُه عبدُ اللهِ بنُ عبدِ اللهِ: والذي أكرمك وأنزل عليك الكتابَ، إن شئتَ لأتيتُك برأسِه!

---

[55] صحيح سنن أبي داود:3607. قال أحمد شاكر في عمدة التفسير 1/341: إسناده صحيح كالشمس.

فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا، ولكنَّ بِرَّ أباكَ وأحسنْ صُحبتَه"[56]. هكذا يُقابل النبي صلى الله عليه وسلم طعن وأذى رأس النّفاق ابنُ أُبي ابن سلول ..!

وكذلك، الخارجي الجلف، الذي قال للنبي صلى الله عليه وسلم: يا رسولَ اللهِ اتقِ اللهَ!

قال صلى الله عليه وسلم: "وَيلَك، أوَ لستُ أحقَّ أهلِ الأرضِ أن يتَّقِيَ اللهَ".

قال: ثم ولَّى الرجلُ. قال خالدُ بنُ الوليدِ: يا رسولَ اللهِ، ألا أضرِبُ عُنُقَه؟

قال صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ: "لا؛ لعلَّه أن يكونَ يُصلِّي".

فقال خالدٌ: وكم من مُصلٍّ يقولُ بلسانِه ما ليس في قلبِه!

قال رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّم: "إني لم أومَرْ أن أُنَقِّبَ قلوبَ الناسِ ولا أشُقَّ بطونَهم .." البخاري.

---

[56] السلسلة الصحيحة:3223. وقوله " في ظلِّ أجَمةٍ "، أي في ظل شجرٍ كثيف ملتف بعضه على بعض. وقيل في معنى " أبو كبشة "؛ أنه رجل من أشراف العرب قد فارق عبادة الأوثان، وعبد الشّعرَ .. فكان المشركون يسمون النبي صلى الله عليه وسلم بأبي كبشة، لمفارقته لدينهم.

وغيرها كثير من النصوص والمواقف النبويّة العظيمة، التي تدلل على سعة صدر وحلم النبي صلى الله عليه وسلم مع المخالف .. وبخاصة من كان عنده شبهة عذر أو تأويل .. وفي ذلك كامل العِظة لأولئك الذين يضيق صدرهم بالمخالفين .. وفي كثير من الأحيان يُعلنون الحرب، ويُشهرون السلاح على المسلمين .. باسم الإسلام .. لأدنى خلاف .. وفيما يستساغ فيه الخلاف .. تحت عنوان قتل وقتال المصلحة .. ولا حول ولا قوة إلا بالله!

* * * * *

الوقفة الثامنة والأربعون

" القائدُ الحكيم العظيم "

عند النشأة الأولى للدولة الإسلامية في المدينة المنورة، كان يوجد فيها التنوع والتعدد الديني والطائفي، الشيء الكثير .. شأنها شأن أكثر المجتمعات المعاصرة تنوعاً وتعدداً في الفرق والملل، والانتماءات .. كما كانت تحيط بها جميع المخاطر الداخلية والخارجية .. التي قد تحيط بأي دولة إسلامية راشدة معاصرة .. ومع ذلك فقد تعامل النبي صلى الله عليه وسلم مع هذا التنوع والتعدد، وهذه المخاطر ببالغ الحكمة والدقّة، والحزم، والعدل.

على الصعيد الداخلي للدولة الناشئة في المدينة المنورة .. كان يوجد بقايا من الوثنيين .. كما كان يوجد المنافقون، وهم يمثلون في زماننا الطوائف الباطنية الملحدة التي تُظهر الإسلام من وجه، وتُبطن الكفر ..!

وكان يوجد أهل الكتاب المتمثلين بطوائف اليهود المتعددة .. وكان لكل طائفة منها عهدها وميثاقها الخاص بها مع المسلمين.

وعلى الصعيد الخارجي .. كان يوجد العدو القريب المحيط بالمدينة المنورة المتمثل بمشركي غطفان، ومشركي قريش، وغيرهم من مشركي القبائل العربية .. كما كان يوجد العدو البعيد والمتربص

بالمسلمين شراً، والمتمثل بالقوتين العظميين في ذلك الوقت، وهما: الفرس، والروم .. وهو نفس ما يمكن أن تواجهه الدولة الإسلامية المعاصرة من مخاطر وتحديات.

ومع ذلك فقد أدار النبي صلى الله عليه وسلم دفة الصراع مع تلك القوى ــ على تعددها وتنوعها، الداخلية والخارجية منها سواء ــ ببالغ الحكمة، والحنكة، والدقة، والقوة، والعظمة .. فتعامل مع كل فريق بما يناسبه، وبما يستحقه .. واستطاع أن يجد لدولته الناشئة ــ من بين هذا الكم الكبير من التعدد والتنوع في الملل، والفرق، والأعداء ــ الطريق للوجود، والحياة، لتصبح الدولة الإسلامية الناشئة الصغيرة في حجمها، أقوى وأكبر وأرقى دولة عظمى عرفها التاريخ، وفي بضع سنين .. لم ولن يعرف التاريخ مثيلاً لها في العدل، والتقدم، والتحضر .. والعطاء .. فأنجزت ــ على مستوى الحضارة ــ في بضع سنين ما قد تعجز عن إنجازه الأمم والدول الأخرى في مئات السنين!

وبالتالي لا مبرر لشكوى البعض منا .. من أننا نعيش في مجتمعات يسودها التعدد، والتنوع الطائفي، والديني .. وهذا ما قد يمنع السواد الأعظم من المسلمين من إقامة دولة لهم، تُحكَم وتُدار بالإسلام، ويكون الإسلام مرجعها في جميع مرافق الحياة السياسية، والإجتماعية، والاقتصادية، وغيرها.

ولهؤلاء نقول: قد واجه النبي صلى الله عليه وسلم ما واجهتم، وتواجهون وأكثر .. ومع ذلك لم يشكو ــ حاشاه ــ شكواكم .. ولم يعتذر لنفسه، ودينه، وأمته بأعذاركم .. وإنما تعامل مع كل مشكلة أو قضية من تلك القضايا بحكمة بالغة، وبما يناسبها .. وفق الشرع المنزل عليه .. من غير إفراط ولا تفريط .. والمطلوب منكم، أن تراجعوا بتمعن وتدبر وفقه سيرة وسنة النبي المصطفى صلى الله عليه وسلم .. لتسلكوا خطاه في مواجهة ما قد واجههه من قبل.

وما ضل ولا خاب من اتبع محمداً صلى الله عليه وسلم، والتمس هداه في مواجهة وحل ما يواجهه من مشاكل وقضايا .. بل فاز وأفلح كل الفلاح.

قال تعالى: [الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلاَلَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُواْ بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُواْ النُّورَ الَّذِيَ أُنزِلَ مَعَهُ أُوْلَـئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ]الأعراف:157.

وقال تعالى: [وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ]الأعراف:158.

* * * * *

الوقفة التّاسعة والأربعون

" أمّةُ المكارمِ "

أكثر ما كان يشد ويأسر قلوب العرب، وبخاصة منهم أهل قريش، ويتماجدون ويتفاخرون ويتشاعرون به، أمران: أولهما الفصاحة والبلاغة في اللغة .. فأنزل الله تعالى على نبيه صلى الله عليه وسلم كتاباً أبهر عقولهم، وأعجز ألسنتهم على أن يأتوا بسورة مثله .. وهم الذين قد اجتمعت فيهم الفصاحة والبلاغة .. قال تعالى: [أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُواْ مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ] يونس:38.

ثانيهما: المروءة، ومكارم الأخلاق .. كحسن العهد، والجوار .. وإغاثة الملهوف .. ونصرة المظلوم .. والصدق .. والجود، وإكرام الضيف .. والشجاعة والإقدام .. ونحو ذلك من الأخلاق الحميدة!

فكانوا يتماجدون ويتفاخرون فيما بينهم بتلك القيم والأخلاق، وكانوا يعظمونها، ويعظمون أصحابها .. وأيهم كان أكثر تحلياً واتصافاً بتلك الأخلاق .. وأكثرهم اتصافاً وجمعاً لتلك القيم والأخلاق .. كان يُسوّد عليهم، وتنتهي إليه الرئاسة، ويرجعون إليه فيما يختلفون فيه.

فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكمل الناس وأعظمهم خُلقاً .. يدعو لأحسن وأكمل، وأشرف الأخلاق .. قد اجتمعَت فيه وفي دعوته جميع مكارم ومحاسن الأخلاق .. يشهد له بذلك العدو، كما الصاحب والصديق .. فكان ذلك سبباً وحافزاً لكثير من العرب وغيرهم أن يدخلوا في دين الله أفواجاً .. كما كان سبباً في فتح أبواب كثير من البلدان والأمصار من دون أن تُراق قطرة دمٍ واحدة.

قال تعالى: [وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ] القلم:4.

وقال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ] الأنبياء:107.

وقال تعالى: [لَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ] آل عمران:159.

وعن أنس رضي الله عنه قال: " كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلُقاً" متفق عليه.

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال: سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن البرِّ، فقال: "البرُّ حُسن الخلق" مسلم.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن من خياركم أحسنَكُم أخلاقاً" متفق عليه.

وقال صلى الله عليه وسلم: "ما من شيءٍ أثقلُ في ميزان العبد المؤمن يوم القيامة من حُسن الخلق، وإن الله يبغض الفاحش البذيَّ"[57].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكثر ما يُدخل الناس الجنة، قال: "تقوى الله، وحسنُ الخلق"[58].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أكمل المؤمنين إيماناً أحسنُهم خلُقاً"[59].

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن المؤمن ليُدرك بحسن خُلقه درجة الصائمِ القائم"[60].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أنا زعيمٌ ببيت في أعلى الجنة لمن حَسُنَ خُلُقَه"[61]. والزعيم: الضامن والكفيل.

---

[57] رواه الترمذي، وقال:حديث حسن صحيح.

[58] رواه الترمذي، وقال:حديث حسن صحيح.

[59] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

[60] صحيح سنن أبي داود:4013.

[61] قال النووي: حديث صحيح، رواه أبو داود بإسناد صحيح.

وقال صلى الله عليه وسلم: "إن من أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً"[62].

وقال صلى الله عليه وسلم: "بُعثت لأتمِمَ حُسنَ الأخلاق "، وفي رواية: "إن الله بعثني بتمام مكارم الأخلاق، ومحاسن الأفعال"[63].

وقال صلى الله عليه وسلم: "خيركم إسلاماً أحاسنكم أخلاقاً إذا فَقُهوا"[64].

وعن أسامة بن شريك قال: كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم وجاءت الأعراب، ناسٌ كثير من هاهنا وهاهنا، فقالوا: يا رسول الله ما خير ما أُعطي الإنسان؟ قال: "خلُقٌ حسن"[65].

وقال صلى الله عليه وسلم: "أحب عباد الله إلى الله أحسنهم خلقاً"[66].

---

[62] رواه الترمذي، وقال: حديث حسن.

[63] جامع الأصول:4/4.

[64] صحيح الأدب المفرد:223.

[65] صحيح الأدب المفرد:223.

[66] السلسلة الصحيحة:432.

وغيرها كثير من الأحاديث الدالة على عظمة أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم .. وعن دور ومكانة الأخلاق في دينه، ودعوته.

حقاً إنه صلى الله عليه وسلم رسولُ أحسن الأخلاق .. وأن أمته أمّة مكارم ومحاسن الأخلاق!

بذلك انتصر المسلمون الأوائل وسادوا .. ولن ينتصر آخرهم ويسود إلا بما انتصر أولهم وساد.

❊ ❊ ❊ ❊ ❊

الوقفة الخمسون

" عدم استغلال النبوّة لأغراضٍ شخصيّة "

لم يُعرَف عن النبي صلى الله عليه وسلم ــ حاشاه! ــ أنه عند موارد الخلاف مع أحدٍ من أصحابه، أو عند الحاجة، أو الانتصاف لحق من حقوقه، قد استغل مقام النبوة لأغراضٍ شخصيّة، بل كان يأذن أن يُقاد منه، كما يأذن أن يساوي نفسه مع غيره أمام قانون الحق، والعدل .. ليكون في ذلك أسوة حسنةً لمن بعده، مهما علا قدْره.

كما في الحديث الذي أخرجه ابن إسحاق في السيرة، وغيره: أن رسولَ الله ﷺ عدَّل صفوف أصحابه يوم بدرٍ، وفي يده قِدْحٌ ــ وهو السهم الذي يُرمَى به عن القوس ــ يعدل به القومَ، فمر بسواد بن غَزِيَّة وهو مُستنتِلٌ من الصَّف ــ أي ظاهر ومتقدم على الصف ــ، فطعَن في بطنِه بالقِدح، وقال: "استوِ يا سواد"، فقال: يا رسولَ الله أوجعتني، وقد بعثَك اللهُ بالحق والعدلِ، فأقدني!

لم يقل له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنا رسول الله، وأنا فوق أن يُقاد مني ــ حاشاه! ــ بل كشف رسول الله ﷺ عن بطنه الشريف لينتصف سواد لحقه، وليعلّم أمته من بعده أن لا أحد فوق أن يُقاد منه، ولا أحد فوق المساءلة والمحاسبة، وفوق قانون الحق والعدل! وقال: "اسْتَقِدْ"، فاعتنقه سواد، وقبَّل بطنه! فقال رسول الله

صلى الله عليه وسلم: "ما حملكَ على هذا يا سواد؟"، قال: يا رسولَ الله حضرَ ما ترى، فأردتُ أن يكون آخر العهد بك: أن يمس جِلدي جِلدك! فدعا له رسولُ الله ﷺ بخير[67].

وأخرج النسائي بسنده عن عمارة بن ثابت الأنصاري، أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ابتاع فرسًا من أعرابيٍّ، واستتبعَه ليقبض ثمنَ فرَسه، فأسرع النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وأبطأَ الأعرابيُّ، وطفِق الرجالُ يتعرضون للأعرابي، فيسومونه بالفرسِ، وهم لا يشعرون أنَّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ ابتاعه، حتى زاد بعضُهم في السَّومِ على ما ابتاعه به منه، فنادى الأعرابيُّ النبيَّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، فقال: إن كنتُ مبتاعًا هذا الفرسَ وإلا بعتُه؟!

فقام النبي صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ حين سمع نداءَه، فقال: "أليس قد ابتعتُه منك؟!". قال: لا والله، ما بعتُكَه!! فقال النبيُّ: "قد ابتعتُه منك". فطفِق الناسُ يلوذون بالنبيِّ وبالأعرابيِّ، وهما يتراجعان وطفِق الأعرابي يقول: هلمَّ شاهدًا يشهد أني قد بعتُكَه ...؟!

هنا الشاهد؛ وهو قول الأعرابي للنبي صلى الله عليه وسلم: "هلمَّ شاهدًا يشهد أني قد بعتُكَه ..؟!"، والنبي صلى الله عليه وسلم

---

[67] السلسلة الصحيحة: 2835.

لم يغضب، ولم يستخدم صلاحياته كنبي في الإنكار على الأعرابي سؤاله هذا بأن يأتيه بشاهد يشهد له بأنه قد ابتاع الفرس منه .. وهو النبي الصادق المصدوق الأمين، الذي يبلغ عن ربه التنزيل صلوات ربي وسلامه عليه .. ليعلّم أمته من بعده، أن المرء مهما كان شريفاً، ورفيعاً، وكبيراً .. وأياً كان منصبه .. فهو ليس فوق المساءلة والمحاسبة .. وليس فوق العدالة والقانون، ولو سُئل وحوسِب في الحق ليس له أن يغضب أو يعترض.

قال خزيمةُ بنُ ثابتٍ: أنا أشهد أنك قد بعتَه. قال: فأقبل النبيُّ صلى الله عليه وسلم على خزيمةَ فقال: "بمَ تشهدُ؟!" ــ وخزيمة لم يكن قد شهد البيع ــ قال: بتصديقِك يا رسولَ اللهِ، قال: فجعل رسولُ الله شهادةَ خزيمةَ شهادةَ رجلينِ[68].

قال الشافعي، في رواية الربيع: وروي من حديث عمر ﷺ أنه قال: "رأيتُ رسولَ الله ﷺ يعطي القَوَدَ من نفسه، وأبا بكرٍ يعطي القَوَدَ من نفسه، وأنا أعطي القَوَدَ من نفسي"[69]. فمن سواهم ــ مهما علا كعبه وشأنه ــ أولى بأن يُقاد منه، ويُسأل ويُحاسَب.

---

[68] صحيح سنن النسائي: 466.

[69] فقه السنة 2/495.

وعن عبد الله بن عباس، قال: أنَّ زوجَ بَرِيرَةَ عبدٌ أسودُ يقالُ لهُ مُغيثٌ، كأنِّي أنظرُ إليهِ يطوفُ خلفَهَا يبْكي ودُموعُهُ تسيلُ على لحيتِهِ ــ وكانت قد فارقته ــ فقال النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لعباسٍ: "يا عباسُ، ألا تعجَبْ منْ حبِّ مُغيثٍ بَرِيرةَ، ومن بغضِ بريرةَ مغيثًا؟!". فقالَ النبيُّ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ لها: لَو رَاجَعْتِهِ. وفي رواية عند النسائي: فإنَّهُ أبو ولدِكِ ؟".

قالتْ: يا رسولَ اللهِ تَأْمُرُني؟ [فإن كان طلبك أمراً، فأمر الأنبياء لا يُرَد؛ مكانه السمع والطاعة].

قالَ صلى الله عليه وسلم: "إنَّمَا أنَا أَشْفَعُ".

قالت بريرة: لا حاجةَ لي فِيهِ! البخاري.

لم يعاتبها النبي صلى الله عليه وسلم لكونها قد ردت شفاعته ووساطته .. كما لم يستغل نبوته ــ حاشاه ــ في الضغط عليها لكي تقبل شفاعته، ليعلّم أمته من بعده، أن هذا أمر لا يصح فيه الإكراه، ولا الإحراج!

ولمّا أراد أسامةُ بنُ زيدٍ أن يستغل مكانته الرفيعة عند النبي صلى الله عليه وسلم في الخطأ، وأن يتشفّع للمرأة المخزومية التي سرقت .. غضب النبي صلى الله عليه وسلم وتلوّن وجهه، وقال: "أتشفعُ في حدٍّ من حدودِ اللهِ ؟!"، فقال له أسامةُ: استغفِرْ لي يا

رسولَ اللهِ! فلما كان العشيُّ قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَّمَ فاختطب، فأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثم قال: "أما بعد. فإنما أهلك الذين من قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف، تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها" مسلم. لا أحد فوق قانون السماء، ولا أحد له الحق في أن يعطّل قانون السماء، أو يُحيل بينه، وبين الناس.

ولّما استعمل النبي صلى الله عليه وسلم عاملًا على جباية الزكاة، فاستغل العاملُ وظيفته استغلالاً خاطئاً؛ فجاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم حين فرغ من عملِه، فقال: يا رسولَ اللهِ، هذا لكم وهذا أُهديَ لي! فقال له: "أفلا قعدتَ في بيتِ أبيكَ وأمكَ، فنظرتَ أيُهدى لك أم لا؟!". ثم قام رسولُ اللهِ صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ عشيةً بعد الصلاةِ، فتشهَّد وأثنى على اللهِ بما هو أهلُه، ثم قال: "أما بعد، فما بالُ العاملِ نستعملُهُ، فيأتينا فيقول: هذا من عملِكم، وهذا أُهديَ لي، أفلا قعدَ في بيتِ أبيهِ وأمهِ فنظر هل يُهدى لهُ أم لا، فوالذي نفسُ محمدٍ بيدهِ، لا يغلُّ أحدُكم منها شيئًا إلا جاء به يومَ القيامةِ يحملهُ على عُنقهِ، إن كان بعيراً جاء به لهُ رغاءٌ، وإن كانتْ بقرةً جاء بها لها خُوارٌ، وإن

كانت شاةً جاء بها تَيْعرُ ــ أي لها صوت شديد ــ فقد بلغتُ" البخاري.

وفيما تقدم عظة وعبرة لكل أمير وشريف أو مسؤول ــ مهما علا قدره ــ تنازعه نفسه على أن يجعلها فوق المساءلة والمحاسبة، وفوق أن يُقاد منها .. أو أن تحمله نفسه على استغلال منصبه ومكانته لأغراضه الشخصية، أو لتمرير باطل وظلم، أو تعطيل حق وعدل!

* * * * *

الوقفة الحادية والخمسون

" بشريّة النبى صلى اللّه عليه وسلم "

النبي صلى الله عليه وسلم، بشرٌ مثلنا، [قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ] الكهف: 110. وفصلت: 6. ينتابه ما ينتاب البشر من حزن، وفرح، وجوع، وألم، ومرض، وأحاسيس .. ويُبتلى كما يبتلى غيره، بل هو ــ فداه نفسي ــ أشد الناس في الله بلاء.

وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشر من حيث الأخذ بالأسباب فيما يسعى إليه من أهداف وغايات.

وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشر في عبادته، وجهاده، وحياته الاجتماعية، والعائلية.

وهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشرٌ في جميع أطواره، وجميع جوانب حياته الشخصية، الخاصة منها والعامة.

فهو ــ صلى الله عليه وسلم ــ بشرٌ، ليكون قدوة حسنة ومثلاً أعلى للبشرية جمعاء، يجد البشر فيه ــ في كل جزئية من جزئيات حياتهم، الخاصة والعامّة، السراء منها أم الضراء ــ قدوة ومثلاً أعلى، يُحتذى به .. ولتتجسد تعاليم الدين الحنيف في واقع معايش يراه الناس

في حياة وسلوك النبي صلى الله عليه وسلم .. وحتى لا يعتذر معتذر بعدم واقعية هذا الدين.

قال تعالى: [لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيراً]الأحزاب: 21. وقال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ] الأنبياء: 107. وقال تعالى: [وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيراً وَنَذِيراً] سبأ: 28.

* * * * *

الوقفة الثانية والخمسون

" الميزان الأكبر "

النبي صلى الله عليه وسلم هو الميزان الأكبر، والحق المطلق، عليه تُعرَض الأقوال والأعمال، والمذاهب، فما وافق منها هدية وسنته فهو الحق، وما خالف منها هديَه وسنّته فهو الباطل.

ما قال عنه هو الحق، هو الحق .. وما قال عنه هو الباطل، هو الباطل .. فتحديد قيم الخير من الشرّ مردّها إليه، وإلى ما تنزّل عليه من ربه، دون أحدٍ غيره.

كلٌّ يُقال له أخطأت وأصبت .. يؤخذ منه ويُرَد عليه .. إلا النبي صلى الله عليه وسلم؛ فحقه أن يُقال له دائماً وأبداً سمعنا وأطعنا.

الحجة في قوله، وما بلّغه عن ربه .. وقول غيره حجته في مدى موافقته لحجة النبي صلى الله عليه وسلم، فإن خالف أو عارض حجة النبي صلى الله عليه وسلم، رُدّ قوله، وضُرب به عَرض الحائط، مهما علا كعبه وشأنه.

قوله صلى الله عليه وسلم يعلو، ولا يُعلى عليه، يَحكم ولا يُحكم عليه، يُستدل به على غيره، ولا يُستدل بغيره عليه .. يُعدَل عن غيره إليه، ولا يُعدَل عنه إلى غيره.

المذهب الصحيح في اتباعه، وموافقة هديه وسنّته .. فطاعته دين وإيمان، وخير ونجاة في الدنيا والآخرة .. وعصيانه كفر وخسران، وهلاك في الدنيا والآخرة .. فمن أطاعه نجا، ومن عصاه هلَك.

الإعراض عنه، ومخالفة أمره إلى أمر غيره، ضلال مبين، وكفر ينافي اليقين .. من أطاعه فقد أطاع الله، ومن عصاه فقد عصا الله .. ولا طريق للولاية، والفوز بمحبة الله تعالى إلا من خلال طاعته، ومحبته، ومتابعته.

قال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَّ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهَّ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهَّ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً] النساء: 59.

وقال تعالى: [فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ] إلى أمر غيره [أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ] أي كفر وشرك [أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] النور: 63.

وقال تعالى: [فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً] النساء: 65.

وقال تعالى: [يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهَّ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللهَّ إِنَّ اللهَّ سَمِيعٌ عَلِيمٌ، يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا

أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ] الحجرات: 1 – 2.

وقال تعالى: [قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ]آل عمران: 31.

وقال تعالى: [وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا] الحشر: 7.

وعن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: "كلُّ أمتي يَدخلون الجنة إلا من أبى"، قيل: ومن يأبى يا رسولَ الله؟ قال:"من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى" البخاري.

* * * * *

الوقفة الثالثة والخمسون

" مولد النبى صلى الله عليه وسلم "

لحظات صنعت التاريخ؛ تاريخ العدل، والنور، والتحضّر، والإيمان!

لحظات قالت للجهل، والظلم، والظلام: ارحَل آن لك أن تنجلي .. وجاء دورك يا صباح!

لحظات .. انطلقت فيها حركة التحرر من الظلم، والعبودية للأصنام، والأوثان، والأوهام، وتعبيد العبيد للعبيد .. ومن غير كلَلٍ ولا ملل!

لحظات .. انطلقت فيها حركة التوحيد من غير توقف .. لتخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد .. ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام!

لحظات الانعتاق والتحوّل من الشرك، والجهل، والظلم، والتخلف .. إلى التوحيد، والعلم، والعدل، والنور، والحياة!

لحظات الانعتاق من كل شرٍّ .. وكسر الأغلال .. والانطلاق إلى كل خير.

لحظات خنست لها الشياطين، وارتعدت لها فرائص الطغاة الظالمين!

لحظات جعلت للحياة قيمة ومعنى .. حددت للإنسان الغايات من وجوده، ورسمت له الوسائل لتلك الغايات.

لحظات جعلت للإنسان قيمةً، بعد أن كان لا شيء .. وبعد أن كان يتقاتل ويفنى .. ويتهاتر من أجل أي شيء!

لحظات غيّرت مجرى التاريخ كله .. فاض خيرها وجمالها وجلالها على البلاد والعباد .. ومن غير توقف .. ولا يزال .. وإلى يوم القيامة!

لحظات استبشرت لها جميع مخلوقات الأرض، النبات، والحيوان، كما الإنس والجان!

لحظات أضاءت لها مشارق الأرض ومغاربها ...!

لحظات فُتِحَت لها أبواب السماء والجِنان ...!

إنها لحظات الخير والرحمة، اللحظات التي ولد فيها سيد ولد آدم محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أنعم وأكرم بها من لحظات.

* * * * *

الوقفة الرابعة والخمسون

يتبع إن شاء اللّه

عبد المنعم مصطفى حليمة

"أبو بصير الطرطوسي"

غفَرَ الله له

الفهـرس

الوقفة الأولى: "النبي صلى الله عليه وسلم كنز لا ينضب خيره، ونبع دفَّاق لا يتوقف عطاؤه" 5

الوقفة الثانية: "النبي صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة لجميع المؤمنين على اختلاف طبقاتهم الاجتماعية"..... 8

الوقفة الثالثة: "لا فرق بين السنة والسيرة"..... 12

الوقفة الرابعة: "شرط الولاية المتابعة" 13

الوقفة الخامسة: "النبي صلى الله عليه وسلم حجةٌ على الخلق"..... 15

الوقفة السادسة: "خُلق العفو عند النبي صلى الله عليه وسلم" 18

الوقفة السابعة: "خُلُق الوفاء بالعهد" 21

الوقفة الثامنة: "النقلة النوعية والعظيمة التي حصلت للبشرية بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم" 25

الوقفة التاسعة: "أوسمة شرف وعز منحها النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه" 28

الوقفة العاشرة: "أوصاف وأوسمة أضفاها النبي صلى الله عليه وسلم على البلدان والشعوب"..... 33

الوقفة الحادية عشر: "ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم في العراق وأهل العراق" 39

الوقفة الثانية عشرة: "النبي صلى الله عليه وسلم الرفيق الرحيم، والشديد القوي" 43

الوقفة الثالثة عشر: "النبي صلى الله عليه وسلم مثل أعلى في جميع جوانب الحياة" 46

الوقفة الرابعة عشر: "الوسطية في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم" 51

الوقفة الخامسة عشر:"تواضع النبي صلى الله عليه وسلم" 54

الوقفة السادسة عشر:"تقديم السابق على اللاحق".....57

الوقفة السابعة عشر:"مكانة الأنصار عند النبي صلى الله عليه وسلم" 63

الوقفة الثامنة عشر:"شكر المعروف، ومقابلة المعروف بمعروف".....69

الوقفة التاسعة عشر:"من هديه صلى الله عليه وسلم في قتال أعدائه" 72

الوقفة العشرون: "قوانين الحرب" 74

الوقفة الحادية والعشرون: "منهج النبي صلى الله عليه وسلم في الدعوة والتعاطي مع الواقع" 78

الوقفة الثانية والعشرون: "المرحلة المكية؛ مرحلة الصبر والثبات".....85

الوقفة الثالثة والعشرون: "المرحلة المدنية؛ مرحلة الجهاد والبناء" 97

الوقفة الرابعة والعشرون: "بعث الأمل في أحلك الظروف وأشدها" 110

الوقفة الخامسة والعشرون: "خيار الباطل مع الحق وأهله"..... 117

الوقفة السادسة والعشرون: "الهجرة، والتوكل، والأخذ بالأسباب"..... 123

الوقفة السابعة والعشرون: "بناء المسجد النبوي، ودور المساجد في الإسلام"..... 129

الوقفة الثامنة والعشرون: "المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار"..... 134

الوقفة التاسعة والعشرون: "إنشاء دستور ينظم العلاقة بين طوائف المجتمع المدني"..... 137

الوقفة الثلاثون: "النظر إلى المآلات، ومراعاة النتائج"..... 144

الوقفة الحادية والثلاثون: "السيرة والشورى"..... 150

الوقفة الثانية والثلاثون: "صلح الحديبية وما يُثار حوله من شبهات"... 154

الوقفة الثالثة والثلاثون: "صلح الحديبية، والوفاء بالعهد"..... 159

الوقفة الرابعة والثلاثون: "معاملة الوفود كل بحسب ما يناسبه"..... 164

الوقفة الخامسة والثلاثون: "حِلم النبي صلى الله عليه وسلم وصفحه، وغضبه"..... 173

الوقفة السادسة والثلاثون: "إذا ما انتُهِكَت حرمات الله"..... 181

الوقفة السابعة والثلاثون: "رحمةً للعالمين، وسيد العالمين"..... 188

الوقفة الثامنة والثلاثون: "بيت النبوّة، والوصيّة بالنساء خيراً"..... 195

الوقفة التاسعة والثلاثون: "النبي صلى الله عليه وسلم والأطفال"..... 202

الوقفة الأربعون: "سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مع الدواب والبهائم" 214

الوقفة الحادية والأربعون: "صور من اجتهاد النبي صلى الله عليه وسلم في العبادة" 225

الوقفة الثانية والأربعون: "صور من زهد وعيش النبي صلى الله عليه وسلم" .230

الوقفة الثالثة والأربعون: "النبي صلى الله عليه وسلم حقٌّ عام" 240

الوقفة الرابعة والأربعون: "أخذ الناس بما يظهر منهم من عمل" 247

الوقفة الخامسة والأربعون: "الحسنات يُذهبنَ السيئات" 251

الوقفة السادسة والأربعون: "البراء من الخطأ أيَّاً كان صاحبه" 256

الوقفة السابعة والأربعون: "سعَةُ صدرِ النبي صلى الله عليه وسلم للمخالف" 260

الوقفة الثامنة والأربعون: "القائدُ الحكيم العظيم" 266

الوقفة التاسعة والأربعون: "أمّةُ المكارمِ" 269

الوقفة الخمسون: "عدم استغلال النبوّة لأغراضٍ شخصيّة" 274

الوقفة الحادية والخمسون: "بشريّة النبي صلى الله عليه وسلم" 280

الوقفة الثانية والخمسون: "الميزان الأكبر" 282

الوقفة الثالثة والخمسون: "مولد النبي صلى الله عليه وسلم" 285

الوقفة الرابعة والخمسون: يتبع إن شاء الله 287

كتب للمؤلف

* الأحكام السلطانية والسياسة الشرعية
* دفتر الثورة والثوار
* خواطر وأفكار في فقه الدعوة إلى الله
* المنهج في الطلب والتلقي والاتباع
* مصطلحات ومفاهيم شرعية
* أحكام ومسائل رمضانية
* الزواج والطلاق في الإسلام
* دراسة نقدية لكتاب" هكذا علمتني الحياة"
* صيد القلم" قطوف وخواطر"
* حِكَم وفوائد جاد بها الخاطر
* البلاء أنواعه ومقاصده
* فقه الاختلاف عند أهل السنة وأهل البدع
* صراع الحضارات مفهومه، وحقيقته، ودوافعه
* من دخل ديار غير المسلمين بعهد وأمان
* الجهاد والسياسة الشرعية، مناصحة
* الغلام والمِلك
* مبادرة الجماعة الإسلامية المصرية ..
* هذه عقيدتنا وهذا الذي ندعو إليه
* الهجرة مسائل وأحكام
* ملاحظات وردود على رسالة"مجمل مسائل الإيمان العلمية في أصول العقيدة السلفية"
* القانون الإسلامي
* أعمال تُخرج صاحبها من الملة
* شروط لا إله إلا الله
* تهذيب شرح العقيدة الطحاوية
* الانتصار لأهل التوحيد ...
* الطاغوت
* تنبيه الغافلين إلى حكم شاتم الدين
* صفة الطائفة المنصورة ...
* العذر بالجهل وقيام الحجة
* حقوق وواجبات شرَعها الله للعباد
* الطريق إلى استئناف حياة إسلامية
* الاستحلال
* حكم تارك الصلاة
* حكم الإسلام في الديمقراطية ...
* لمن الحكم
* مجموع الفتاوى
* رسائل في الإعداد والجهاد
* الشيعة الروافض طائفة شركٍ وردة
* قواعد في التكفير
* مذكرة في طلب العلم
* تنبيه الدعاة المعاصرين إلى الأسس والمبادئ التي تعين على وحدة المسلمين
* وقفات مع سيرة النبي صلى الله عليه وسلم